أوراق الثورة العربية (٢)

لورنس

الحقيقة والأكذوبة

صبحي العمري



AD EL-RAYYES BOOKS

رياض الريس للكتب والنشر

LONDON - CYPRUS

لندن - قبرص

Papers of the Great Arab Revolt (2)
Lawrence of Arabia
The Truth and the Lies

BY

Sobhi Omari

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Omari, Sobhi
Lawrence of Arabia
1. Arab countries. Social Life revolt, history
I. Title
909'.097927

ISBN 1855131064

الطبعة الأولى: كانون الأول / ديسمبر ١٩٩١

المحتويات

مقدمة

كثيرة هي الأشياء التي قيلت عن لورنس، بعضها صحيح، ومعظمها نسجتها مخيلة الناس، أو عمل هو على نسجها حول نفسه. وقد ساهمت مصالح الدول ونوايا الصهيونية، على تضخيمها والمبالغة فيها، حتى لغدا الرجل أشبه بالأسطورة.

رحلته إلى الشرق، دوره في الثورة العربية، عيشه في الصحراء وارتداؤه زيّ البداوة، ثم نهايته الغامضة، وربما المأساوية، كلها ساهمت في نسج «الأسطورة»، فأين هي الحقيقة؟

صبحي العمري، الضابط في الجيش العربي أيامذاك، والذي شارك في معظم معارك الثورة، وعايش أحداثها، وقد عرفه عن قرب، له رؤية تختلف عن الكثير مما قيل أو نشر عن لورنس.

قد لا تكون دراسة المؤلف لهذه الشخصية الغريبة، هي القول الفصل. ولكنها، كعمل، تستحق التوقف عندها طويلاً.

الناشر

في أوائل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ دخلت المدرسة العسكرية في الجيش العثماني. وعندما أعلنت تركيا الحرب انتقلت المدرسة من بيروت إلى دمشق فتخرجت منها وعينت معلماً فيها، ثم نقلت إلى القطعات المحاربة في جبهة سيناء، واشتركت في معارك بئر السبع وغزة. وعندما قام الشريف حسين في حزيران سنة ١٩١٦ بثورته على الأتراك ودعا العرب لمؤازرته آليت على نفسي تلبية ندائه والاشتراك في الثورة للقيام بواجبي القومي ولكن الفرصة لم تؤاتني إلّا في أيلول سنة ١٩١٧. وبعد متاعب ومخاطر تمكنت من الفرار من الجيش التركي والالتحاق بمفرزة من جيش الأمير فيصل كانت مرابطة في وادي موسى بالقرب من معان. وعينت بالنسبة لاختصاصي آمراً لسرية رشاش في صف الخيالة، وعندما زحف جيش الأمير فيصل نحو الشام[1] في أعقاب الجيش التركي المنسحب كنت في عداده، وكان لي الشرف أن أكون الضابط العربي الذي أطلق آخر طلقة في الحرب العالمية الأولى حينما وقعت الهدنة في شمال حلب. لقد كان جيش فيصل يقاتل على طريقة الكر والفر. وكانت سريتي سرية الرشاش الوحيدة الراكبة في ذلك الجيش ولذلك كانت تلحق بأي قطعة أو مفرزة ترسل للهجوم على أحد مواقع العدو، الأمر الذي هيّأ لي الاشتراك في أكثر الحركات

(١) نعني بهذا التعبير (الشام) جميع البلاد التي تسمى اليوم (سوريا) والتي هي الآن مقسمة إلى دويلات سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والتي اقتطع منها أيضاً ما يسمى بكليكيا التي الحقت بالأتراك وهي الوية الأسكندرون وأنطاكية وأضنة ومرسين.

التي قام بها جيش فيصل منذ استيلائه على العقبة حتى نهاية الحرب وفيها وقعت أكثرية الأحداث والمعارك التي كتب عنها لورنس ومن كتبوا عنه.

في عام ١٩٢٧ كنت ضابطاً في الجيش العراقي فوقعت في يدي ترجمة لكتاب وضعه لورنس اسمه (ثورة في الصحراء) قرأت فيه الكثير مما يخالف حقيقة ما أعرفه ويعرفه زملائي ممن اشتركوا في الثورة. وخرج لورنس بكتابه الثاني (أعمدة الحكمة السبعة). وفيه من الأمور المخالفة للحقيقة ما بزَّ ما جاء بكتابه الأول. وكلما مرت الأيام كانت شهرة لورنس تزداد وتتسع ومعها ما ينشر عنه من كتب ومقالات. كلها تدور حول الأعمال الخارقة التي يزعم أنه قام بها في ميادين الثورة العربية.

ولم تنته قصة لورنس بموته في سنة ١٩٣٥، بل استمرت في التوسع والتشعب حتى يومنا هذا. الأمر الذي جلب انتباه المشتركين في الثورة كون لورنس لم يكن معروفاً في أوساط الثورة بالقدر الذي اشتهر به فيما بعد، ولم يكن يمتاز عن باقي زملائه من أعضاء البعثة البريطانية بقيادة الكولونيل جويس، ولم يكن رئيساً لأحد منهم بل كان أدناهم رتبة.

في سنة ١٩٦٣ كنت لاجئاً سياسياً في تركيا فوصلتني رسالة من السيد سليمان موسى[٢] يستوضح منّي بعض الأمور لإضافتها إلى الترجمة الإنكليزية لكتابه (لورنس والعرب) كما تفضل بإهدائي نسخة من كتابه الذي قرأت فيه أصدق الحقائق عن لورنس ووجدت فيه خير مصدر نسق أحداث الثورة العربية تنسيقاً منظماً يقرّبها إلى الأذهان من طرفيها السياسي والعسكري. ومما تطرق إليه المؤلف في كتابه تمنيه لو أن قادة الثورة تركوا معلومات كافية توضح حقيقة ما جاء في كتاب لورنس (أعمدة الحكمة السبعة) وما كتب عنه.

لقد جعلتني هذه العبارات العاتبة أشعر بأنني أحد أولئك الذين عناهم المؤلف وكأنه يحمّلني تبعة إيضاح ما جاء عن لورنس بصفته شاهد عيان لما كَتب وكُتب عنه. ومرت سنوات أخرى على ذلك، وكانت أسرع من سابقاتها من السنين إذا قيست بالقسم المنحدر من سلم

---

(٢) كاتب ومؤرخ وصاحب مؤلفات شهيرة.

العمر. وكانت كل سنة منها تأخذ معها عدداً من رجال الثورة الصالحين للكتابة عن وقائعها حتى صرت اعتقد بأنني أصبحت من القلة الباقية التي يقترب منها القدر الذي لا بد منه لكل مخلوق طال به الزمن أو قصر.

ووقع بعد ذلك بيدي أحد أعداد مجلة المصور فقرأت فيه مقالاً عن لورنس ومعه صورة تذكارية لي كنت أخذتها بالملابس البدوية في حلب عقب توقيع الهدنة، وقد كتب بجانب الصورة بأنها صورة للورنس. مع أن لورنس لم يرتد قط ملابس بدوية، بل كان يرتدي الملابس الحجازية. ولم استغرب أمر نسبة هذه الصورة إلى لورنس لأنه سبق لي أن شاهدتها قبل ذلك مكبرة في أحد متاجر بيروت مكتوباً عليها بأنها للكولونيل لورنس.

وبعد ذلك طلعت صحيفة الأهرام القاهرية بسلسلة مقالات عن لورنس مترجمة عن صحيفة (الصانداي تايمس). ثم ظهر مقال طويل استوعب كل «ملف النهار» لشهر آب سنة ١٩٦٨، وكله عن لورنس ومعه أيضاً تلك الصورة، ولكنه يذكر أنها صورتي التي اشتهرت في العالم على أنها صورة لورنس. وكان البحث مُركزاً في كل من الصنداي تايمس والنهار حول حادثة درعا الغريبة التي رواها لورنس والتي سأتكلم عنها في فصل مقبل.

ومما يلفت الانتباه في مسألة لورنس أنها بالرغم من مرور الزمن وزوال لورنس والمناسبة التي عمل بها، فإن الضجيج حولها لا يكاد يهدأ حتى يخرج مؤلف جديد أو مخرج فيلم أو معلق ليثيرها. وكأنه كان من وراء ذلك من يتعمد هذه الإثارة لغايات وأهداف مقصودة. فمن هؤلاء المثيرون؟ ومن هم أصحاب تلك المصلحة؟.

لقد كانت الثورة العربية حركة قومية تعبر تعبيراً عملياً صادقاً عن اليقظة العربية التي بدأت تتجمع منذ أواسط القرن التاسع عشر. إن فتح مصر الذي تم على يد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ كان مرحلة حاسمة في سيطرة العثمانيين على العالم العربي. ولما انتهى عهد ابنه السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦ وهو أمجد عهد في تاريخهم. فكان الحكم العثماني في العالم العربي يمتد دون انقطاع من الجزائر حتى جبال بيشتكوه في شرقي العراق. ومن جبال طوروس حتى الخليج العربي. دامت هذه السيطرة حتى أوائل

القرن الحالي ولأكثر من أربعمائة سنة تتسع وتضيق حسب إقبال الأيام وإدبارها على الدولة. وصاحب هذه السنوات الطويلة الكثير من الثورات التي كان يقوم بها أشخاص لا تتجاوز ثوراتهم أطماعهم الشخصية. وكان أقرب تلك الثورات زمنياً إلينا ثورتا محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية وحاكم مصر محمد علي الألباني. فالأولى كانت حركة دينية صادقة بحلة عربية. والثانية كانت حركة قومية مزيفة يقودها الباني بزي عربي. فسلط الأتراك قائد الحركة الثانية الألباني على الحركة الوهّابية فأخمدها ولما أصبح قوياً حاول القضاء على حكم سيِّده السلطان الذي كان قد أصبح مهترئاً فتدخلت عندئذٍ الدول الكبرى ذات الأطماع بإرث الرجل المريض[3] فحالت دون ظهور دولة فتية تقف حجر عثرة دون أطماعهم فأرغمته على العودة إلى مصر.

إذا حللنا الأحداث والأسباب والعوامل التي دفعت الحسين لإعلان ثورته على السلطان، لا نجد فيها أي سبب شخصي، فقد كانت ثورة عربية نتيجة ليقظة قومية ترجع إلى ثلاثة أجيال تعاقبت بخطوات بطيئة وانتشار متزايد جيلاً بعد جيل. وكان لجيلها الأخير الذي رافق بداية الحرب العالمية الأولى واعتلى عدد من قادته أعواد المشانق جهده ورأيه ومشاركته في إثارة الثورة ودفعها إلى التحقق. ويمكننا أن نقول إن الثورة العربية بالرغم من اشتعالها في الحجاز، فإنها لم تكن تعبيراً عن رأي الحسين وحده، بل كانت التعبير الصادق عن آراء أكثر عقلاء العرب في أقطار العراق والشام والحجاز. إن الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين الطامعتين في قطري الشام والعراق (إنكلترا وفرنسا) ما كانتا مستعدتين للسماح بتأسيس دولة جديدة فتية في مناطق أطماعهما كما فعلت في حركة محمد علي. ولكن تردي وضعهما العسكري في ذلك الحين اضطرهما إلى سلوك طريق الختل والدهاء فاتفق الإنكليز مع الحسين على الثورة، وأعطوه العهود والوعود المكتوبة وغير المكتوبة، على مساعدته بتأسيس دولة عربية مستقلة في الجزيرة العربية والعراق والشام. وبينما كانوا يتفاوضون مع الحسين على ذلك كانوا يقومون بتقسيم البلاد التي اتفقوا معه على استقلالها مع الفرنسيين. وذهبوا

---

(٣) الرجل المريض تعبير اطلقه ساسة الغرب على الدولة العثمانية رمزاً لضعفها وقرب فنائها.

إلى أبعد من ذلك فأشركوا معهم الصهاينة بإعطائهم وطناً في فلسطين التي تعتبر أهم نقطة حساسة في قلب الوطن العربي.

ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى نفذت الحليفتان اتفاقهما وأعلنتا معاهدة سايكس ـ بيكو السرية التي كانت بينهما كما بدأت بريطانيا بتنفيذ وعدها بتأسيس الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وبذلك نقضوا عهدهم للعرب وتنكروا لهم ولمبادىء الرئيس الأميركي ولسن في حق الشعوب بتقرير مصيرها، فحجبوها عن أعين الرأي العام العالمي بنظام الانتداب. وأما مجهود جيش الثورة العربي الذي كان له أثر كبير في انهزام الأتراك النهائي، والذي اعترف به كبار قادتهم وساستهم، فقد شوهوه بتلك الدعايات المحكمة التي افتعلوها فجعلوا من لورنس المسير لتلك الثورة وبأنه هو الذي أثارها وقادها ووجهها بعقله وتفكيره وبما كان ينثره فيها من ذهب. وهكذا أدخلوا في الأذهان أن هذه الثورة لم تكن سوى تجمعات بدو متوحشين، لا تفكير لهم بحرية ولا بإستقلال سوى الذهب الذي كان ينثره عليهم لورنس.

نلاحظ في كل ما كتبه لورنس تجنبه، على قدر الإمكان التحدث عن جيش الثورة النظامي الذي كان في حقيقة الواقع عماد الثورة في معاركها المستمرة. ونجحت هذه الدعاية إلى مدى بعيد، بعد أن كررتها عشرات المؤلفات والمئات من الصحف والمجلات.

وأخيراً، اتضح لنا السبب وراء تلك الدعاية التي أثيرت ولا تزال تثار حول لورنس، ومن هم أصحاب المصلحة في إثارتها، إنهم الإنكليز ليغطوا خيانتهم لحلفائهم العرب، والصهاينة ليقللوا من شأن الثورة. وأغرب ما في قصتنا مع لورنس هو أن أجيالنا الصاعدة صدقت كل ما كتب عنه وما كتبه هو عن نفسه. فاطفالنا الذين أصبحوا شباباً، وشبابنا الذين أصبحوا كهولاً، يعتقدون أن لورنس هو الذي قاد ثورة نهضتهم الأولى، مصدقين كل ما قاله وقيل عنه. وبذلك شاركوا أعداءهم في تشويه حقيقة الثورة وغايتها التي قام بها آباؤهم في سبيل حريتهم وكرامتهم. هذا هو السبب الذي دعاني إلى تفنيد ما كُتب عن لورنس بصفتي شاهد عيان. لقد عرفت لورنس عن كثب، واشتركت في أكثر الوقائع والمعارك التي كتب عنها وأعرف جميع الأشخاص الذين ذكرهم.

إن هذا الكتاب أول كتاب عن لورنس يكتبه عربي اشترك في الثورة وعرف لورنس. وأظن أنه سيكون آخر كتاب من نوعه، لأن أكثر أولئك الذين يصلحون لكتابة هذا الموضوع ممن يعرفونه قد ذهبوا إلى رحمة ربهم. إنني لا أطمع أن يغطي هذا الكتاب كل تلك الضجة التي أثارتها عشرات الكتب والصحف والأفلام في جميع أنحاء العالم منذ أكثر من ثلاثين عاماً ولكنها شهادة حق من واجبي أن أدلي بها للمؤرخ المنصف الذي سيسجل قصة لورنس على حقيقتها.

١

قيام الثورة

أعلنت الحرب العالمية الأولى والبلاد العربية على الوضع الذي ذكرناه وجمال باشا يعمل مسرعاً على تطبيق خطة جمعية الاتحاد والترقي بتصفية الوضع العربي، ووجد أمير الحجاز الشريف حسين بن علي نفسه وجهاً لوجه أمام موقف مصيري يتعلق بحاضر العرب ومستقبلهم، يتطلب منه حلاً سريعاً يتناسب مع السرعة التي يسير عليها الأتراك لتطبيق مخططهم. وكانت الأمور الرئيسية التي تدور حول هذا الموقف بالنسبة للعرب أربعة:

١ ـ المظالم التي يقوم بها الأتراك في الشام والعراق.

٢ ـ العزلة التي أصبح فيها الحجاز من جراء الحصار البحري بسبب الحرب والمجاعة المخيفة التي بدأت تزحف إليه.

٣ ـ النشاط الفعلي الذي شرع فيه الأتراك للقضاء على الامتيازات التي يتمتع بها الحجاز لجعله كباقي الولايات العثمانية، وعزل الحسين عن الإمارة.

٤ ـ الاحتلال الإنكليزي الذي يزحف في أراضي القطرين العربيين، العراق والشام دون أن يكون للعرب أصحاب البلاد شأن لا في واقعها ولا في مستقبلها. وأنهم أمام

هذا الوضع ليسوا سوى رعية لمغلوب يبرحها خراباً أو غالب يستولي عليها بحد السيف.

لقد سعى الحسين بجميع وسائله لإقناع الأتراك بتبديل خطتهم بإيقاف عمليات الإعدام وإصدار عفو عام وتطبيق الحكم اللامركزي وعدم التعرض لوضع الحجاز فأرسل ابنه فيصل ليقنعهم بوجهة نظره. فلم تثمر جميع تلك المحاولات واستمروا في عمليات الاعدام بالجملة حتى أن ابنه فيصل أصبح مهدداً واعتبر كرهينة عندهم، في دمشق. وأثناء ذلك اتصل في دمشق بعض زعماء الحزبين العربيين (العهد والفتاة) السريين وهما أكبر وأنشط الأحزاب العربية بفيصل وطلبوا إليه الاتصال بأبيه من أجل تهيئة ثورة تقام في الشام أو الحجاز. كان الإنكليز خلال هذه الحوادث يترصدون الأمور بعين ساهرة ويتهيأون للاستفادة من كل غلطة يرتكبها الأتراك، وكان الإنكليز قبل ذلك قد أخذوا إلى جانبهم أكثر أمراء الجزيرة العربية ومشايخها ولم يبق في جانب الأتراك سوى ابن الرشيد الذي حرضوا عليه عدوه ابن السعود وإمام اليمن القابع في مكانه لا يفكر بمبارحته، وأمير مكة الذي كان يعتبر أهمهم بالنسبة لمكانته الدينية والثقة التي يتمتع بها من قبل شعبي العراق والشام.

ويقرر الأتراك إعلان الجهاد المقدس على الروس والإنكليز والفرنسيين على أن يذاع هذا الإعلان على العالم الإسلامي من منبر المسجد في مكة داعين المسلمين للجهاد وقتال أعداء الخليفة. ورفض الحسين إعلان ذلك قبل تحقيق رغبات العرب والتي أرسلها كشروط ببرقية إلى أنور باشا فتلقى عنها جواباً قاسياً غير مهذب.

ويبدأ الإنكليز مفاوضاتهم مع الحسين في أواخر آب ١٩١٥ فيعدونه إنْ هو ثار على الأتراك ووقف إلى جانبهم أن يمدوه بكل

ما يحتاج إليه ويعترفوا باستقلال البلاد العربية ونقل الخلافة الإسلامية إلى العرب. فأصبح الحسين بذلك أمام جبهتين، الإنكليز يعدونه بالعون وتحرير البلاد العربية ومنحها الحرية والاستقلال من جهة، والأتراك وهم يتوعدون ويهددون ويتعجرفون من جهة ثانية، وهو مرتاب بكليهما، غير مطمئن للإنكليز وليس أميناً من الأتراك.

إن حماقة الأتراك وغرورهم وقصر نظرهم خدم قضية الإنكليز. كما أن لباقة الإنكليز وبعد نظرهم وَلِيْنَهم وصبرهم أضر بقضية الأتراك. ولم يبق أمام الحسين سوى أن يختار أحد طريقين، إما أن يعلن الثورة على الأتراك ويكون في جانب الإنكليز ضمن الشروط التي عرضوها وهي في صالح العرب، وإما أن يبقى بجانب الأتراك وسيفهم مسلط على رقاب العرب يعملون فيهم تقتيلاً وتنكيلاً، فيختار الطريق الذي اعتبره في صالح أمته فمشاه وهو يكرر قوله الشهير الذي سمعناه منه عندما كان يقص علينا في مكة حوادث الأيام الأولى من قيام الثورة:

مشيناها خطىً كتبت علينا   ومن كتبت عليه خطى مشاها

مشى الحسين خطوته الأولى نحو الثورة محترزاً متحفظاً، لم يترك أثناء مفاوضاته مع الإنكليز أية نقطة مهمة إلّا وتطرق إليها وصارحهم بها محاولاً أن يؤمّن حقوق العرب كاملة. ويجب أن لا ننسى ونحن نستعرض هذه الأحداث، أن هذه المفاوضات كانت تجري في سنة ١٩١٥ ولم يكن في حينها دولة عربية واحدة مستقلة، وأن الحسين كان أول أمير عربي يفاوض ويتكلم باسم العرب منذ ألف سنة على الأقل.

كان الحسين يفاوض أكبر وأقوى وأعرق وأخبث حكومة استعمارية في ذلك الوقت. كان يفاوضهم بقلب طيب صدوق، ولذلك لم يطلب إليهم توضيح اتفاقيته ببنود معاهدة يشترك

فيها باقي حلفاء الإنكليز، لأنه لم يسبق له أن فاوض حكومة أجنبية أو مارس ألاعيب السياسة وخفاياها، وكان يظن أن الدول العظمى كعظماء الرجال الشرفاء يجعلون للصدق والشرف المقام الأول في معاملاتهم مع الآخرين.

ولذلك فإننا نلاحظ في مراسلاته مع مكماهون تكراراً لبيان ثقته بشرف بريطانيا. وقد تعلم متأخراً، ومن بريطانيا نفسها، أنه لا اعتبار للشرف في المعاملات السياسية التي تقوم بين القوي والضعيف وأن الصدق والحق يقدَّران بميزان القوة التي يملكها المتفاوضون.

بعد أن مثل الإنكليز على المسرح العربي هذه التمثيلية (بالاتفاق مع حليفتهم فرنسا) ببطولة مكماهون وستورز. قاموا عقب ذلك بتمثيل رواية أخرى بالاشتراك مع روسيا وفرنسا ليقضوا نهائياً على الرجل المريض (تركيا) ويقتسموا تركته. ثم يقومون بعد ذلك بتمثيل رواية ثالثة مع الصهيونيين لمنحهم في داخل إحدى حصصهم من تركة الرجل المريض (فلسطين) وطناً قومياً على حساب أصحابها العرب. لتضمن بذلك مساعدتهم خلال الحرب. كانت جميع هذه الاتفاقات التي أجروها مع الفرنسيين واليهود على حساب العرب وتتعارض مع اتفاقهم مع الحسين. ويزعج الأتراك موقف الحسين الحازم في طلباته، فيستعجلون التخلص منه، فيرسلون قطعات إضافية إلى المدينة بقيادة فخري باشا، وبالرغم من تحرج الموقف ووضوح نوايا الأتراك واستعجالهم في تطبيق خطتهم في التغلب على موقف الحسين فإنه لم يكن في نية الحسين أن يعلن الثورة قبل شهر آب حيث يكون قد أنجز استعداداته وكان أولاده يلحون عليه بالتريث وانتظار وصول كميات كافية من الأسلحة والعتاد.

في هذه الآونة تحركت بالقطار من دمشق إلى المدينة قوة عسكرية مسلحة ومجهزة تجهيزاً خاصاً قوامها ٣٥٠٠ ضابط

وجندي بقيادة العقيد خيري بك. وكانت هذه القوة مرافقة لبعثة ألمانية بأمرة البارون (ستوتز نيفن) تتشكل من أربعة ضباط وجهاز لاسلكي مع موظفيه وبعض الاتباع وجميعهم من الألمان. وفُهم فيما بعد أن هذه البعثة كانت موفدة مع قوة خيري بك إلى اليمن (الموالية لهم) بقصد دعم سلطة الأتراك في الجزيرة العربية وإقامة مركز لاسلكي ألماني بقرب ساحل البحر الأحمر للاتصال بقيادة الجنرال الألماني (لينوفوربيك) في مستعمرة أفريقيا الشرقية الألمانية (كينيا) وتأمين اتصالها بواسطة هذه المحطة ببرلين. وقد كان عليهم أيضاً تنظيم الدعاية وتوجيهها إلى بلاد الصومال والحبشة والسودان ولربما إلى الهند. ومن أهداف هذه الحملة أيضاً تقوية القوة التركية التي كانت تشغل المنافذ المؤدية إلى عدن وباب المندب.

ووصلت هذه القوة مع البعثة الألمانية بالقطار إلى محطة العلا، وهي آخر نقطة في الجنوب يسمح لغير المسلمين بالوصول إليها. ومنها واصلت القوة العسكرية سفرها إلى المدينة بينما تركت البعثة الألمانية القطار متوجهة إلى ثغر ينبع لتواصل السفر بحراً إلى (القنفذ) الواقعة على ساحل البحر الأحمر في جنوب ميناء عسير، وفيها يجتمعون ثانية بقوة خيري بك لاستئناف مسيرتهم مجتمعين إلى اليمن.

وصول هذه الحملة التركية إلى المدينة هو الذي دفع الشريف حسين إلى استعجال إعلان الثورة وعدم تأخيرها إلى موعدها الذي كان مقرراً في شهر آب، لاعتقاده أن الخطر الكامن في هذه الحملة التي كان يجب أن تمر من مكة يفوق الخطر الناجم عن نقص الأسلحة التي يملكها.

وكانت البعثة الألمانية في ينبع عندما أعلنت الثورة، ففرت منها وتمكنت من الوصول إلى دمشق وبقيت قوة خيري بك في المدينة حيث التحقت بحاميتها.

قبل إعلان الثورة كانت المخابرات والمناورات قد اشتدت بين الحسين والأتراك وتمكن الشريف فيصل من الإنفلات من جمال باشا والوصول إلى المدينة. وفي ٢ حزيران ١٩١٦ بارح الشريفان علي وفيصل مع مائتي هجان معسكرهما في سيدنا حمرة قرب جبل أُحد القريب من المدينة، بعد أن أرسلا كتاباً إلى قائد الجيش فخري باشا بقطع علاقاتهما.

مما حدثني به الشريف ناصر بن علي عن هذه الأيام الأولى من الثورة قال: عندما تقرر قطع العلاقات بالأتراك وتبليغ القائد التركي بذلك اتخذ هذا القرار في الاجتماع الذي جرى في معسكر الشريف علي في سيدنا حمرة بين الشريفين علي وفيصل والشريفين شحاد وناصر[1]. وكلفت بترحيل العائلات الموجودة في العوالي وهي بساتين على بعد أربعة كيلومترات جنوب المدينة. وبعد أن رحلت قافلة العائلات بحراسة بعض المسلحين توجهت ومعي ابن عمي الشريف أحمد بن غالب، والعبد خيرالله عائداً إلى جيش الأمير علي وسلكت طريق الحرة الوعر الذي يمر من شرقي المدينة. وخلال الطريق خرج علينا فجأة ولد الشيخ (ابن مبيريك)[2] ومعه اثنا عشر هجانا مسلحين، معترضاً طريقنا وسألني بنبرة التهكم والتهديد (وهو يعرفني طبعاً) أنت ذاهب إلى ربعك؟ يقصد جيش الأمير علي، وبسرعة خاطفة قدرت الموقف بأن الأميرين خرجا من سيدنا حمرة بعد أن بلَّغا القائد التركي بثورتهم على الترك، وبأن ولد ابن مبيريك الضالع معهم قد أرسل إلى هذا الطريق لعرقلة الاتصالات بين المدينة وجيش

(١) الشريف شحاد كبير أشراف المدينة وصاحب النفوذ على العشائر التي في أطرافها، خصوصاً عشائر حرب التي تعتبر أكبر عشائر الجزيرة العربية، وأخوه الشريف ناصر متزوج من هذه العشيرة.

(٢) ابن مبيريك هو من كبار مشايخ حرب تقع منطقته في أطراف رابغ وهو ضالع مع الأتراك ولم يشترك في الثورة إلا بعد أن قويت وقطع أمله من الأتراك.

علي وفيصل، وبأن الوقت والموقف لا يساعدان في هذا الظلام الحالك (كانت الساعة التاسعة ليلاً) على الأخذ والرد، ونحن ثلاثة وهم ثلاثة عشر لم يتبينوا حقيقة عددنا في هذا الظلام بعد. وقررت بسرعة وكان جوابي عن سؤاله أن وجهت بندقيتي نحوه وأطلقت عليه طلقة واحدة خر على أثرها من على ناقته قتيلاً والتفت إلى من معه وطلبت إليهم أن يستسلموا فاستسلموا بتأثير المفاجأة التي جمدتهم بعد مقتل شيخهم فجمعنا سلاحهم وفتشنا متاعهم وعثرنا بخرج ابن مبيريك على مقدار كبير من الليرات الذهبية وعلى رسائل من القائد التركي إلى بعض مشايخ البدو يطلب إليهم عدم الانحياز للأشراف، وبعض الرسائل من ابن الرشيد.

وكانت طلقة الشريف ناصر هذه، أول طلقة تطلق في الثورة العربية الكبرى. وولد ابن مبيريك أول قتيل من قتلاها. ويلتحق الشريف ناصر مع أسراه الاثني عشر بجيش الأمير علي وكانوا أول الأسرى فيها.

ويتوجه الجيش من هناك بمساعدة القبائل حيث هاجموا السكة الحديدية بين المدينة ومحطة المحيط. وفي ٩ حزيران اشتبكوا في أول معركة مع الأتراك قادها فخري باشا بنفسه واستمر القتال من الصباح إلى الظهر حيث انسحب العرب نحو بير الماشي بسبب نفاد عتادهم، وافترق الأميران فذهب فيصل إلى جهات ينبع وبقي علي في موقع القدير وأخذا يستعدان للنضال.

كل ذلك جرى قبل أن تعلن الثورة من قبل والدهما بصورة رسمية. وقع ذلك في جوار المدينة والقيادة في مكة لم يصلها علم به، لانقطاع خطوط المخابرات السلكية وفقدان الاتصالات اللاسلكية.

كانت القوات التركية الموجودة في الحجاز حين إعلان الثورة كما يلي:

في المدينة وحواليها ٣ ألوية خيالة وبغالة، ٣ ألوية هجانة، ١٦ مدفعاً، ٧ أفواج مشاة، ٣ سرايا هندسة، عدد من الرشاشات. المجموع ٢٣,٣٠٠ جندي يقودهم ٦٠٠ ضابط بقيادة اللواء فخري باشا[٣].

في الطائف: وهي مصيف مكة، وفي ذلك الوقت كان يصطاف فيها والي الحجاز وقائدها الفريق غالب باشا، ومجموع ما كان فيها من القوات عشرة مدافع و١٧٠٠ ضابط وجندي.

في جدة: وهي ثغر مكة، نحو ألف جندي وعشرون مدفعاً.

وكانت هناك حاميات صغيرة في ينبع والوجه ومناطق أخرى علاوة على الحاميات المختلفة العدد في جميع محطات السكة الحديدية وكانت بعض هذه الحاميات متحصنة ضمن تحكيمات وخنادق وبعضها الآخر ضمن قلاع منيعة.

يتضح من هذا الإحصاء أن العرب استهدفوا حين إعلانهم الثورة قوات عسكرية منظمة وقوية ومحصنة تتفوق عليهم في كل شيء وكان عليهم أن يهاجموها داخل حصونها وهم لا يملكون إلا القليل من البنادق القديمة والعتاد محرومين من جميع وسائل القتال الأخرى.

قلنا إن الأميرين علي وفيصل اشتبكا صباح ٩ حزيران في جوار المدينة بالمعركة الأولى مع قوات فخري باشا، وفي ذلك اليوم بارح الأمير عبدالله الطائف بحجة تأديب بعض العشائر. وفي مساء ذلك اليوم هاجم حامية الطائف التي تحصنت في قلعتها وأسوارها.

وصباح اليوم التالي في التاسع من شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران (يونيو) ١٩١٦ أعلن أمير مكة الشريف حسين بن علي

(٣) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد.

الثورة على الأتراك بصورة رسمية باطلاق طلقة من بندقيته من نافذة غرفته على ثكنة جرول العسكرية. وهكذا أعلن العرب ثورتهم على الأتراك. تلك الثورة التي نتج عنها أمور وأحداث كان لها أعظم الأثر في مستقبل العرب والأتراك. وأهمها خروج الأتراك نهائياً من البلاد العربية. وكانت هذه الثورة من أطول الثورات التي عرفها التاريخ العربي، لقد قامت في حزيران ١٩١٦ وفي عام ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية الأولى وبعد عشرين سنة قامت الحرب العالمية الثانية ولكن هذه الثورة بقيت مشتعلة بين الحربين العالميتين وبعدها وفي أكثر الأقطار العربية لم ينطفىء لها لهيب حتى الآن وجميعها كانت ولا تزال تستهدف ما استهدفه الحسين بن علي من حرية وانعتاق.

ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي وتتحقق الأمة العربية من خيانة حلفائها وإنكارهم لتعهداتهم وتقسيمهم لبلادها فيما بينهم، حتى اشتعلت ثورة العراق على الإنكليز واعقبتها ثورات متصلة متلاحقة في جميع أطراف سوريا على الإنكليز والفرنسيين. في لبنان والسواحل وجبل العلويين وجبل الدروز، وديـر الزور وشمال حلب وحمص وحماه ودمشق، وفلسطين حتى لم يبق مكان في سوريا لم تقم فيه ثورة لا يكاد الإنكليز والفرنسيون يتمكنون من التغلب على الواحدة منها في جهة حتى تشتعل ثورة أخرى في مكان آخر.

لكن لم تخرج الحليفتان من العراق والشام إلا بعد أن انشأتا في أهم جزء من الوطن دولة غريبة (إسرائيل) تجمع أفرادها من جميع أطراف العالم فأمدوها بكل أنواع العون لتتمكن من البقاء والتوسع ولتكون جرحاً نازفاً يلهي الأمة العربية عن النهوض.

كانت قوات الثورة في بداية قيامها تتشكل من البدو المسلحين ببنادق متنوعة قديمة وبالية وليس لديهم سوى القليل من

الطلقات ولم يكن في مقدورهم مهاجمة المواضع والقلاع المحصنة، لعدم معرفتهم بمثل هذه الحروب وعدم وجود مدفعية تسندهم خلال الهجوم. ولذلك كان من الصعب استيلاء البدو على أية حامية عسكرية متمركزة في حصونها.

إن حامية جدة كانت أول الحاميات التركية التي استسلمت للعرب وذلك بسبب القصف الذي قامت به ثلاث بوارج إنكليزية على مواقعها العسكرية. وكان ذلك في يوم ١٦ حزيران (يونيو) ١٩١٦ أي بعد ستة أيام من إعلان الثورة. واستعان أهل مكة الذين دفعتهم الحمية عندما ضرب القائد التركي الكعبة بمدافعه ببعض المدافع التي غنمت من جدة فأستولوا بها على قلعة جياد في ٤ تموز ١٩١٦.

وفي ١٥ آب ١٩١٦ استولوا على ثغري اليث على شاطىء البحر الأحمر بين الحجاز واليمن. وفي ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩١٦ استسلمت حامية الطائف بعد أن اشترك بحصارها عدد من المدافع والرشاشات والجنود المصريين وبلغ مجموع ما وقع بيد العرب في هذه المواقع ١٣٣ ضابطاً و٤٤٥٨ جندياً و٢٩ مدفعاً[٤].

أما في المدينة فإن فخري باشا بعد انسحاب الأميرين علي وفيصل في معركتهما الأولى تشجع وهاجم في منتصف حزيران بقوة كبيرة جيش الأمير فيصل في مخلط فاحتلها وبلغ بير الماشي وهي على بعد ٣٠ كيلومتراً غرب المدينة وفي ١٩ آب ١٩١٦ قام بحملة ثانية على جيش فيصل انتهت بارتداده وأسر العرب منهم ضابطين و٦٠ جندياً وفي أول تشرين الأول ١٩١٦ حمل أيضاً على جيش فيصل فارتد أمامه حتى ينبع ولكن هجمات

(٤) الاستيلاء على مدافع من العدو في أغلب الأحوال لا يعني أنها تصلح للاستعمال. لأن العدو في الغالب لا يتركها قبل تخريبها ونفاد عتادها.

البدو على خطوط مواصلاته أجبرته على الارتداد إلى المدينة فلحق به فيصل. وأخيراً قرر فخري باشا الدفاع المستكن[٥] عن المدينة وبقي كذلك حتى انتهاء الحرب العامة واستسلامه بعدها بأشهر بناء على أوامر صدرت إليه من السلطان وبضغط متزايد من قبل الضباط الذين كانوا محاصرين معه.

في الفترة التي كانت تدور فيها هذه المعارك كانت الطائف لا تزال محاصرة لم تستسلم ووضع فخري باشا جيد وبيده زمام المبادرة، تارة يقوم بالهجوم على جيش علي وتارة أخرى على جيش فيصل. وكانت الشائعات وكل المظاهر تدل على أنه كان يستعد للقيام بحركة هجوم على مكة. فانتاب الحسين من جراء ذلك قلق شديد، فأخذ يلح على الإنكليز بطلب الإمدادات العسكرية من بنادق ومدافع وطائرات وجنود نظاميين لحماية ثغر رابغ، وكان الإنكليز يماطلون ويراوغون بسبب الخلاف الذي كان بينهم على دعم الثورة بصورة جدية والذي استمر نحو أربعة أشهر، الأمر الذي عرض الثورة إلى الخطر وأخر مسيرتها بينما كانت لا تزال في خطواتها الأولى.

بدأت هذه الخلافات منذ انتهاء المفاوضات مع الحسين واندلاع الثورة، وقد أصبحت المهام المتعلقة بالإنكليز بالنسبة للثورة موزعة على أربع جبهات.

الأولى: المندوبية البريطانية التي قامت بأعباء المفاوضات، والتي بقيت تضطلع بمسؤولية الاتصال بالشريف والنظر بكل ما يتعلق بشؤون الثورة وتنسيق الواجبات الملقاة على عاتق الجبهات المختلفة، وكان ستورس بطبيعة الحال هو المشرف على

---

(٥) اصطلاح عسكري يعني الدفاع عن مواضع مهيأة بانتظار الفرصة المؤاتية لاستئناف الهجوم.

هـذا الأمر، وهـو يعتقد بجـدوى الثورة وفـوائدهـا العسكريـة والسياسية ومن أكثر المتحمسين لها.

الجبهة الثانيـة: دائرة الاستخبـارات البريطـانية وعـلى رأسـها الجنرال كلايتـون وهي دائرة مستقلـة عن الجيش ولها الـرأي المعتبر في الشؤون السياسية للإمبراطورية البريطانية وبطبيعـة الحال دخلت الثورة ضمن نشـاطات هـذه الدائـرة واهتمامهـا بسبب مـا أصبح لهـا من أثـر خطـير في شؤون الشرق الأوسط بأجمعه من نواحيه السياسية والعسكرية مما حداهـا لتأسيس دائرة خاصة للتفرغ لأعمـال الثورة وسمتهـا (المكتب العربي)، وعينت لهـذا المكتب عـدداً من الشخصيـات المهمـة من ذوي الاختصاص بالمسائل العربية، وكان الجنرال كلايتون يعلق على الثـورة ونتـائجهـا الآمـال الكبـار، في نـواحيهـا السيـاسيـة والعسكـريـة، ويـرغب من أجـل ذلـك أن يقـدم لهـا أقصى المساعدات.

الجبهـة الثالثـة: القائـد العام للجيـوش البـريطـانيـة في مصر الجنرال (موري) وهو أهم مرجع عسكري وكـان ينظر إلى هـذه الثورة نظرة ثانوية، ولا يؤمن بقيمتها العسكرية والسياسية فلم يعرها الاهتمام اللازم ويتردد في إمدادها بما كانت بحاجة إليه.

الجبهـة الـرابعـة: حـاكم السـودان وسردار الجيش المصري الجنرال (ريجنالـد ونجيت) وقد أوكـل إليه عقب إعـلان الثورة أن يقـدم لها الإمـدادات من الرجـال والسلاح ممـا هو ضمن إمكـاناتـه في الجيش المصري، بـالنسبـة لقـرب مقـره (بـورت سـودان) من جدة الثغـر الرئيسي للحجـاز، كان ونجيت يعتقـد بجدوى الثورة وفائدتها ويتحمس لها، ولمـا نقل من منصبـه إلى مقام المندوب السامي عوضاً عن مكماهـون تمكن من أن يجعل الحكومة في لندن تتدخـل في أمر الخـلاف الواقـع بين القيـادة ودائرة الاستخبارات لصالح الثورة، وتسرع بإمدادها بما كانت

بحاجة إليه ضمن نطاق السياسة المقررة والتي ألمعنا إليها فيما سبق، وفي هذه الأثناء جرى تبديل الجنرال موري بأللنبي الذي اعتنق فكرة المندوبية ودائرة الاستخبارات ووافق بعكس سلفه على كل ما كانت تطلبه هذه الدوائر لتقوية الثورة، وقد رأى اللنبي بثاقب بصيرته أن جيش الثورة سيكون الجناح الأيمن لجيشه متى أزفت ساعة الهجوم. وكان أول عمل قامت به المندوبية بالاتفاق مع دائرة الاستخبارات بعد زوال ذلك الخلاف هو إرسال سكرتيرها ستورس وبمعيته اثنان من دائرة الاستخبارات بقصد الوقوف على حقيقة وضع الثورة وحاجاتها.

بلغ ستورس ثغر جدة مستصحبا معه كلا من الكوماندور هوغارت ولورنس. فمن هما ستورس وهوغارت؟ لقد كان لكل منهما دوره المهم في مجرى الثورة العربية. فيجدر بنا قبل أن نتعمق بحديثنا عن الثورة أن نتعرف عليهما ليستقيم لنا البحث الذي أوصلنا إلى لورنس الذي هو مدار بحثنا في هذا الكتاب والذي سنتعرف إليه فيما بعد بصورة أوسع.

المستر ستورس

هو السكرتير الشرقي للمفوضية البريطانية في مصر، وهو الذي أوكل إليه التفاوض مع الشريف حسين باسم المندوب السامي البريطاني في مصر السير مكماهون منذ البداية وحتى النهاية. وهو الذي أدار المكاتبات والمفاوضات. وبعد قيام الثورة ألقي على عاتقه إدارة شؤونها وتنفيذ الالتزامات المتعلقة بها. وكان يعتبر أفضل خبير سياسي في الشؤون العربية.

الدكتور دافيد جورج هوغارت

من علماء التاريخ المعروفين يجمع بين علم الآثار والاستشراق والتأليف وكان قيماً على متحف الآثار في أكسفورد، ولوقت ما

كان المشرف على حفريات (كركميش) وهي المدينة الحثّية على نهر الفرات في شمال سوريا، كان في ذلك الوقت يعتبر أكبر الثقات في التاريخ العربي استرعى لورنس اهتمامه عندما كان طالباً في أكسفورد يتردد على المتحف لدراسة الفخار، وهو الذي اقترح على لورنس دراسة القلاع الصليبية في سوريا وأن تكون موضوع أطروحته الجامعية. وسعى له بالحصول على منحة لأربع سنوات وألحقه ببعثة المتحف البريطاني في كركميش. ثم ألحقه بالبعثة التي كلفت بمسح شبه جزيرة سيناء، وعندما أعلنت الحرب سعى له في الالتحاق بشعبة المخابرات العسكرية في لندن، ولما دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء أخذه برفقته حيث عين في المخابرات بمصر، ولما أصبح هوغارت رئيساً للمكتب العربي نقله إليه، وهو المكتب الذي تخصص بالقضايا العربية وخصوصاً في شؤون الثورة. وعندما انفضح أمر معاهدة سايكس ـ بيكو فيما بعد أرسلته الحكومة البريطانية في كانون الثاني ١٩١٨ للاجتماع بالملك حسين فطمأنه وهدأ روعه، وأقنعه بنوايا بريطانيا الطيبة، وعدم إخلالها بتعهداتها وتبين أنه كان منذ قبل الحرب من كبار رجال المخابرات البريطانية (الانتلجنس سرفيس)، وهو الذي هيأ لورنس للمخابرات منذ أن كان طالباً وقد قال عنه لورنس:

««هو الرجل الذي أدين له بكل عمل حسن حصلت عليه في حياتي، ولقد ظل أفضل صديق لي».

٢

عناصر الثورة

لقد كتب لورنس عن نفسه وكُتب عنه ونسب إليه الشيء الكثير، منه الصحيح ومنه المبالغ فيه ومنه غير الصحيح، وتدور جميع تلك الأحداث في ميادين الثورة، ولورنس لم يكن وحده في تلك الميادين، فهناك الألوف من الرجال الذين كانت تتشكل منهم عناصر الثورة، ولكل من هذه العناصر دوره المهم الذي يتمم دور غيره، ولورنس لم يكن سوى شخص غريب عنهم التحق بهم بعد أن قطعوا شوطاً كبيراً من طريقهم. يجدر بنا أن نتعرف على هذه العناصر التي تتشكل منها هذه الجموع، لنتمكن من تقدير ما إذا كان من السهل على لورنس التأثير فيها بالقدر الذي ادعاه.

الأشراف

يُعنى بالأشراف نسل الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب من ولديه الحسن والحسين من زوجته فاطمة بنت محمد (صلعم) والأشراف المقيمون في الحجاز كثيرون، منهم الأشراف الذين يشغلون إمارة الحجاز ذات الامتيازات الخاصة بموجب فرمان سلطاني يصدره الخليفة العثماني، ومنهم زعماء المدن الحجازية، ومنهم رؤساء بعض العشائر الحجازية ومنهم

أشراف المدينة من نسل الحسين بن علي، وهم أول من عاضد الثورة عندما اشتعلت في مدينتهم، ولأشراف المدينة نفوذ وحرمة على جميع القبائل المحيطة بالمدينة وفي مقدمتها قبيلة حرب وهي من أكبر قبائل الجزيرة العربية، حينذاك.

■ الشريف حسين بن علي

عميد أشراف الحجاز وزعيمهم، أبو الثورة العربية ومشعلها والآخذ على عاتقه تبعاتها أمام العالمين الإسلامي والعربي. لقد كان الحسين سادن الأماكن المقدسة وأميراً على مكة والحجاز مركز الإسلام والنقطة التي تتوجه إليها أنظار المسلمين كافة، صوته مسموع، ومقامه مرموق، لا ينافسه فيه منافس بين سائر أمراء العرب. إن مؤازرة الحسين كانت عاملاً هاماً وأساسياً في موضوع الجهاد الذي كان الأتراك يلوحون به أمام خصومهم الذين يمنحونه أكبر قسط من اهتمامهم. عندما دخل الأتراك الحرب وبدأوا يسيئون معاملة العرب كان زعماء العرب يتطلعون إلى أمير عربي بإمكانه مساعدتهم وحمايتهم. لقد كان في الجزيرة العربية أمراء يسيطرون على اتباعهم سيطرة تامة، ولا ينازعهم أحد على نفوذهم، لديهم الموارد العسكرية التي تمكنهم من المحافظة على ما هو تحت أيديهم. ولكن لم يكن باستطاعة أي واحد منهم القيام بأي عمل في خارج منطقته. فإمام اليمن والإدريسي ما كان باستطاعتهما أكثر من إشغال الحاميات التركية المحلية ـ وتجميدها، أما ابن السعود فلم يكن متصلاً بأية قوة تركية، وابن الرشيد ضالع مع الأتراك يأتمر بأمرهم وينفذ رغباتهم. وعلى كل حال فإن سلطة هؤلاء الأمراء كانت منحصرة في المناطق التي يحكمونها، والحسين وحده كان يتمتع بمزايا لم تتوافر في أي واحد من الأمراء العرب. لقد كان في موقعه العسكري مشرفاً على طرق المناطق التي كان للأتراك

فيها حاميات كاليمن وعسير، ومشرفاً على منطقة عميلهم ابن الرشيد، وكان بإمكانه الاتصال عن طريق البادية التي لم يكن للأتراك عليها سيطرة بكل من قطري الشام والعراق. ومن جهة أخرى كان الحسين ينفرد بميزة لا مثيل لها وهي مكانته في العالم الإسلامي المستمدة من نسبه ومنصبه، ولذلك لم يجد زعماء العرب في الشام والعراق أميراً يمكنه نجدتهم في محنتهم ليستنجدوا به سوى الحسين، فاتصلوا به فوجدوا عنده العطف والأمل، لم يكن الحسين يفكر قبل الحرب بالانفصال عن الترك والاستقلال عنهم فكل ما كان يرغب فيه هو المحافظة على امتيازات البلاد المقدسة ونيل حقوق العرب في أقطارهم الأخرى، ولم يتفق الحسين مع الإنكليز ويقبل عروضهم ووعودهم وعهودهم إن هو خرج على الأتراك إلا بعد أن تمادى هؤلاء في التنكيل بالعرب واستنجد به زعماء القطرين السوري والعراقي، لقد كان الحسين يمتاز بقوة إيمانه بقوميته واعتزازه بها وبصلابته ومتانته وعناده وبتدينه وتقشفه. وكان له أربعة أولاد ذكور وهم:

علي

وهو كبيرهم وأصبح ولياً لعهده وبعدها ملكاً على الحجاز. وخلال الثورة أصبح قائداً لأحد الجيوش التي قامت على حصار المدينة التي استسلمت إليه بعد انتهاء الحرب، وخلف والده بعد تنحيته عن عرش الحجاز واستيلاء ابن السعود على مكة حيث غادر بعد ذلك الحجاز ونزل ضيفاً على أخيه فيصل في بغداد، وابنه عبد الإله الذي أصبح وصياً على الطفل فيصل الثاني بعد وفاة والده غازي وعبد الإله هذا هو الذي قتل ثم صلبت بقايا جثته في انقلاب ١٩٥٨ الذي جرى في العراق.

عبد الله

هو الابن الثاني للحسين وكان في العهد التركي نائباً عن مكة في مجلس المبعوثان وكان مستشاره في الأمور السياسية، وقبل قيام الثورة قام بتوجيه والده بجميع شؤون المفاوضات مع الإنكليز، وعندما قامت الثورة أصبح قائداً لأحد جيوشها الثلاثة، فحاصر القوات التركية التي في مدينة الطائف واستولى عليها ثم توجه إلى المدينة واشترك مع جيش أخيه علي بمحاصرة المدينة إلى أن استسلمت عقب انتهاء الحرب، اجتمع مع لورنس لأول مرة عندما كان يفاوض ستورس، وفي هذا الاجتماع كون لورنس عنه الأفكار التي ذكرها في كتابه والتي قال فيها: «وقد صنعت منه الإشاعات العقل المفكر لأبيه وللثورة العربية. وفي الواقع كان دون ما صنعت الإشاعات رتبة ومركزاً». والحقيقة أن لورنس ما كان بإمكانه أن يكوِّن رأياً صحيحاً بهذه السرعة عن رجل مثل الأمير عبدالله. ولكن هذه الأفكار كوّنها لورنس تحت تأثير عوامل وأحداث تراكمت في ذهنه خلال ثماني سنوات، لأن الأمير عبدالله أول شخص أظهر عدم ارتياحه للورنس ولام فيصل على إفساحه في المجال أمامه في حرية التجول والاختلاط بالبدو، لقد أخذ عن والده تدينه وإيمانه بقوميته، ولكنه لم يكن مثله في تصلبه، كان سياسياً بعيد النظر عميق التفكير، يعالج الأمور حسب إمكاناته لا حسب ما يريد أن تكون.

وبعد استيلاء الفرنسيين على سوريا ومغادرة ملكها فيصل لها، أرسله والده إلى معان (وهي بلدة كانت تابعة للحجاز تقع على الحدود السورية) وحمله تبعة معالجة أمور منطقة شرقي الأردن التي كانت تابعة لسوريا. وصل إلى معان في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠، فقام الإنكليز بمفاوضته لتأسيس إمارة في شرقي الأردن. وفي ٢٤ نيسان ١٩٥٠ قرر مجلس الأمة الأردني

وزعماء فلسطين انتخابه ملكاً على ضفتي الأردن (شرقي الأردن وفلسطين)، اغتيل بينما كان يدخل المسجد الأقصى لاداء فريضة الصلاة. كان رحمه الله سياسياً عميق التفكير، أديباً، شاعراً حلو الحديث، كريم اليد والخُلق.

■ فيصل

الأبن الثالث للحسين. كان نائباً عن ثغر جدة في العهد العثماني ورسول والده ومعتمده في علاقاته مع حكام الترك وكذلك مع زعماء الشام والعراق. وقد فعل كل ما في وسعه في سبيل إيقاف مظالم جمال باشا، وقد نقل إلى والده أماني الناس في البلاد العربية الشفهية والتحريرية ومبايعاتهم، وهو مع أخيه علي أول من أعلن الثورة وقاتل وأصبح أحد قادة جيوش الثورة، وعليه وقع اختيار الحسين في الاندفاع إلى الشمال فاستولى على الوجه والعقبة وفي أيام الحرب الأخيرة استولى على معان ودمشق وحلب. انتدبه والده نائباً عن الحجاز في مؤتمر فرساي وانتخبه السوريون ملكاً على سوريا، غادر سوريا عندما استولت فرنسا عليها، وفي عام ١٩٢١ انتخبه الشعب العراقي ملكاً على العراق، توفي في برن من أعمال سويسرا في أيلول عام ١٩٣٣ فبكاه العرب في كل مكان...

■ زيد

الإبن الرابع للحسين، كان في التاسعة عشرة من عمره عندما اندلعت الثورة العربية وكان يساعد أخاه فيصل في أعمال جيشه الشمالي الذي دخل سوريا، التحق بفيصل بعدما أصبح ملكاً على العراق. وعمل سفيراً للعراق في تركيا وفي لندن، لقد كان لورنس لا يرتاح إلى زيد ويغمز من قناته لأنه كان لا يعيره كبير اهتمام ولا اعتبار. لقد كان مقداماً وشجاعاً وكريماً، وكان

له الفضل في حفظ جميع الوثائق المهمة العائدة للثورة وبعدها ولولا حرصه عليها لفقدت.

الشريف ناصر بن علي

لا ينتمي إلى أشراف مكة، إنه عميد أشراف المدينة وزعيمها، أغنى أشراف الحجاز ولما دعاه واجبه ترك كل ما يملك بيد الأتراك ملبياً دعوة الحسين وخرج من المدينة بعياله لا يملك شيئاً، قاد السرية التي رافقت فيصل في ذهابه إلى دمشق وكان قد فرَّ منها إلى المدينة عندما تقرر قيام الثورة. لقد رافق فيصل في جميع حروبه وكان مقدمته في كل خطوة خطاها إلى ديار الشام وهو الذي استولى على مويلح والوجه والعقبة وعلى الطفيلة وهي أول بلدة دخلوها من أراضي الشام، وكان نائب فيصل ومقدمته في الاستيلاء على درعا ودمشق وحمص وحماه وحلب حتى وصل إلى الحدود التركية وفي ذلك الحين أعلنت هدنة الحرب العالمية الأولى. ذكرته هنا اعترافاً بفضله على الثورة ولأنه كان بعد أبناء الحسين أكثر جميع الأشراف إقداماً وحماسة ودراية وإنتاجاً، رافق فيصل قبل أن تندلع نار الثورة، وكان بمثابة ساعده الأيمن في جميع المهمات الإدارية والحربية طيلة أيام الثورة حتى إذا ما انتهت الحرب عينه نائباً عنه في حلب عاصمة الشمال السوري، واستدعاه فيصل إلى العراق عندما أصبح ملكاً عليها، وبقي برفقته حتى وافته المنية في بغداد في أيلول سنة ١٩٣٥.

أما باقي الأشراف فمنهم الحضر من سكان المدن، ومنهم نصف الحضر الذين يترأسون بعض العشائر وجميعهم يتمتعون باعتبار الجميع واحترامهم من بدو وحضر، كان لهؤلاء الأشراف دورهم الخطير في الثورة بسبب موقفهم الحيادي من الخصومات العشائرية التي كانت سائدة بين مختلف العشائر

فالثورة التي جمدت جميع تلك الخصومات وسوت تلك الخلافات، كانت لا تزال في حاجة إلى مدة لمحو آثارها، لذلك كان لا بد من قادة يرتفعون فوق تلك المنازعات ليتمكنوا من قيادتها في طريق الثورة وكان خير من يقوم بهذا العمل هم الأشراف.

والأشراف في الحجاز كثيرون ولكن الحسين اختار منهم الأصلح فوزعهم بين جيوشه الثلاثة مراعياً بذلك علاقاتهم بالعشائر العاملة في كل جيش من جيوشه، كان هؤلاء الأشراف لا يعرفون الكثير عن السياسة عدا نفورهم من الأتراك ومن كل أجنبي، ان ثقتهم بالحسين وأولاده جعلتهم يتقبلون رؤية بعض الإنكليز على مضض وحذر مسبغين على ذلك رداء من التعالي والكبرياء تجاه كل إنكليزي، لقد كانوا يفرضون احترامهم على جميع العاملين في الثورة بمن فيهم الإنكليز. كتب لورنس في بداية التحاقه بالثورة دليلاً وزعه على الضباط الإنكليز العاملين في الثورة بصفته خبيراً في الشؤون العربية. نقتطف منه هذه الجملة التي تدل على تصرفه أثناء الثورة خلافاً لما كتبه بعد ذلك. قال: «إن الأمل الوحيد للاتحاد بين البدو هو الاعتراف بسيادة الأشراف. نادِ الشريف الذي تعمل معه بلقب سيدي أما الآخرون فنادهم باسمائهم المجردة»[1].

■ الضباط

إن الثورات المسلحة تبقى قتالاً حتى تنظم فتصبح حرباً. إن القتال غير الحرب، الحرب علم وفن وممارسة ووسائل. إن للثائر المقاتل طاقة محدودة لا تتجاوز قابليته السلاح الذي يحمله، والممارسة التي حصل عليها، فإذا جاوزت الأمور طاقته انطفأت ثورته واضمحل أمره.

(١) كتاب لورنس والعرب لسليمان موسى ص ١٠٥.

الثورة العربية بدأت بالثائرين من حملة البنادق القديمة البالية التي إن صلحت للمناوشات فإنها لا تصلح لمجابهة المحاربين المسلحين بأسلحة حديثة. إن استسلام حاميات المواقع العسكرية في مكة وجدة والطائف وغيرها لم يحصل من جراء تفوق الثوار عليها بل كان بسبب قصفهم بالمدافع ورميهم بالرشاشات من قبل الجنود النظاميين. إن الثورة لم تتركز وتأخذ شكلها الحربي إلا بعد أن اشتركت فيها عناصر الحرب النظامية من ضباط وجنود وأسلحة مختلفة، فلولا هذه العناصر لما تمكنت من الاستمرار سوى مدة قصيرة يستفيق خلالها الأتراك من دهشة المباغتة ليستعيدوا ما اضاعوه من مواقع. ولو أن الإنكليز اضطروا لإمداد الثورة بجيش من قطعاتهم لاتخذت الثورة شكلاً آخر واتجاهاً غير الاتجاه الذي قامت من أجله ولأصبحت حرباً بين الأترك والإنكليز ليس للعرب فيها سوى دور التابع المسير المستثمَر المأجور، الأمر الذي كان يتجنبه الإنكليز درءاً للدعايات التي بدأت تنتشر بين رعاياهم المسلمين. فالتحاق الضباط بالثورة حقق لها أن تكون ثورة عربية لغاية قومية بشكل حرب نظامية، أخرجها عن كونها ثورة عشائرية يتعذر عليها تحقيق ظفر نهائي، كما تحولت من ثورة إقليمية إلى حرب عربية ذات مبادىء وأهداف مرتبطة بالكيان والتاريخ القومي، فوجود الجيش في الثورة جعل لها كياناً وأعطاها صفة الحليف لا التابع المسيّر وأجبر الأتراك على الاعتراف بوجودها ومفاوضتها والاعتراف بقوتها، إن اشتراك الجند والضباط من أقطار الحجاز والعراق والشام في هذه الانتفاضة جعل منهم شركاء، وقربت ما كان بينهم من تباعد في الأفكار والآمال والأهداف. يقول البعض ممن أراد التقليل من شأن الثورة أنه لو لم يكن للإنكليز مصلحة في التحاق هؤلاء الضباط بالثورة لما سمحوا لهم به، فنحن نعترف بذلك، لقد كان للإنكليز مصلحة في قيام الثورة ونجاحها، كمصلحتنا وكان

الأمر بيننا وبينهم تبادلاً في المصالح. وضباط الثورة كانوا في مجموعهم من القطرين الشامي والعراقي، والعراقيون أكثر عدداً، بسبب أن الأتراك كانوا يعينون العراقيين في العراق لملاءمة الطقس لهم، ووقوع أكثر هؤلاء في أسر الجيش الإنكليزي منذ بداية الحرب وعلى عكس ذلك في الشام لقد كانوا يبعدونهم عنها لأسباب عنصرية فكان عددهم قليلاً في المعتقلات المصرية وقد سمح لهؤلاء الضباط بالالتحاق بالثورة. وهناك دعاية مغرضة قام بها أعداء العرب لتشويه وجه الثورة وغاياتها ووطنية المشتركين فيها، وهو قولهم إن الثورة كانت قائمة على الذهب الإنكليزي، والملتحقين بها كانوا يتطوعون طمعاً بهذا الذهب، فرواتب الجيش لم تكن بالمقدار المغري حتى ولا بالمقدار الكافي لتأمين الضروريات. والليرة الذهبية لم تكن بالشيء المهم لأنها ذهب، لأن قيمتها الحقيقية في التعامل تقل بقرشين عن قيمة الجنيه الورقي الإنكليزي أو المصري، لقد كان الجندي يتقاضى ليرتين في الشهر ونائب العريف ٣ والعريف ٤ والملازم الثاني ١٢ والملازم الأول ١٥ والنقيب ٢٠ والمقدم ٢٨ والعقيد ٣٥ وهو المبلغ الشهري الذي كان يتقاضاه رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد، وكانت هذه الرواتب تتأخر في بعض الأحيان فيحصل من جراء ذلك ضيق شديد وأزمات معاشية يضاف إلى ذلك ارتفاع أسعار الحاجات لدرجة لا تصدق من جراء الحركات الدائمة وبعد المسافات وقلة البائعين، ويتبين من ذلك أن الرواتب كانت ضئيلة تكاد لا تكفي الضروريات ولولا ما كان يوزع في بعض الأحيان من مواد إعاشة كالدقيق والأرز والسكر لكانت المعيشة لا تزيد كثيراً على ما كانت عليه حالة الأتراك، لقد كان ما يقرب من ربع ما يتقاضاه الملازم يذهب ثمناً لدخان من كان يدخن منهم.

إن التحاق الضباط بالثورة يعتبر مغامرة وتضحية عظيمة

خصوصاً إذا علمنا أن الثورة قامت وموقف الأتراك لا يزال سليماً وقد تمكنوا من طرد الإنكليز من الدردنيل، وحلفاؤهم الألمان كانوا يدقون أبواب باريس. وهذا الالتحاق كان يعتبر انحيازاً للعدو وكانت عقوبته الإعدام، وقطع الرواتب والمعونات عن عائلاتهم فهل يتصور الإنسان تضحية أعظم من هذه التضحية، لقد استشهد المئات منهم في مختلف ميادين الثورة وخسرت أسرهم المعيل، وتجاهلتهم الدول العربية التي بنت استقلالها على المطالبة بالحقوق التي استمدوها من تضحياتهم، حتى أولئك الأمراء الذين أصبحوا ملوكاً نسوهم عندما اعتلوا العروش ونسوا أيتامهم وأراملهم وبأنهم كانوا الدعامة التي بنوا عليها عروشهم.

كان الضباط على علم بأن الثورة تعتمد على معونة الإنكليز، تماماً كما كان الأتراك يعتمدون على معونة الألمان، وكانوا يقدرون أن معونة الألمان لا تؤثر في وطنيتهم، كذلك معونة الإنكليز لا تؤثر في وطنيتنا، وكنا نعتبر هذا التعاون بيننا وبينهم بمثابة تبادل للمصلحة، لقد أصبح للجيش بعد أن تقوى (خصوصاً الجيش الشمالي) أثره ووزنه في كيان الثورة، فلو أن الضباط أساؤوا الظن بنوايا حلفائها لكان بإمكانهم تغيير اتجاه مسيرتها، ولكنهم كانوا يثقون بالحسين وابنائه ثقة لا يدخل إليها الشك، وللدلالة على ذلك الحادثة التي وقعت عندما وصل إلى علم الضباط نبأ المعاهدة التي اتفق الإنكليز والفرنسيون بموجبها على اقتسام قطري العراق والشام (معاهدة سايكس ـ بيكو) لقد اجتمعنا وتذاكرنا بهذا الأمر وتقدمنا إلى فيصل بمضبطة أنذرناه فيها بأننا التحقنا بالثورة لنحارب الأتراك من أجل الحصول على استقلالنا، لا من أجل أن يقتسم الإنكليز والفرنسيون بلادنا ولم نعد إلى أعمالنا إلا بعدما جاءنا رسول الحسين (رضا الصبان) فطمأننا وبلغنا عن

صدور تكذيب صريح من قبل الإنكليز ينفون فيه هذا الاتفاق.

لقد كان الضباط في حقيقة الأمر روح الثورة يحملونها على مناكبهم متخطين بها سيلاً من الدماء، تاركين في ميادينها المئات من إخوانهم الشهداء، وكان الإنكليز يقدرون قوة وصفاء ذلك الشعور الوطني الذي كان يدفع أولئك الضباط في ميادين القتال، ويعرفون أيضاً أنه كان بإمكانهم إخراج الثورة من جانبهم وتوجيهها توجيهاً معاكساً، يتغير معه الوضع العسكري تغيراً خطيراً لا في الشام وحدها بل في العراق أيضاً، إذا ما اعتقدوا بعدم اخلاص الإنكليز فيما اتفقوا عليه مع الحسين، هذا ما كان يتجنبه الإنكليز وهو عدم الإتيان بما من شأنه المساس بشعور أو شخصية منتسبي الثورة على اختلاف عناصرهم، وكانوا يتعمدون من أجل ذلك التواري وعدم الظهور إلا عند الضرورة وعندما لا يضر ظهورهم بذلك الشعور.

كان موقف لورنس لا يختلف عن موقف غيره من الإنكليز بالنسبة لما ذكرناه إلا بالطريقة التي كان يسلكها لقد كان يتوارى مثلهم ولكن في ثيابه العربية، ويسعى جاهداً لعدم الظهور خصوصاً بين الضباط. إن ما نقرأه فيما كتبه وكُتب عنه من أعماله البارزة مبالغ فيه جداً والكثير منه لا أصل له كما سنبينه في الفصول القادمة.

■ المدنيون

اشترك في الثورة عدد غير قليل من المدنيين والمثقفين، بعضهم التحق بها مباشرة عن طريق التنقل بين العشائر ومنهم من تمكن من الوصول إلى القسم الذي احتله الإنكليز من العراق ومنهم من وصل إلى مصر فالثورة، ومنهم من كان يقطن مصر فالتحق من هناك، وكان منهم العراقيون والسوريون وهم الكثرة لقربهم من مناطقها، وكان لكل من هؤلاء عمل يؤديه حسب

إمكاناته، بعضهم أمناء سر وكتّاب لدى الأمراء وبعضهم مستشارون سياسيون، ومنهم من تعلم استعمال المفرقعات واشتغل في تخريب الخطوط الحديدية، ومنهم صيادلة وأطباء.

أتذكر من هؤلاء ممن عرفتهم في الجيش الشمالي فقط الأسماء الآتية من العراقيين: محمد شريف العمري، ثابت عبد النور، حمدي صدر الدين، عبد اللطيف البدري، ومن السوريين: رستم حيدر، أمين يزبك، أميل الخوري، توفيق الحلبي، يوسف الشيخاني، فائز الغصين، لطفي العسلي، عبد اللطيف العسلي، حكمت العسلي، علي الغبره، فوزي البكري، نسيب البكري، فائز العظم، أحمد العظم، عمر العظم، بدري العظم، الشيخ سعيد الباني، سليم عبد الرحمن، رفيق التميمي، عبد اللطيف الباقي، خليل السكاكيني، فؤاد سليم، سعيد عمون، حبيب جاماتي، محمود المغربي.

الأطباء: محمود حموده، عبد العزيز الكنفاني، حكمت المرادي، حسين حسني، ناجي الأصيل، نعمان ثابت، خيري القباني، فؤاد الداوودي الدجاني، حمدي الخوجه، محمد الفيتوري، مرشد خاطر، أحمد قدري، أحمد القباني، أمين المعلوف، توفيق حمد، والصيادلة سعيد السمان وبشير (؟).

وبعد انتهاء الحرب وانكشاف غدر الحلفاء وسوء نياتهم نحو البلاد العربية، استمر هؤلاء الرجال بجهادهم كل داخل اختصاصه وإمكاناته، فكان منهم السياسيون والضباط والوزراء وقادة الشعب والثوار في مختلف الأقطار العربية، فاستشهد عدد كبير منهم في ميادين الثورات. فإذا أضفنا إليهم الضباط يتضح لنا أن الثورة لم تكن ثورة عشائر يساعدهم بها ضباط كما أراد أن يظهرها لورنس، بل كانت ثورة سياسية قام بها ضباط ومثقفون يساعدهم بدو، وأنها كانت ثورة وطنية يحمل أعباءها رجال كانت لهم أهدافهم

وغاياتهم ومثلهم العليا، وبأنها ليست من الضعف الذي يجعل لورنس يقول عنها في إهداء كتابه إلى حبيبته: «لقد أحببتك ولذلك جذبت بيدي هذه الجموع من الناس مسطراً إرادتي بالنجوم عبر السماء إلخ».

■ البدو

نعني بالبدو تلك القبائل العربية التي تعتمد في معيشتها على الماشية، فتضطر من أجل الحصول على الماء والكلأ للتنقل بصورة مستمرة من مكان إلى آخر، لتضرب خيامها بقرب المراعي والآبار والأنهر والغدران، إن شبه الجزيرة العربية ليست كلها صحارى وبوادي، فبلاد الشام التي على شواطىء البحر الأبيض والحجاز واليمن التي على شواطىء البحر الأحمر، وحضرموت والخليج العربي على البحر العربي والعراق التي يمر فيها نهرا دجلة والفرات، كانت منذ أقدم العصور ولا تزال بلادا متحضرة ولشعوبها تاريخ عريق في القدم، يعتقد بعض العلماء أنها مهد البشرية وعلى أنهارها نشأت أقدم المدنيات. وفي داخل الجزيرة أيضاً مناطق متحضرة واسعة ترويها الأمطار والينابيع والآبار، تنبت فيها أنواع النباتات والأشجار كالمدينة ومكة والطائف ونجد وغيرها، وهناك الواحات المنتشرة في قلبها بمياهها وأشجارها ونباتاتها، فإذا كانت الصحراء هي الأراضي الجرداء العطشى التي لا نبات فيها، فالجزيرة العربية ليست بالصحراء، إلا في مناطق صغيرة نسبياً، كمنطقة الربع الخالي مثلاً، فالبدو الذين كانوا يشكلون أقلية في هذه الجزيرة المتحضرة لم يكونوا في الأصل بدواً، فالبداوة مرحلة من المراحل التي تمر بها العرب أثناء هجرتها من مناطق اليمن وحضرموت المتحضرة إلى مناطق الهلال الخصيب (الشام والعراق) حيث يعودون ثانية إلى حياتهم

المتحضرة. إن أسباب هذه الهجرة تكاد أن تكون واحدة في جميع أدوارها. إن ازدياد السكان كان يزيد في حاجتهم إلى الأراضي ليفلحوها ويزرعوها. فيأخذ قسم منهم بالرحيل من مناطق اليمن الغنية ووديان حضرموت إلى السهول الخصبة التي في أواسط الجزيرة ليعيشوا على تربية الحيوانات، يسكنون الخيم ويصبحون بدواً. وكلما ضيق عليهم من هاجر بعدهم، ساروا شمالاً حتى يبلغوا الهلال الخصيب حيث يعودون تدريجياً إلى التحضر. وأثناء مرورهم في هذه المرحلة التي ربما امتدت إلى عدة قرون، لا بد لهم من التكيف بالبيئة والأحوال التي يعيشون فيها، فشح البوادي يعلمهم القناعة والصبر والكرم، وضرورة الأمن ودفع المكاره تعلمهم الشجاعة، وارتباط وسائل العيش بالأحوال الطبيعية وتقلباتها تقودهم إلى الحذر والصبر، وهم بسطاء في طراز حياتهم كبساطة البيداء التي يستمدون من شمسها وهوائها القوة والعافية.

البدوي لا يعترف لأحد بسلطان على حريته سوى سلطان التقاليد التي تنظم شؤون قبيلته، لذلك نرى البدوي مرتبطاً بخيمته وبيدائه ارتباطاً عجيباً مما يجعله حذراً من كل غريب يعكر عليه صفاء عيشه. منذ أقدم العصور قد أحكم البدو وضع نطاق من الأمن حول جزيرتهم لا يسمحون لغير العرب باجتيازه، وهذا النطاق وموجات الهجرة المستمرة كانتا من أعظم المشاكل التي شغلت جميع الحكام الذين حكموا في مناطق الهلال الخصيب.

إن البدو الذين تحدثنا عنهم هم بدو قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها بسنين قليلة، وأما بعد ذلك فأحوالهم وأوضاعهم تبدلت تبدلاً سريعاً لم يسبق له مثيل في التاريخ العربي. لقد سارت البداوة منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى على طريق الانقراض بسرعة تساير سرعة السيارات والطائرات التي طوت مساحات

البوادي الشاسعة وقضت على ما كان للجمل من مكانة حافظ عليها طيلة الأزمان الماضية، لقد لعبت الطائرات والمدرعات وغيرها من الأسلحة الحديثة دوراً حاسماً في تأمين سيطرة الدول العربية على رعاياها البدو فمنعتهم من غزو بعضهم ووجهتهم نحو الزراعة فوزعت عليهم الأراضي وساعدتهم على الاستقرار، فتبدل بذلك طراز معيشتهم فانتقلوا بسرعة مذهلة من بدو إلى نصف حضر إلى مزارعين، فاستقر من كان منهم في قلب الجزيرة العربية، قرب الينابيع والواحات، وسكن من كانوا ينتقلون في بوادي العراق والشام القرى والمزارع والمدن، وقد شاهدنا خلال الربع الأول من هذا القرن عشائر بني حسن وبني صخر والحويطات وبني عطيه وغيرهم في شرقي الأردن والرولة وغيرهم في سوريا وفي العراق. شاهدناهم أثناء الثورة وبعدها وهم بدو رحل يتجوّلون في البوادي وأطراف القرى، وما كاد يمر نصف قرن من الزمن حتى أصبحنا نشاهدهم وقد انتقلوا من بدو إلى نصف حضر فتوزعوا في المزارع والقرى والمدن كما ذكرنا وأصبح من بعض أولادهم الوزراء والنواب والضباط والسياسيون والأطباء والموظفون وغير ذلك.

يلاحظ مما ذكرنا أن القبائل العربية كانت منذ أقدم العصور إذا ما احتل شمال جزيرتهم أجنبي أقوى منهم، رابطوا له على حافاتها الشمالية ليحولوا دون تسرّبه لداخلها وليتسربوا هم إلى الشمال أفراداً وجماعات منتظرين الفرصة لطرده منها، يشبهون بذلك البحر الذي يدق بأمواجه المستمرة الساحل تارة يرسلها صغيرة وتارة كبيرة حتى إذا ما واتته الفرصة اجتاحها بأمواجه العاتية وهذه الأمواج الكبيرة لا تندفع إلا من قلب الجزيرة، فالموجة الإسلامية التي أطلقها محمد (صلعم) وحررت الجزيرة العربية بكاملها كانت آخر تلك الموجات.

والثورة العربية التي قادها الشريف حسين لم تكن من تلك

الموجات الكبيرة التي ذكرناها، ولكنها بالتأكيد كانت تمثل اليقظة العربية بعد ذلك الهجوع الطويل، ولا أدل على ذلك من أن جميع الأقطار العربية المتصلة بساحاتها قد اشتركت فيها، الحجاز ونجد والعراق والشام ومصر والسودان، كل منها على قدر ما تسمح به ظروفه، وقد كان بينهم أيضاً بعض الأفراد من المغرب وليبيا وهكذا نرى أن هذه الثورة مثلت جميع طبقات الشعوب العربية من بدو وحضر، ضباط وجنود، سياسيين وصحافيين، رجال دين، وشباب مثقف، أطباء وصيادلة ورجال قانون.

البعثة البريطانية

تقضي اتفاقية الحسين مع الإنكليز أن تمد بريطانيا الثورة بكل ما تحتاج إليه من مال وسلاح وذخيرة وتجهيزات وإعاشة، ودعمها إذا اقتضى الأمر بقوات بحرية وبرية وجوية، وتقديم التسهيلات اللازمة للراغبين في الالتحاق بالثورة من ضباط وأفراد ممن هم في معتقلات الأسر.

وشرعت بريطانيا منذ إعلان الثورة في تقديم ما تعهدت به بصورة بطيئة وغير مخلصة، وكان لا بد لهذه العلاقات التي كانت تتشعب وتتسع يوماً بعد يوم، من خبراء يقومون بتنظيم وتنفيذ ما يقع منها على عاتق الإنكليز وهؤلاء هم رجال البعثة البريطانية التي انتدبتهم للقيام بمختلف هذه الأمور. ويمكننا حصر واجبات أعضاء هذه البعثة بثلاثة أمور رئيسية:

١ ـ استقبال وتسليم ما يرد إلى الموانيء من مواد.
٢ ـ إلحاق بعض خبراء المتفجرات من الضباط البريطانيين لتدريب العرب على استعمالها في تخريب الخطوط الحديدية.
٣ ـ إلحاق بعض الضباط للعمل لدى قادة الجيوش العربية

كضباط اتصال، لتنسيق الأعمال بين تلك الجيوش وبين المسؤولين البريطانيين.

أما الاتصالات السياسية فكانت تجري بين المندوب السامي في القاهرة والملك حسين بواسطة المعتمد البريطاني في جدة (ولسن). انتخب الإنكليز أعضاء هذه البعثة ممن يتكلمون اللغة العربية وسبق لهم العمل في بعض نواحيها. وكانت الدائرة التي ذكرنا أمر تشكيلها بالقاهرة للقيام بالشؤون العربية والتي سميت بالمكتب العربي هي التي كانت تنتخب أفراد هذه البعثة وتوزع واجباتهم وتتلقى تقاريرهم.

وهذه بعض أسماء من اتذكرهم وأكثرهم ممن عرفتهم شخصياً:

الكولونيل جويز، هوريني، الميجر يونغ، الميجر نيوكمب، كركبرايت، استرلنغ، فيكري، جوسليت، مارشال، سكوت، ويترتون، لورنس، بيك، سومرست، وود، جارلاند، داوني، دافنيورت، جورج لويد وكرنوالس.

وكان كل من هؤلاء يحمل رتبة عسكرية، وأكثرهم ضباط ممتهنون وقسم منهم ضباط احتياط ومنهم من ينتسب للاستخبارات البريطانية (انتلجنس سرفس).

فالكولونيل جويز هو أول من أُلحق بالثورة وأكبرهم رتبة، وبقي رئيساً للبعثة حتى انتهاء الثورة.

عمل أولاً، في جيش الأمير علي، ثم انتقل إلى جيش فيصل في ينبع، وبقي في جيشه حتى دخوله إلى دمشق حيث أصبح في الحكومة الفيصلية ممثلاً للقائد العام أللنبي، ولما غادر فيصل سوريا ثم أصبح ملكاً على العراق كان جويز رئيساً للبعثة البريطانية التي انتدبت لتشكيل الجيش العراقي. واستمر بعض أفراد هذه البعثة في خدماتهم في البلاد العربية، منهم

(فريدريك بيك) وقد أصبح بعد الحرب كولونيلا وعهد إليه في تنظيم قوات الأمن في شرقي الأردن التي أصبحت نواة للجيش العربي الأردني الحالي. وسميت وقتئذٍ بالقوة السيارة. وقد كنت أحد مؤسسي هذا الجيش، وأصرح هنا أن الفضل الأول فيما نراه الآن من الكفاءة الممتازة والتنظيم والضبط يعود إلى بيك، وإلى مقدرته في التنظيم وإخلاصه لواجبه، لقد كان بيك محباً للعرب حباً حقيقياً ويريد لهم الخير من كل قلبه، ولكن ذلك لا يعني أنه كان يعمل بخلاف سياسة حكومته، فهو كغيره من الإنكليز يعمل أولاً ضمن الخطوط التي ترسم له في المصلحة البريطانية، وبعد ذلك لكل منهم عواطفه التي يتأثر بها وأسلوبه الذي يعمل به. لقد شكا كبير زعماء الصهيونية وايزمن في مذكراته، من كراهية الكثيرين من ضباط الإنكليز للصهيونية وعرقلة خططها وكان بيك أحد هؤلاء الكارهين. ومنهم كركبرايت الذي كان معتمداً لبريطانيا في شرق الأردن واستمرت خدماته في البلاد العربية نحو ثلاثين سنة. ومنهم ويترتون الذي أصبح عضواً في مجلس اللوردات وكذلك جورج لويد.

البعثة الفرنسية

كانت بأمرة الكولونيل بريمون الذي جعل مقره في جدة. والبعثة مفرزة صغيرة، عبارة عن مدفعين ورشاشين بقيادة الكابتن (بيزاني) ملحقة بجيش الأمير فيصل. إن القصد من هذه المفرزة سياسي أكثر مما هو تعاوني. لقد كانت الثورة بالنسبة للمطامع الفرنسية في سوريا شيئاً مزعجاً. وكانوا ينتظرون أن تسبب لهم الكثير من المتاعب لذلك لم يكن من مصلحتهم الوقوف بعيدين عنها. فانتدبوا هذا العدد القليل ليكون كاشتراك رمزي. ولم يكن لهم كبير فائدة في أعمال الثورة، وبعكس ذلك حصل منهم بعض الأضرار كالذي وقع أثناء

معركة معان حيث قطع الكابتن بيزاني نار مدفعه الرشـاش عن إسناد جنود المشاة الذين وصلوا إلى آخر معاقل الأتراك الذين كانوا عـلى وشك الاستسلام مما سبب فشـل المعركـة بعد أن كانت على وشك النجاح.

٣

موقف الإنكليز من الثورة

لقد كان الإنكليز منتبهين إلى الخلافات التي كانت تنشب بين العرب والأتراك خلال السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وكانوا منذ ذلك الوقت يفكرون بالاستفادة من ذلك الخلاف، وأخذ شريف مكة ومن ورائه عرب سوريا والعراق إلى جانبهم إذا ما أعلنت الحرب ودخلها الأتراك بجانب الألمان. واتصل اللورد كتشنر عندما كان معتمداً لبريطانيا في مصر قبل مكماهون بواسطة الخديوي عباس حلمي بالأمير عبدالله الابن الثاني لشريف مكة الحسين أثناء ذهابه وإيابه إلى الأستانة عن طريق مصر حول تأسيس علاقات مع والده. ولكنه لم يجد منه تجاوباً في أول الأمر لأن فكرة الثورة والانفصال عن الترك لم تكن قد اختمرت في الرؤوس بعد.

وتعلن الحرب في آب ١٩١٤ وتعلن الحكومة العثمانية النفير العام ويغلق البرلمان العثماني ويبحر الأميران عبدالله وفيصل من استانبول عائدين إلى مكة ويصلان إلى القاهرة في ٢٢ آب وينزلان في قصر عابدين ضيفين على خديوي مصر عباس حلمي ويزورهما السكرتير الشرقي للمندوب السامي البريطاني السير برونالد ستورس ويسلم الأمير عبدالله كتاباً من الحكومة الإنكليزية إلى شريف مكة يشكره فيه على حسن قيامه بخدمة

الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج ويتطرق فيه إلى القول: إن إنكلترا لا تعارض في إرجاع الخلافة إلى العرب. واستمرت رسائل الإنكليز بإغراءاتها ووعودها إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من اتفاقها مع الحسين على الصورة التي مرَّ ذكرها.

وحسبما تبيّن من وقائع الأمور فيما بعد فإن الإنكليز لم يكونوا مخلصين فيما كانوا يفاوضون عليه العرب وأن تلك الوعود والعهود لم تكن سوى خدعة ووسيلة إلى تأمين مصلحتهم. فمنذ بداية الثورة تبيّن أنهم كانوا لا ينوون الوفاء بالعهود التي ألزموا أنفسهم بها وقد تعمدوا أن يتركوا بين سطور معاهدتهم ثغرات ليحتجوا بها في عدم تطبيق ما كان يتعارض مع اتفاقياتهم مع الفرنسيين واليهود كما حصل فعلاً عقب الحرب وقد كانت مواد معاهداتهم مع الفرنسيين واليهود التي عقدوها بعد قيام الثورة، مخالفة لما سبق وعاهدوا عليه العرب نصاً وروحاً.

فلما نشبت الثورة وأصبحت أمراً واقعاً وورطة ليس من السهل على العرب الرجوع عنها، كان زمامها قد أصبح بيد الإنكليز. وزمام أي ثورة تقوم في قطر فقير مجدب كالحجاز هو المال والسلاح والعتاد والطعام. أبقت إنكلترا على هذا الزمام بيدها تستعمله شداً وإرخاءً على قدر ما تقتضيه مصلحتها واتفاقيتها مع حليفيها الصهاينة والفرنسيين.

عندما اشتعلت الثورة كان في المدينة وعلى خط مواصلاتها الحديدي بطول (١٣٢٠) كيلومتراً ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألفاً من جنود الأتراك بالإضافة إلى فرقتين في اليمن وعسير. فرأى الإنكليز أن من مصلحتهم إبقاء هذه القوات الكبيرة مجمدة بعيدة عن الجبهات التي يحاربون فيها. وعلى هذا الأساس راوغوا وتهربوا من مد العرب بالسلاح إلا بما

يقتضيه حصار القوات في المدينة ومشاغلة الحاميات التي على الخط الحديدي. ومنعها من القيام بالزحف على مكة والقضاء على الثورة. وبهذه الخطة حققوا لأنفسهم الفوائد الآتية:

١ ـ جمدوا هذه القوات التركية الكبيرة في منطقة بعيدة عن الجبهة التي يقاتلون عليها. وعددها لا يقل عن مجموع القوات التي كانت تقاتلهم في جبهة غزة. فلو أنها انسحبت من المدينة وأضيفت إليها كان الموقف قد تبدل تبدلاً خطيراً.

٢ ـ جعلت من هذه القوات المتجمدة في المدينة وما كان ملحقاً بها من القوات التي على خط المواصلات الحديدي جرحاً في جسم الجيش التركي ينز بصورة مستمرة ضباطاً وجنوداً وأسلحة وعتاداً ومهمات ومواد إعاشة، فلو أنهم مكنوا العرب من الاستيلاء عليها لمنعوا النزيز وأصبحوا مضطرين أن يعيلوا هذا العدد الكبير في معتقلات الأسر حتى نهاية الحرب.

٣ ـ ألهوا العرب بهذا الجيش الذي لا هو محاصر ليستسلم جوعاً، ولا هم قادرون على الاستيلاء على مواضعه المحصنة لعدم وجود ما يلزمهم لذلك من قطعات نظامية ومدافع، وعلى هذه الصورة أصبح الجيشان التركي والعربي مجمدين معاً، وبقيا كذلك حتى نهاية الحرب. باستثناء جيش الأمير فيصل الذي أريد له الاندفاع إلى الشمال وكانت قواته في حينها لا تزيد على ربع قوات الأميرين علي وعبدالله اللذين ذكرنا تجميدهما.

٤ ـ بهذه الطريقة التي ألهوا بها معظم جيش الثورة بمحاصرة الأتراك في المدينة حالوا دون تقدمه إلى الشمال نحو سوريا والعراق، الأمر الذي لا يريده الحلفاء الثلاثة

(إنكلترا وفرنسا والصهيونية) فلو تهيأ للعرب الاستيلاء على المدينة ليسر لهم ذلك الوصول إلى جبل الدروز الذي كان في ذلك الوقت خارجاً عن سيطرة الأتراك تقريباً وهو لا يبعد عن دمشق بأكثر من مائة كيلومتر. لأن جميع البادية في شرقي السكة الحديدية من الحجاز حتى الشام والعراق كانت مفتوحة أمامهم، وليس للأتراك أية سيطرة عليها، ووصول الثورة إلى ضواحي دمشق في ذلك الوقت والبلاد على تلك الحالة التي رويناها معناه اشتعال الثورة في جميع أنحاء سوريا وإجلاء الأتراك عنها قبل سنتين من جلائهم الذي حصل في سنة ١٩١٨.

وعلى هذا الأساس ركز الإنكليز خطتهم في تقديم معوناتهم إلى الثورة. فلا هم يريدون لها الضعف بحيث يتمكن الأتراك من القضاء عليها، ولا هم يريدون لها القوة بحيث تتمكن من الاستيلاء على المدينة وأسر حاميتها، ومن ثم الانطلاق نحو سوريا والاتصال بالعراق وهي المناطق المقرر أن تكون لهم لا للعرب.

لقد ذكرنا في الفصل السابق أن الحسين كان قلقاً يلح على الإنكليز بطلب العون ويذكرهم بتعهداتهم وبالخطر الذي يحيق بالثورة وأن المسؤولين في مصر مختلفون فيما بينهم إلى أن سويت الأمور بمداخلة الحكومة البريطانية وتقرر إرسال ستورس ليقف بنفسه على حقيقة الأمر للعمل بما تقتضيه المصلحة ضمن تلك الخطة التي ذكرناها.

لماذا يأتي بهذه المهمة العسكرية ستورس وهو رجل مدني؟ ولماذا يستصحب معه (هوغارت ولورنس) وهما مدنيان أيضاً؟ لأن المهمة وإن كانت في مظاهرها عسكرية فإنها في حقيقتها مهمة سياسية. من السهل على رجل مثل ستورس أن يتفهم خطوطها العسكرية العريضة، ولكن ليس من السهل على رجل

عسكري أن يتفهم نواحيها السياسية أو أنه ليس من المصلحة اطلاعه على سريتها.

أبحر ستورس مع رفيقيه هوغارث ولورنس من السويس على الباخرة الحربية الصغيرة (لاما) قاصدين جدة. وليس من شك في أن ستورس كان يحمل في نفسه برنامجاً موقوتاً لهذه الرحلة. وليس من شك أيضاً أنه كانت هناك أمور مهمة اضطرته للقيام بهذه الرحلة لدراستها وتفهم الاقتراحات اللازمة حولها. وأولى هذه الأمور هي المطالب التي كان يلح بها الحسين والتي تدخل ضمن نطاق المساعدات التي تعهدت بريطانيا بتقديمها للعرب إن هم ثاروا على الأتراك ووقفوا إلى جانبها، وأخذ الحسين الذي شعر بخطر زحف الأتراك على مكة وتهاون الإنكليز بتأمين احتياجات الثورة يلح إلحاحاً تهديدياً بطلب المعونات ويذكرهم بتعهداتهم. وتتلخص هذه المطالب التي كان يلح الحسين بطلبها بالأمور الآتية:

١ ـ إنزال قوة بريطانية من الجنود المسلمين في ثغر رابغ لسد الطريق أمام تقدم القوات التركية المرابطة في المدينة لمنعها من التقدم نحو مكة.

٢ ـ ابقاء الطائرات الأربع الموجودة بالقرب من رابغ للمقصد نفسه.

٣ ـ إرسال المدافع والأسلحة والأعتدة اللازمة لتشكيل الجيش النظامي.

٤ ـ تأمين جلب الضباط والجنود العرب من معسكرات الأسر لتشكيل هذا الجيش مع تأمين احتياجاته، وكان موضوع الفقرة الأولى الأهم الذي كان يشغل أفكار المسؤولين الإنكليز. فالقيادة البريطانية لا تحبذ إنزال قطعات في الحجاز لحاجتها إليها في أمكنة أخرى. والجهات

السياسية لا تحبذه أيضاً لأسباب سياسية وهي عدم الإفساح في المجال أمام أعدائهم لنشر الدعايات بين رعاياهم المسلمين بأنهم احتلوا بجيوشهم الأراضي المقدسة الإسلامية.

فلأجل دراسة هذا الموضوع عن كثب والتأكد من الأخطار المحيطة بالثورة كان يجب على ستورس أن يجتمع بجدة بالأمير عبدالله نيابة عن والده الملك وأن يجتمع بالأميرين علي وزيد في ثغر رابغ، وأما فيصل فقد كان في وادي الصفرا البعيد عن رابغ والوصول إليه كان يتطلب قطع مسافة طويلة على ظهور الجمال الأمر الذي لم يكن في استطاعة ستورس أو هوغارت القيام به فحاجته إلى رجل يعرف اللغة العربية ويحسن ركوب الجمال لإيفاده إلى فيصل للقيام بهذه المهمة دلته على لورنس فاستصحبه معه وهي مهمة كما هو واضح من طبيعتها من المهمات التي يوكل بها لرجل مخابرات.

وكان في الباخرة التي أقلت ستورس من السويس (عزيز علي المصري) وهو من عائلة مصرية درس في المدارس العسكرية التركية وتوصل إلى رتبة عقيد ركن وأصبح من القادة العسكريين المرموقين وكان على خلاف شديد مع أنور باشا الذي سجنه وأراد إعدامه ولكنه أنقذ نتيجة لضغط الضباط العرب من جهة والضغط المصري والتدخل الإنكليزي فأفرج عنه وعاد من الأستانة إلى مصر. وكان عزيز علي قبل الحرب وأثناء الخلاف الذي وقع بين العرب والأتراك زعيم الضباط العرب ومؤسس حزب (العهد) العسكري. سبق للإنكليز في بداية الحرب أن حاولوا الاستفادة منه ولكنه أبى التعاون معهم قبل أن يحصل على وعود صريحة باستقلال العرب. وعندما أعلن الحسين الثورة ووقف عزيز علي على الوعود التي أعطيت له عرض خدماته، وكان في طريقه للحجاز.

وبطبيعة الأمر كان الموضوع الرئيسي الذي يتحدث به ستورس مع عزيز علي أثناء وجودهم في الباخرة هو الجيش النظامي المزمع تشكيله في الحجاز والوضع العسكري الراهن بالنسبة لجيش الثورة. وكان مما اقترحه عزيز علي أن تكون خطة جيش الثورة هي قيام جيشين من جيوشها الثلاثة بمحاصرة المدينة وبتجهيز الجيش الثالث ليصبح جيشاً سياراً يعمل في تخريب الخطوط الحديدية والاستيلاء على مواقع الأتراك في سواحل البحر الأحمر حتى خليج العقبة. وراقت هذه الفكرة لستورس لأنها تنطبق على الخطوط العامة لخطتهم التي خططوها بحصر عمليات الثورة في الأراضي الحجازية. أما تقدم أحد هذه الجيوش إلى الشمال فإنه لا يؤثر على خطتهم المذكورة لأنه بوسعهم إيقافه في المحل الذي يريدونه طالما الزمام (المال والسلاح والإعاشة) بيدهم.

لا بد أن يكون لورنس قد سمع الأحاديث التي كانت تدور بين عزيز علي وستورس وأصغى إليها باهتمام وفهم مضامينها والغاية التي كان يرمي إليها كل منهما.

وفي تاريخ ١٦ تشرين الأول ١٩١٦ (أكتوبر) تصل الباخرة بركابها إلى ثغر جده وينزل ستورس ورفيقاه في دار المعتمد البريطاني ولسن وفي الوقت نفسه كان الأمير عبدالله يدخل جدة قادماً من مكة للاجتماع بستورس بالنيابة عن أبيه. وينعقد الاجتماع في دار المعتمد بين ستورس وولسن وهوغارت ولورنس من جانب والأمير عبدالله وعزيز علي المصري من الجانب الآخر.

٤

من هو لورنس؟

يجدر بنا وقد اقتربنا من الدخول في الحديث عن لـورنس في ميادين الثـورة أن نتزود بمـزيد من المعلومات عن شخصيتـه، كي يتاح لنـا تكوين فكـرة صحيحة عنها، نسترشد بها في استنتاج ـ الحقيقة مما كتب عنه أو كتبه هو عن نفسه.

لقـد قيـل وكتب عن لـورنس الشيء الكثـير، ولكن قـلّ من قـام بتحقيق صحة ما كتب وقيل. إن أكثر من كتبوا عنه كـانوا ممن لا يعرفونه، ومن كان يعرفه منهم كان يجهل الأشخـاص الذين كتب عنهم كما يجهل طبيعـة المجتمع وجغـرافية المنطقـة التي كتب عنهـا. ينقل الـواحد منهم عن الآخـر ثم يضيف عليه من خياله واستنتاجاته ما يشـاء. ومنهم من أضاف إليهـا الطريف ممـا هو مخـزون في أفكاره من حكـايـات ألف ليلـة، ومنهم من وجدوا فيما قرأوه عنه مـادة دعائيـة لحركـة سياسيـة، فعملوا لإبرازها والضرب على وتر الناحية التي تفيد الغاية التي يدعون إليهـا، كما فعلت الصهيـونية بتضخيمهـا دوره في الثورة حتى وصل بها الحال أن لقبته بملك العرب غير المتوج بقصد الإقلال من شأن الثورة كعمل وطني وقومي. ومنهم من وجـد في قصته صفقة تجارية، إذا ما أسبل عليها كساء من نوع جـديد يجلب إليها القراء كما فعل (ريتشارد الدينجتـون) عندمـا خرج عـلى

الناس في عام ١٩٥٠ بكتابه (لورنس العرب ـ تحقيق في سيرة حياته)، كشف فيه عن أصل لورنس وعن أنه ابن غير شرعي لأب نبيل في نسبه وغير نبيل في تصرفاته وأخلاقه.
إن جميع من كتبوا عن لورنس اعتمدوا بكتاباتهم عنه بصورة رئيسية على ما كتبه لورنس نفسه وعلى ما كتبه عنه داعيته (توماس لويل). يستثنى منهم كتاب واحد هو (لورنس والعرب) لمؤلفه الأستاذ (سليمان موسى). لقد قام هذا المؤلف بتدقيق وتحقيق كل ما كتب عنه وما كتبه هو عن نفسه، وخرج من كل ذلك بأن لورنس لم يكتب تاريخ الثورة العربية بل كتب قصته الشخصية في تلك الثورة على الصورة التي أرادها لنفسه.

وسوف لا يجد القارىء فيما كتبه لورنس أو فيما كتب عنه سوى وجهة نظر لورنس، سواء أكان الكاتب معه أو عليه، ولذلك يتعذر على العرب أن يجدوا في ما كتبه الغربيون ما ينصفهم. لأن لورنس كان في ما يكتبون الأصل، والعرب هم الفروع التي كانت المسرح الذي ظهرت عليه عبقريته الفذة ـ حسب تفكيرهم ـ ومن حسن الحظ أن تاريخ الثورة العربية لم يكتب بعد بصورة نهائية لا من قبل المؤرخين الغربيين ولا الشرقيين فعندما يحين الوقت ويأتي المؤرخ الحقيقي فسوف لا يجد في ما سيؤرخه عن الثورة مكاناً فسيحاً لأعمال لورنس.

إذا أمعنا النظر في أسباب وظروف الثورة العربية بروح التفهم والانصاف نجد أنها كانت ثورة قومية اقتضتها مصلحة وطنية. رافق وقائعها الكثير من المصاعب والأخطار والتضحيات والبطولات، فسفكت فيها الدماء وذهب ضحيتها الألوف من الشهداء.

لقد كانت ثورة لا بد منها للعرب، جرهم إليها الأتراك جراً، وبالرغم من خيانة الحلفاء لها، فإنها على مداها الطويل نجحت نجاحاً عظيماً. لقد كانت أول حركة قومية مسلحة قام بها

العرب منذ أكثر من ألف سنة من الضياع القومي، أيقظتهم من سباتهم الطويل، وأظهرت شخصيتهم القومية، وحددت غايتهم في الحرية والوحدة. وهي أول حركة جعلت العالم الحديث يشعر بوجود العرب كأمة لها مميزاتها القومية. كان العالم الغربي قبلها ينظر إليهم كشعب تابع للأتراك فيجمله معهم بأسم (توركو) من ذوي الطرابيش الحمراء.

وها هم العرب وقد نهضوا من كبوتهم وحصلوا على حرياتهم في أكثر من عشرين دولة سائرون في طريق وحدتهم بالرغم من العراقيل التي يضعها في طريقهم الأعداء والصعوبات التي يجدونها من بعض أبنائهم الأغبياء.

ولد توماس إدوار لورنس «في ١٥ آب سنة ١٨٨٨ في إحدى قرى مقاطعة كارنافون في ويلز بإنكلترا. كان اسم أسرته في الأصل «تشابمان». تزوج والده في إيرلندا بسيدة أنجبت له أربع بنات، وعلق بحب مربية بناته الأسكتلندية «ساره» وغادر معها إيرلندا إلى إنكلترا تاركاً بناته الأربع لأمهن وعاش مع ساره حتى وفاته دون ارتباط بعقد زواج شرعي.

وعمد تشابمان بعد هجره لأسرته إلى تغيير اسمه إلى «لورنس» وجاءه من زوجته غير الشرعية خمسة أبناء ذكور كان توماس لورنس (موضوع كتابنا) الثاني بينهم، وبعد أن تنقلت الأسرة اثني عشر عاماً استقرت في مدينة أكسفورد، وبدأ توماس دراسته في مدارسها وكان ينال المنح الدراسية إلى أن فرغ من دراسته الجامعية. وكان منذ صغره قوي البنية نشيطاً ذكياً يتميز بقوة الذاكرة وحب المغامرة والصبر على المصاعب. وظهرت هوايته للآثار منذ البداية ونمت مع نموه، مما جعله يعتني بدرس اللغات التي تعينه على هذه الدراسات. فتخرج وهو يجيد الفرنسية واللاتينية واليونانية. وكان موضوع الرسالة التي عزم أن يتقدم بها إلى الجامعة هو (الفن المعماري

الحربي عند الصليبيين في الشرق) واستكمالاً لهذا البحث عزم على زيارة القلاع التي بناها الصليبيون في سوريا، وتلقى قبل سفره بعض الدروس في اللغة العربية، وأبحر من إنكلترا في حزيران ١٩٠٩.

ومن بيروت بدأ برحلاته فزار القلاع الصليبية في جميع أنحاء سوريا. قطع هذه المسافات الشاسعة على طرق أكثرها غير معبد وبرار غير مأمونة في ذلك الزمن. وكانت رحلته هذه التي قطع فيها ١١٠٠ ميلٍ فريدة وغير مألوفة بالنسبة لغيره من الأجانب. لقد قطعها وحده مشياً على الأقدام، يبيت عند الفلاحين أو عند أنصاف البدو فيأكل من طعامهم ويشرب من شرابهم، عرف حياة أنصاف البدو في خيامهم، والقرويين في بيوتهم، ومارس شظف العيش وتحلل من تقاليد المدن. وساعده اختلاطه اليومي معهم وعدم وجود من يكلمه بالإنكليزية على التقدم في تعلم اللغة العربية كما تهيأ له التعرف على بعض العادات والتقاليد المحلية.

وعاد من رحلته فأكب على إعداد رسالته التي قدمها ونال عليها إجازة الدراسة الجامعية في فرع التاريخ الحديث بدرجة شرف. ولفت لورنس منذ البداية وخلال تردده على متحف الجامعة انتباه القيِّم عليه الدكتور (هوغارت) وهو مستشرق ومؤلف، وأحد علماء الآثار المشهورين فأعجب بنشاطه وذكائه فسعى له مع كلية (ماغدلين) كي تمنحه مئة جنيه سنوياً لمدة أربع سنوات. وبهذه المنحة ألحقه هوغارت في بعثة المتحف البريطاني للقيام بحفريات جرابلس (كركميش) وهي مدينة حثية بالقرب من نهر الفرات في سوريا، وكان هوغارت المشرف على هذه الحفريات.

وفي أواخر ١٩١٠ أبحر لورنس من لندن فسبق رئيسه هوغارت إلى بيروت وبقي فيها ثلاثة أشهر يدرس العربية قبل أن يلتحق

به، ويسافر معه من بيروت إلى كركميش. وفي كركميش تهيأ له الاختلاط بأنصاف البدو والفلاحين يتعرف على المزيد من أخلاقهم وتقاليدهم وأخذ يرتدي الملابس المحلية، كما ترك شعر رأسه ينمو على طريقة البدو ليستكمل انسجامه مع البيئة التي يختلط بها.

وفي أواخر سنة ١٩١٣ بينما كان لورنس يقضي مع رئيسه الذي خلف هوغارت (ليونارد ولي) إجازة قصيرة في حلب تلقيا برقية من لندن تطلب إليهما السفر إلى سيناء. وكان اللورد كتشنر قد قرر القيام بمسح شبه جزيرة سيناء فكلف بذلك الكابتن (نيوكمب) وجاء بهذين الأثريين للتعمية بحيث استحصل لهما على رخصة للتجول من قبل السلطات العثمانية للبحث عن الآثار.

وطاف هذان الأثريان في جميع أنحاء سيناء ومعهم نيوكمب، حتى وصلا إلى العقبة وهناك افترقا، فذهب لورنس إلى البتراء ومنها إلى معان فدرعا فدمشق فكركميش. ليس من شك أن جولة لورنس هذه كانت جولة استطلاعية لحساب المخابرات البريطانية. وقد أصبح مرتبطاً بتلك المصلحة كغيره من رعايا الحكومات الاستعمارية الذين يستغلون عمليات التنقيب.

وعاد لورنس إلى بريطانيا مع رئيسه ولي الذي ذهب ليقدم تقريره عن رحلة سيناء. وفي أواخر حزيران ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى فعين لورنس بوساطة استاذه الدكتور هوغارت برتبة ملازم ثانٍ في قسم الخرائط التابع لشعبة الاستخبارات العسكرية في لندن.

ودخلت الحكومة العثمانية الحرب ضد الحلفاء واستدعت القيادة الإنكليزية ذوي الخبرة بالبلاد العربية بصورة عامة وبالقطر السوري بصورة مخصوصة، ممن سبق لها أن دربتهم

في زمن السلم لمثل هذه الأحوال، وألحقتهم بالجنرال كلايتون رئيس الاستخبارات العسكرية في مصر وكان من هؤلاء الكابتن نيوكمب والدكتور هوغارت ولورنس الذي أصبح يعتبر خبيراً بسيناء بسبب اشتراكه في مسح أراضيها وبسوريا التي طاف خلال خمس سنوات بجميع أطرافها تقريباً. وعين لورنس في شعبة الاستخبارات العسكرية، وانضم إليها أيضاً بالإضافة إلى من ذكرناهم اثنان من أعضاء مجلس النواب البريطاني وهما (جورج لويد) و(أوبري هربرت).

وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نشير إلى أن قوانين الجيوش تجيز إعطاء بعض المدنيين الملحقين بالجيش بمهمات فنية أو سياسية تتصل بعمليات الجيش رتباً عسكرية مؤقتة تتناسب مع عملهم تتراوح بين أصغر رتبة ورتبة جنرال. لكن هذه الرتب المؤقتة تزول بزوال مهمتهم التي نالوا بسببها تلك الرتب. كما أن هذه الرتبة لا تكسبهم امتيازات القدم والتقاعد وغيرها من الامتيازات التي تعطى للضباط المتهنين. ولذلك نجد أن لورنس الذي وصلت رتبته إلى كولونيل عندما انتهى عمله الذي كان يتصل بالجيش زالت عنه تلك الرتبة، وعمل في وزارة الخارجية كموظف مدني مؤقت. وعندما انفصل عنها وأحب العمل في الجيش، وكانت الحرب قد انقضت وزالت بانقضائها حاجة الجيش له، قبل بعد وساطات ملحة كجندي بسيط بسلاح الطيران.

ونلاحظ مما ذكرناه عن الجولات التي قام بها لورنس في القطر السوري ومنطقة سيناء أنه كان أكثر خبرة عملية بأحوال البلاد السورية من بقية زملائه ولذلك انيطت به الأعمال التي تتلاءم مع خبراته المكتسبة ومؤهلاته وهي تهيئة الخرائط العسكرية لغرض وضع التأشيرات التي تحصل عليها شعبة الاستخبارات العسكرية، كما عهد إليه ضبط وتنظيم المعلومات

التي تؤخذ من الأسرى والفارين من الجيش العثماني وتنسيقها مع المعلومات الواردة من الجواسيس ورجال الاستخبارات المحليين.

وفي شباط سنة ١٩١٦ انشىء «المكتب العربي» في القاهرة وعين الكوماندور هوغارت لرئاسته كما ذكرنا وأصدر هذا المكتب نشرة إخبارية دعائية كان لورنس أحد المساهمين في كتابة مواضيعها مع بقائه في الاستخبارات العسكرية. وكان لورنس يقوم بجميع الأعمال التي أنيطت به بكل همة ونشاط ودأب وإتقان فاكتسب بذلك ثقة رؤسائه واعتمادهم، وفي مقدمتهم السير ستورس السكرتير الشرقي للمندوبية والجنرال كلايتون وهوغارت وقد أفاد كثيراً من رعاية هؤلاء الثلاثة له وهو في بداية خطواته.

وسعى كلايتون ومعه هوغارت بأمر نقله من شعبة الاستخبارات العسكرية إلى المكتب العربي حيث بقي في عمله هذا إلى أن استصحبه ستورس في زيارته للحجاز بتاريخ ١٦ تشرين أول ١٩١٦. وبذلك يكون مجموع ما قضاه لورنس في الأعمال المكتبية منذ انتسابه للجيش البريطاني في أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ حتى ذهابه إلى الحجاز لأول مرة برفقة ستورس ستة وعشرين شهراً.

بعد أن عرفنا شيئاً عن حياة لورنس ونشأته، وقبل أن ندخل في الحديث عما دار حوله من قصص وعما جاء في كتابه (أعمدة الحكمة) من أمور وأحداث، علينا أن نتذكر أن كتابه هذا بمجموعه قصته خلال الثورة العربية وليس قصة الثورة نفسها. وأن شهرة لورنس التي انتشرت في أنحاء العالم، لم تكن نتيجة لما جاء في كتابه، بل إنه ألف كتابه على أثر تلك الشهرة وبعد أن امتلأت نفسه بالغرور وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه ليدعي ما يشاء. والدعاية هذه لم يكن القصد منها

لورنس بالذات لقد كانت دعاية سياسية قام بها عالم اخصائي كبير واستاذ في جامعة برنستون الأميركية اسمه (لويل توماس). فالجالية الفرنسية ومؤيدوها الأميركان كلفوه بتنظيم دعاية من شأنها خلق أساطير حول المقاتلين ـ البريطانيين لمقاومة الدعاية الألمانية وتشويق الأميركيين لدخول الحرب. ولما لم يجد توماس هذه المادة في الجبهة الغربية، جاء إلى الشرق وعثر عليها في القدس بشخص لورنس. شاب إنكليزي ذو بشرة بيضاء وعينين زرقاوين يلبس ملابس غريبة أشبه بملابس شهريار الذي قرأ عنه في كتاب ألف ليلة.

وحدث لورنس لويل عن نفسه وعن الصحراء وعن البدو والجمال والخيل والشيوخ ذوي اللحى والنساء المحجبات. ففرح لويل لعثوره على المادة الأولية للدعاية التي جاء للشرق للتفتيش عنها. وتزود لويل من لورنس ببعض القصص والصور وراح يؤلف منها الأساطير والغرائب.

فكان مثل لويل بذلك مثل القصصي الذي اخترع شخصية طرزان الخيالية ذلك الرجل العاري الذي عاش في الغابات بين الحيوانات يتسلق الأشجار ويعبر الأنهار ويقاتل الوحوش ويصادق القرود. أما الشخصية التي اكتشفها لويل فهي شخصية حقيقية تعمل بين البدو، وتركب الجمال وتنام في الخيام وتقاتل الأتراك.

وهكذا نسج لويل من الخيوط التي سمعها من لورنس الأساطير وأذاعها في أنحاء أميركا ثم في إنكلترا وتسربت منها إلى جميع أطراف العالم، تماماً كما انتشرت قصص طرزان. إن لويل أول من كتب عن لورنس كتابه (مع لورنس في بلاد العرب) صوره كأمير من أمراء العرب، يقودهم ويوزع عليهم الذهب ويتصرف بشؤونهم وكأنه حاكمهم المطلق.

تنتهي الحرب وتنتفي بذلك الحاجة إلى الدعاية لها، وينتهي أمر

لورنس إلى الإهمال وإلى الحاجة وإلى البؤس ولكن اسطورته لم تنته فأستمرت في الانتشار، وتحولت من دعاية إلى الحرب، إلى دعاية مبطنة بشكل أسطورة ضد الثورة العربية لتشويهها والتقليل من شأنها.

وتنعكس هذه الأسطورة على لورنس نفسه، وهو في أحلك أيام بؤسه، والإنسان إذا ما يئس في حاضره، ويئس من مستقبله، عاد إلى ماضيه ينبشه ليستخرج منه ما عساه أن يسبل على حاضره بعض ما يخفف عنه. وهكذا عاد لورنس إلى ما نشر عنه فكتبه بصورة كتاب بعد أن مزج تلك القصص الخيالية بوقائع حقيقية له شأن في بعضها فسبكها بقلمه السيال وجعل منها عجائب وغرائب وبطولات نسبها لنفسه.

نحن نقدر أنه ليس من السهل تحويل أفكار الناس عما عرفوه عن لورنس بعد تلك الضجة الهائلة والدعاية المنظمة التي ملأت الدنيا، حتى سرت على العرب أنفسهم، وجعلت بعض مثقفيهم يؤخذون بها. قال عنه أحدهم إنه كان إحدى دعامات الثورة الأساسية، وقال آخر إنه بجانب إخلاصه لأمته قد أخلص للعرب وقيل: إنه اندمج بالثورة العربية وأخلص لها بدافع من حبه للعرب وحياة العرب وعشقه للصحراء العربية، وبأنه كان المحرك لقوة الثورة الذاتية، وأنه أعان فيصل على دخول دمشق فاتحاً ومن ثم إعلانه لميلاد أول دولة عربية في التاريخ المعاصر، وأنه أخلص للقضية العربية عندما رافق فيصل وأعانه في عرض قضية العرب أمام قادة الحلفاء المنتصرين في مؤتمر الصلح في الحرب العالمية الأولى، كما أنه أقنع تشرشل لكي يعوض عن خيانة حكومته للعرب بإقامة دولة عربية، في العراق يرأسها فيصل.

إن لورنس لم يكن إحدى دعامات الثورة ولا المحرك لقوتها الذاتية، لم يكن حتى حصوة صغيرة في بنيانها ولم يكن له أي

أثر لا في نشأتها ولا في منجزاتها، إلا ما كان من واجباته كرجل مخابرات يكتب التقارير، وضابط اتصال يؤمن الارتباط. إن المحرك لقوة الثورة هو الملك حسين يعاونه أنجاله الأمراء الأربعة وعدد من أبناء عمومته الأشراف والقادة والضباط.

لقد قال لورنس في إحدى فقرات كتابه عن نفسه:

«لقد كانت الثورة حرباً عربية خاض العرب غمارها جنوداً وقادة لتحقيق هدف عربي في بلاد العرب. وكان نجاح الثورة طبيعياً لا بد من وقوعه. وهذا النجاح لم يعتمد إلا على القليل من المساعدة الخارجية التي قدمها البريطانيون القلائل في الثورة».

ويقول في محل آخر:

«كان دوري الحقيقي في الثورة دوراً صغيراً، ولكن نتيجة لقلم سيال وذهن ناشط أخذت لنفسي دوراً رئيسياً مصطنعاً».

ولورنس لم يكن مخلصاً للعرب ولا محباً لهم. وهذا تكرار آخر لما ذكرناه في الصفحة ٣٤٩ من كتابه:

«لا مجال لأي تهرب أو تملص. لقد فرض عليّ أن أعود من جديد إلى لبس قناع الخداع في الشرق إلخ».

ولم يكن للورنس دور في إعانة فيصل في دخوله دمشق أكثر من دور ضابط اتصال ولا في إعلان الحكومة العربية في دمشق كما سنرى ذلك في فصل لاحق.

ولورنس لم يرافق فيصل في أثناء عرضه القضية العربية أمام قادة الحلفاء ليعينه، فإنه لم يكن في هذه المهمة أكثر من رجل مخابرات ومترجم. وبطبيعة مهمته هذه كان مخلصاً كأي بريطاني للمخابرات التي ينتسب إليها لا إلى فيصل. وإذا أردنا أن نقول الواقع فما هو العمل الذي تمكن فيصل من إنجازه في ذهابه إلى الغرب؟ لا شيء فالحليفتان اللتان تآمرتا على اقتسام البلاد العربية (إنكلترا وفرنسا) كانتا متفقتين

وقسمتاها فعلاً. والدور الـذي أعطي لرجـل المخابـرات المترجم لورنس بإلحاقه بفيصل هو أن يهوِّن عليه وقع هذه الخيـانة من قبل الإنكليز الذين كانوا يدعون صداقتهم للعرب. والعمل عـلى استقلالهم بعد تلك العهود والوعود. فلـورنس لم يكن بإمكـانه أن يعـين العرب في شيء بـالنسبة لمكـانته ولأن القضيـة كـانت منتهية بالنسبة للحليفتين إنكلتـرا وفرنسـا ولكنه أعـان فيصل فعلاً في تهوين وتحمل هذه الضربة وتلك الخيانة.

أمـا القول بـأن لورنس أقنـع تشرشل لكي يعـوض على خيـانة الإنكليز للعرب بإقامة دولة عربية في العـراق يترأسهـا فيصل. فإن مكانة لورنس كانت أصغر من أن تبدل أو تؤثر في قـرارات اتخـذها أعظم مستعمـر أنجبته بـريطانيـا في تاريخهـا القديم والحديث. إن استقلال العراق لم يقرره تشرشل فالذي قرره هو الشعب العـراقي نفسه، بثـورته الكبـرى عقب الحرب العـالمية الأولى. فهذه الثورة كلفت الإنكليز نحو أربعين مليون جنيه (أي أربعة أضعاف مـا كلفتهم الثورة العـربية) عـدا ما كلفتهم من دماء بريطـانية، هـذا هو الـذي قرر استقـلال العراق في سنـة ١٩٢١ وتنصيب الأمير فيصل ملكاً على العـراق، لا تشرشل ولا رجل المخابرات المترجم لورنس.

مـات لورنس في سنـة ١٩٣٥ بصورة غـير طبيعية. كمـا كـانت جميـع أدوار حياتـه. لقد ولـد ولادة غير شرعيـة وعاش في بيت تحوم حوله الشبهات، ولما شب أصبح موظف مخابـرات يجوب براري سوريا وقلاعها القديمـة بين القـرويين وأنصـاف البدو، وتأتي الحرب فتنير إحدى ومضات مدافعها حياة لورنس بسرعة وبصورة غير طبيعية وتخبو بالصورة نفسها التي توهجت بها.

وإذا أمعنا الفكر في حياة لورنس، وجـدناهـا تافهـة منذ مـولده حتى ممـاته، لم يـأت خلالهـا بعمل لـه أثره الطيب أو السيىء سوى ما قدمه لـلاستعمار بصـورة عامـة وللصهيونيـة بصورة

مخصوصة، من خدمة في تشويهه حقيقة الثورة العربية التي أريقت خلالها دماء الألوف من الشباب العربي على اختلاف أقطارهم في سبيل الحرية والاستقلال والوحدة، وإظهاره لهذه الثورة أمام العالم وكأنها قامت وعملت لمصلحة الإنكليز وبتوجيههم وبقيادة أحدهم (لورنس).

مات لورنس ولم يترك سوى أسطورته، وكان العالم إلى ذلك الحين لا يزال يعيش تحت تأثير جو الحرب وأحداثها المؤلمة، فتقبل هذه الأسطورة التي جرت وقائعها في بلاد ألف ليلة وليلة، لا يقوم ببطولتها هذه المرة شهريار بل شاب مغامر غربي إنكليزي مسيحي. يقود الأمراء العرب وملوكهم ذوي التيجان والعمائم المرصعة بالمجوهرات، والمشايخ ذوي الذقون العريضة والعباءات والعقل المقصبة، والفرسان وراكبي النوق، حاملي السيوف والرماح، ساكني الخيام الملونة التي تعج أخبيتها بالنساء المحجبات ذوات العيون والجدائل السود. لقد قبلوها كقصة ترفيهية من قصص العرب الغريبة المسلية.

كانت هذه الأسطورة بشكلها هذا مادة مناسبة ومقبولة لدى الكثيرين من الكتاب، فألفوا منها الكتب، وكتبوا عنها المقالات، ووجدوا فيها المجالات الواسعة لخيالهم فأطلقوا له العنان. ووجد خصوم العرب في هذه الأسطورة مادة دسمة ومقبولة مليئة بالغرائب، فراحوا يوسعونها وكلما خبت يؤججونها ويخوضون بها كما يشاؤون.

وفي سنة ١٩٦٣ تخرج الصهيونية إحدى دعاياتها بشكل فيلم سينمائي من الوزن الثقيل وزعته في جميع أطراف العالم باسم (لورنس العرب). يعرض هذا الفيلم لمن قرأ أسطورة لورنس في مختلف الكتب أو لمن لم يقرأها صورة كأنها حقيقية عن العرب. فيظهرون على الخيل والجمال بقيادة لورنس الإنكليزي في مشاهد غريبة ومثيرة. يوحى بها إلى المشاهدين بأن النهضة

العربية وثورتها لم تكونا سوى حركة إنكليزيـة قادهـا إنكليزي للمصلحة الإنكليزية، وما هؤلاء العـرب سوى آلات مسـيرة بيد هذا الإنكليزي يوجههم إلى ما يشاء ويقودهم حيث يشـاء. وأن هذه الدعاية مع الأسف حققت غايتهـا وسلكت حتى على بعض العرب أنفسهم وهي نموذج للدعاية الفنية المنظمة الناجحة.

وفي أعقـاب حرب حـزيران ١٩٦٧ تطلـع صحيفة «الصنـداي تايمس» الإنكليزية بإثارات جديدة ـ لأسطورة لـورنس قدمتهـا بشكل مقالات متسلسلة، ونقلتها عنها جريدة الأهرام متسلسلة أيضـاً، اعتباراً من حـزيران ١٩٦٨. وتـدور هذه السلسلـة في ظاهرها المثير حول أمور تتعلق بخصـوصيات لـورنس ولكنها في الأصل تستهدف الأحـداث العربيـة التي كانت لـه بها عـلاقة لإظهارها بالصورة التي يراد لها.

طلعت هذه السلسلة بمجموعة من وثـائق جديـدة ألقت الضوء على الكثير من الغموض الذي أحاط بحياة لـورنس، وبالحـوافز التي مسهـا مساً خفيفـاً في كتابـه (الأعمدة السبعـة). وتقـول الصحيفـة المذكـورة: إن هـذه الـوثـائق لم يسبق نشرهـا وهي محفوظة الآن في مكتبـة بودليـان في أكسفورد. سـوف لا يكون هذا البعث لقصة لـورنس آخر البعـوث فستعقبه بعـوث أخرى كلما وجدت الصهيـونية منـاسبة أو ضرورة لتـذكير العـالم بأن العرب بدو متوحشون متأخرون لا يستحقون اهتمامه.

إذا أمعنا الفكر في ما كتب عن لورنس أو في ما كتبه عن نفسه، أو في ما كتبه عنه أصدقاؤه أو عارفوه نجد في حياة هذا الرجل تناقضاً عجيباً غريباً. لقد رافقـه هذا التنـاقض والشذوذ منـذ تفتحت عيناه على الحياة، وبقيا يلازمانه في جميع أدوار حيـاته حتى مماته.

كان والده نبيلاً إيرلندياً غريب الأطوار والسلـوك يترك زوجتـه

وبناته الأربع ليعيش مع مربية أولاده (ساره ميدن) بقية حياته ويستولدها خمسة أولاد ذكور بصورة غير شرعية.

وعاشت الأسرة في شبه عزلة بسبب ظروفها الاجتماعية، وبعد أن انتهى لورنس من دراسته الثانوية تطوع جندياً في سلاح المدفعية دون معرفة أهله، وذلك بسبب اطلاعه على سر مولده غير الشرعي. وبعد تسعة شهور من الخدمة يخرجه أبوه بعدما قبل شرط الابن بأن لا يسكن معهم وأعطي كوخاً في الحديقة.

ويدخل لورنس جامعة أكسفورد ويتخرج منها ويشترك في حفريات كركميش في شمال سوريا كما مر ذكره. ويصادف خلال وجوده في حفريات كركميش أحد غلمان القرويين وهو سقاء في الخامسة عشرة من عمره يعمل بجلب الماء على حماره. هذا هو داحوم أو الشيخ أحمد كما يسميه. ويظن بعضهم أنه هو صاحب الحرفين أ. س الذي أهداه لورنس قصيدته في مقدمة كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) كما تقول (الصنداي تايمس). ومما قاله السير ليونارد ولي وهو رئيس بعثة الحفريات التي كان يعمل فيها لورنس: إن العرب هناك كانوا يعتقدون أن لورنس ينغمس في عادة اللواط بسبب صداقته مع داحوم.

إن الحياة المضطربة التي عاشها لورنس خلال طفولته ومراهقته سببت له عقداً نفسية كان لها أكبر الأثر في مستقبل حياته، وقد أثبت العلم ما للعقد النفسية من أثر في سلوك الإنسان وتصرفاته، وقد ابتلى لورنس لا بعقدة واحدة بل بعقدتين كبيرتين أثرتا على جميع استعداداته ومزاياه فهزتا كيانه وهدمتا حياته وقضتا على حاضره ومستقبله ولاحقتاه حتى قتلتاه.

أولى هاتين العقدتين هي عقدة الشعور بالوضاعة، التي أصابته عندما علم بأنه ابن غير شرعي لأم هي زوجة غير شرعية لرجل

ترك بيته وبناته الأربع وأمهن ليعيش مع عشيقته التي كانت مربية لأولاده. وكانت عزلة أسرته عن الناس وابتعاد الآخرين عن مخالطتهم تصرخ في وجه هؤلاء التعساء الخمسة صبح مساء تنبئهم بأنهم أولاد غير شرعيين. وكانت هذه العقدة تكبر وتتوسع كلما توسعت مداركه. وتوضحت في مغادرته لمنزل أبيه والدخول في الجيش دون علمه، ثم عودته وسكناه في كوخ في حديقة المنزل.

وعقدة الشعور بالضعة يلازمها عادة الشعور بالمذلة والحقارة أمام الآخرين، ويرافق هذه المشاعر الحقد والكراهية للأفراد وللمجتمع. الأمر الذي يدفع بالإنسان إلى السعي للتفوق وحب الظهور، وحب الظهور يتطلب المبالغة والمغالاة وبتكرارهما يصل إلى الكذب والتلفيق. وإذا وجد الكذاب من يصدقه ووجد الظروف التي تتقبل أكاذيبه، فإنه يصدق نفسه ويركبه الغرور، والغرور لا يدخل رأس امرىء إلّا حطمه.

هذا ما وقع للورنس بسبب عقدة الضعة التي أصيب بها. فقد كره أمه وأباه، وفر بنفسه إلى أحضان الجيش، ثم دخل الجامعة ليجد ويجتهد ويتفوق عساه يتلافى بذلك ما كان يشعر به إلى أن وجد في ميدان الثورة العربية التي ألحق بخدمتها مجالاً للظهور فأقدم وسعى واقتحم، ولما وجد المجال مفتوحاً ووجد من يصدقه بالغ في الكذب وتمادى في الاختلاق إلى درجة التهور. ونذكر فيما يلي بعضها كنماذج لهذه الأكاذيب!

يقول في كلمة إهداء كتابه:

> «لقد أحببتك ولذلك جذبت بيدي هذه الجموع من الناس مسيراً بارادتي النجوم عبر السماء».

يعني أنه جلب بيديه جموع العرب والثورة العربية كلها من أجل ذلك الحبيب (السقاء داحوم). ويقول في الصفحة ٢٠٩ من ترجمة كتابه:

«هكذا كان عليّ، لو كنت مستشاراً شريفاً، أن أنصح رجالي بالعودة إلى ذويهم وديارهم عوض المخاطرة بحياتهم في سبيل قصص وخداع... وهذا الأمر هو الذي حملني على أن أؤكد لرفاق السلاح من العرب أن إنكلترا ستحترم عهودها نصاً وروحاً. فما ان نال الثوار العرب هذا الوعد مني حتى دبت فيهم الحماسة من جديد وراحوا يحاربون بشجاعة».

وفي الصفحة ٥٣٩:

«في هذه المناسبة حملتني الذاكرة مع إحساس غريب إلى أربع سنوات خلت حيث كنت أحلم بأن أصبح جنرالاً من طبقة النبلاء لدى بلوغي الثلاثين».

ويقول في محلات أخرى إنه: جرح تسع مرات وسقط من الطائرة خمس مرات، ودخل مكة متخفياً بصفة تركي (وهو لا يعرف كلمة واحدة من التركية) وساح في نجد والحجاز واليمن وقبل الحرب تعرف على إمام اليمن يحيى حميد الدين إلخ. إن كل ذلك اختلاق لا أصل له من الصحة بتاتاً فإنه لم يجرح ولا مرة واحدة ولم يطلق بيده ولا رصاصة واحدة ولم يسقط من طائرة ولم يشاهد مكة قط ولا نجد ولا اليمن ولا يعرف من بلاد الحجاز سوى جدة ومدن رابغ وينبع والوجه الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

أما العقدة الثانية التي أصيب بها لورنس وكان لها الأثر البالغ في ما أصابه والتي شوشت عليه كل مراحل حياته حتى مماته، هي عقدة الشذوذ التي كان مصاباً بها، والتي ذكرها أكثر من كتب عنه، أولهم «ريتشارد الدينجتون» في كتابه (لورنس العرب، تحقيق في سيرة حياته). ثم السلسلة التي نشرتها صحيفة الصنداي تايمس المار ذكرها.

يتضح من مجموع الصفات التي اتصف بها لورنس ومما سجله في كتابه عن نفسه، أنه كان يقوم بجميع أعماله

وتصرفاته تحت ضغط الشعور بهاتين العقدتين: الضعة والشذوذ الجنسي. الأولى كانت تدفعه للمبالغة والكذب والتلفيق واستعمال الأنا في أكثر أحاديثه. والثانية في الشعور بالذنب والحطة، واختلاقه لقصص الجنس والتحدث عنها دون أن يكون لحديثها حاجة أو مناسبة.

٥

أقوال عن لورنس

من الفائدة قبل أن نتوغل في بحثنا عن أعمال لورنس أن نذكر بعض أقواله عن نفسه وبعض أقوال الأشخاص الذين عرفوه شخصياً ممن زاملوه في ميادين الثورة أو في خارجها من طبقات وجنسيات مختلفة، سواء أكانوا من المعجبين به أو من منتقديه. ونترك للقارىء بعد ذلك أن يكوِّن لنفسه فكرة يتزود بها خلال مسيرته هنا. ونحب أن ننبهه أيضاً إلى أن لورنس قبل كل شيء إنكليزي بدمه ولحمه وفكره، هيىء ودرب ليكون رجل مخابرات وأنه لا يتقن العربية كما ادعى، ولا يمكن أن يتفهم عقلية العرب فهماً صحيحاً. وأن كل ما يقوله عن العرب سرداً لوقائع، أو وصفاً لأشخاص فإنه يقوله من خلال إنكليزيته وبعقليتها.

بعض ما قاله لورنس عن العرب: في كتاب له اسمه (مجموعة مقالات شرقية) وصف العرب بقوله: «إنهم ذوو ألباب ذكية قادرون على التفكير العميق، ألباب عملية قادرة على شيء من الإنتاج، ألباب ملتهبة قادرة على شيء من التدمير. إنهم شعب لا ينقصهم النظام وقوة الاحتمال والتنظيم، وهم عبيد أرقاء للفكرة، رجال تشجنات، كالماء متقلبون ولكن فيهم شيئاً من قدرة الماء على التغلغل والطفو».

وقال في مقال له في تطور الثورة:

«من سوء الحظ أنني كنت مسؤولاً عن سير القتال إلى أي حد أريد، دون أن يكون لي أي خبرة في شؤون القتال تؤهلني لهذا العمل».

وقال في فصل محذوف من كتابه (أعمدة الحكمة):

«لقد كانت الثورة حرباً عربية خاض غمارها العرب جنوداً وقادة لتحقيق هدف عربي في بلاد العرب. وكان نجاح الثورة طبيعياً لا بد من وقوعه. وهذا النجاح لم يعتمد إلا على القليل من المساعدة الخارجية التي قدمها البريطانيون القلائل في الثورة.».

وقال:

«كان دوري الحقيقي في الثورة دوراً صغيراً، ولكن نتيجة لقلم سيال وذهن ناشط فإنني أخذت لنفسي دوراً رئيسياً مصطنعاً».

وقال:

«لا مجال لأي تهرب أو تملص. لقد فرض عليّ أن أعود من جديد إلى لبس قناع الخداع في الشرق. ورغم الاحتقار الذي أواجه به أنصاف الحلول سارعت إلى القناع لألعب الدور المناط بي».

وبعد أن شكا اتعابه بإحدى المناسبات قال:

«وهذه المتاعب ما كانت لتعني شيئاً نظراً لعدم اكتراثي بما هو جسدي، وإنما هناك الخداع المرهق الذي اضطررت أن أحمل نفسي وزره وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر، بعد أن لبست لها لباساً لا عهد لي بمثله من قبل، وتسلحت بلغة أجنبية يصعب عليّ التبشير بها، مع يقيني التام بأن (الوعود) التي أطلقناها للعرب لن تكون لها أية قيمة عملية فيما بعد إلا بمقدار ما سيظهر العرب أنفسهم من قوة».

وقال في نهاية تقريره عن معركة الطفيلة:

«أرسلت تقريراً للقيادة العامة في فلسطين. لقد كُتب بوضاعة للتأثير على القادة. وكان مليئاً بالتشابيه الطريفة والبساطات

الهازئة، وجعلهم التقرير يحسبونني هاوياً متواضعاً يلحق خطى القادة العظماء لا بهلواناً يسترق النظر وراءهم وكان التقرير مثل المعركة محاكاة ساخرة، ولكن القيادة العامة امتدحته ببراءة، ولكي تتوج المزحة قلدتني وساماً على ما جاء فيه. ولو استطاع كل واحد في الجيش أن يكتب التقارير بنفسه عن أعماله دون شهود لامتلأت صدور الكثيرين بالأوسمة».

■ الصحفي الأميركي (لويل توماس)

وهو أول من كتب عن لورنس وأول من أذاع شهرته وعرَّف العالم الغربي به. قد اعتمد في تأليف كتابه على سعة خياله وعلى ما قاله لورنس عن نفسه فخرج به كرواية أساسها شيء من الواقع وفي بنائها الكثير من الخيال.

■ المعلق العسكري البريطاني الكابتن لويل هارت

قال عنه في كتابه (لورنس في بلاد العرب وما بعد) بأن لورنس هو الذي قاد الثورة ووضع خططها ونظم حركاتها وقارن بين لورنس ونابليون ففضله عليه، وقال: «لولا لورنس لبقيت الثورة العربية مجموعة من الحوادث الطفيفة العابرة، ومما جاء في الكتاب: إن لورنس تعلم القراءة والكتابة قبل أن يبلغ الرابعة وتعلم الفرنسية قبل أن يبلغ الثامنة، وأنه كان في أكسفورد يقرأ في كل يوم ستة مجلدات. وقال إن لورنس قال له إنه درس فنون الحرب في السادسة عشرة من عمره».

وذكرت **فلوره ارميتاج** في كتابها «الصحراء والنجوم» بأن لورنس لم يكتب في كتابه الحقيقة بكاملها وتستشهد على ذلك بما جاء في إحدى رسائله عام ١٩٢٧ التي قال فيها: «إنك لا تجد مطلقاً أي إنسان حاول أن يكتب الحقيقة بكاملها عن أية عملية شارك في القيام بها» وهي لا تعتقد بأنه كان يتبنى وجهة النظر العربية بسبب امتداحه لمعاهدة سايكس ـ بيكو. وتنتقد

ما قيل في امتداحه وترى فيه إغـراقاً ومبـالغة لا ينطبقـان على الواقع.

وذكر الوزير البريطاني السابق **انتوني ناتنج** وهو الذي أشرف عـلى اخراج فيلم لـورنس والعرب وقـد ذكر في كتـابه «لـورنس العرب ـ الرجل ودوافعه» الذي ظهر في سنة ١٩٦١. إن لورنس كـان يجد اللـذة في الألم ويرى نـاتنج أن شعـور لورنس بعـار مولده غير الشرعي جعله يكره جميع المشتهيات الجسدية وخلق فيه عزماً شديداً للتفوق، وناتنج لا يصدق الحادث الـذي ادعى لـورنس وقـوعـه في درعـا. ويـرى أن لـورنس مجمـوعـة من المتناقضات وأنه كان يعشق الشهرة.

وحاول **ريتشارد الدنجنتون** في كتابه «لـورنس العرب ـ تحقيق في سيرة حياتـه» أن يضـع مـا كتب عن لورنس بميـزان المنطق والعقـل، ووصل عن طـريق ذلك إلى القـول بأنـه كان مخـاتـلاً مخـادعـاً بنى شهـرتـه عـلى أسـاس زائف من الأكـاذيب والاختلاقات والانتهـازية وأنـه لم يتورع عن سلـوك أي سبيل للوصول إلى الشهرة التي كان يتعشقهـا. وهو أول من اكتشف مولده غير الشرعي وبأنه ترك بنفسـه العقدة التي لازمتـه طيلة حياته. وربط بينها وبين تلك السبل التي سار عليها. وأن غروره المفـرط كـان وراء جميـع تصرفـاتـه الشـاذة. واتهم المعجبـين بلـورنس بأنهم مغفلـون. وريتشارد كـان يظن أن لورنس كـان لـوطياً... وقـد ترجم كتـاب الدنجنتـون إلى الفرنسيـة بعنـوان «لـورنس الدجـال». وهذا المؤلف تحـامل عـلى لورنس تحـاملاً عظيماً فشتمه وشتم العرب معاً.

■ سليمان موسى

أول من ألّف كتاباً عن لـورنس باللغـة العربيـة، وقد تـرجم إلى الإنكليزية وراج رواجاً عظيماً وهو الوحيد الذي حقق عمـا كتب

عنه فاجتمع أو كاتب من تمكن من العثـور عليهم ممن يعرفـون لورنس في الثورة، أو يعرفون الوقائع التي كتب عنها. وحيث إنه من أبناء المنطقة التي كانت المجال لأكثر الحوادث التي ذكـرها لورنس سهل عليـه التجول فيهـا والتعرف عـلى الرجـال الذين عرفوا لورنس من بدو وحضر وضبـاط ومدنيـين. ويقرر السيـد مـوسى أن الكتّاب الـذين امتدحـوا لـورنس مثلهم مثـل الـذين قدحوا فيه فعلوا ذلك على حسـاب العرب ولم يجـرب أي فريق منهم أن ينصفهم. وأبـدى شكوكـه في صداقـة لورنس للعـرب ومحبته لهم.

برنارد شو

وقد كان هو وزوجته يعطفان عليه قال عنه:

> «عندما كان يقف في وسط المسرح والأصداء الساطعة تتجه إليه، رأيت كل واحد يشير إليه قائلاً: أنظروا إنه يختبىء، إنه يكره الدعاية لنفسه».

ثم قوله:

> «لم تكن محاولاته لإخفاء نفسه تنطوي على عزم صادق. لقد كان ممثلاً يفوق أذكى الشياطين في أدوار الكوميديا».

وقال عنه أيضاً:

> «وصفه البعض بأنه كان خجولاً ولكنني لم أر أي دليل أو إشارة تدل على خجله. كان مخلوقاً غريباً جداً مطبوعاً على التمثيل منذ مولده، منصرفاً لجميع أنواع الحيل والألاعيب. لم يكن المرء يعرف بأي منظار ينظر إليه».

السير ريدر بولارد

زميل لورنس في (دائرة الشرق الأوسط) التي ألفها تشرشل عام ١٩٢١ والمعتمد البريطـاني في جدة قـال يصفه: «كـانت بعض

تصرفات لورنس تتسم بالدجل والخداع. ورغم أنني شاهدته في لندن يعلن أحياناً عن نفسه ويطمسها أحيانـاً أخرى، إلا أنني استطيع القول إنه كان رجـلاً عظيم التفوق. وكـان بمقدوره أن يحقق نجاحاً كبيراً في مجالات عديدة مختلفة من علم الآثار إلى هنـدسـة الالآت. ولا يمكن لمحض مشعـوذ أن ينـال كـل ذلـك التقدير من قبل العديد من مشاهير الرجال.

■ فلبي العالِم المستشرق

الـذي خلف لورنس في المعتمـدية البـريطـانيـة في شرق الأردن والمستشار للملك ابن السعود فيما بعد، تعرض لذكره في كتـابه (أربعون سنة في الصحراء) فقال: إن ناقدي لـورنس والمعجبين به على السـواء فشلوا في اتخـاذ الموقف الـلائق بهم وبلورنس، أما قول الذين وصفوه أنه أمير مكة وقارنوه بنابليون فهذا هراء لا يليق، وأمـا أسطـورة لـورنس التي لم تجـد رواجـاً في بـلاد العرب فهي من صنع لويل توماس، ثم يقول:

> «لقد كان في لورنس شيء من طبيعة الشيطان وكان يرفض عامداً أن يتقيد بأي مستوى من مستويات السلوك والرأي قبل أن يجربه بنفسه ويقتنع بمشروعيته وربما كان يفهم قيمة الدعاية وكيف يمكن أن تساعده على تحقيق أهدافه المهمة. إنه لم يكن يسلك الطرق العادية وكان في تصرفاته بعض الشذوذ».

■ السير إليك كركبرايت

أحد رجال البعثة البريطانية في الثورة عمل حوالى ثلاثـين عامـاً في الأردن وفلسطين آخرها سفيراً لبـلاده في عمان. عقـد فصـلاً خاصاً للورنس في كتابه (خشخشة الأشواك) ومما جاء فيه:

> «كان لورنس يمثل انتصار الروح على الجسد ولذلك كان يقوم بمجهود بدني لا يقوم به من يفوقه قوة...».

وقال:

«قيل إنه بمقدوره أن يوهم الغرباء بأنه بدوي وهذا غير صحيح لأن لهجته العربية لم تكن جيدة ولأن عينيه الزرقاوين كانتا تفضحانه. والواقع أنه كان يدل على هويته في اللحظة التي يفتح فيها فاه للكلام. وأما سمعته الطيبة وشهرته بين العرب فلم تكن ناشئة كلياً عن توزيعه للأموال ـ كما قيل ـ ولكن الفضل يعود لشجاعته وقوة احتماله، وتكوينه المسرحي لمجهوداته... لقد كتب الكثير عن لورنس فرفعه البعض إلى أسمى درجات البطولة والعبقرية بينما حاول الآخرون أن يهبطوا به إلى مصاف المشعوذين. على أن هؤلاء وهؤلاء لم يختلفوا في أمر واحد هو أنه كان إنساناً غير عادي ورأيي أن لورنس كان يقع وسطاً بين مدح المادحين وقدح القادحين».

■ الميجر يونغ

وهو من أعضاء البعثة البريطانية في الثورة وقد أصبح من كبار موظفي الخارجية فيما بعد وهو أحسن جميع البريطانيين الذين عرفتهم تلفظاً للعربية. فقد شبهه بالشيطان الصغير وقال عنه:

«كان على شيء من الغرور، وهذا الغرور قاده إلى التظاهر والتمثيل وغروره شوه الجانب الطيب من طبيعته. كان يعتز بمظاهر التمثيل التي يؤديها، ولكنه لا يلبث أن يخجل منها محاولاً طمسها. وقد بذل كل جهده لكي يغرس في أذهان المسؤولين البريطانيين فكرة مؤداها أنه أفضل مستشار يمكن العثور عليه بشأن قضايا الشرق الأوسط... لم أعرف أنه تردد قط في اتخاذ قرار ما. وكان سبب نجاحه في الثورة العربية أن اللنبي منحه صلاحيات مطلقة».

■ الجنرال السير ريجنالد ونجيت

حاكم السودان والمسؤول العسكري عن الثورة منذ بداية قيامها وقد أصبح بعد ذلك نائب الملك في مصر خلفاً لمكماهون. فمما قاله عن لورنس في كتاب له إلى ولسن الذي كان المعتمد البريطاني في جدة:

««شعرت دائماً أن لورنس الصغير ـ رغم تقديري لصفاته الرائعة ومقدرته على القيادة. لم يعرف كل المعرفة ولم يقدر تقديراً عادلاً، الأعمال المدهشة التي قمت بها أنت وقام بها جويس ونيوكمب والآخرون. ولم يكن للورنس أن يحصل على لقب (لورنس العرب) لولا جهودكم تلك... ولكن الواقع هو أنه تسلق قمة الشهرة على أكتاف رجال مثلك ومثل الآخرين».

السير ونستون تشرشل

كتب عنه في كتابه (معاصرون عظماء) قال فيه إن لورنس لم يكن مصيباً عندما أبدى رأيه بأن مساهمته في مؤتمر القاهرة كانت أكثر أهمية من مساهمته في الثورة العربية ووصف كتابه أعمدة الحكمة السبعة أنه من أعظم الكتب التي ظهرت في اللغة الإنكليزية.

الدكتور هوغارت

أستاذ لورنس في أكسفورد ورئيسه في حفريات كركميش ومرشده وموجهه والمعتني بأمره في عمله في المخابرات قبل الحرب وأثناءها ورئيسه في المكتب العربي في مصر. ففي محادثة جرت له مع الدكتور شهبندر في سنة ١٩٢٤ أكد له فيها عن لورنس بأنه قد أصبح ذا أطوار خاصة لا تدل على سلامة عقل بالمعنى المفهوم. وهو يخشى أن يكون قد أصبح ممسوساً.

روبرت بولت

كاتب الحوار لفيلم لورنس:

««إنني متيقن من أن لورنس أورد أكاذيب في كتابه ولكنه لم يكن كذاباً عادياً».

■ أبو الثورة الملك حسين

كان لا يميل إلى لورنس ولا يوافق على تدخله فيما لا يعنيه وقد رده فاشلاً في أكثر من مرة.

■ الملك عبدالله

انتقد الإفساح في المجال له في الجيش الشمالي وفي التدخل فيما لا يعنيه والذي نتج عنها تلقيبه بملك العرب غير المتوج، ويتهمه بأنه كان يعمل ضد البيت الهاشمي ويمتدح غيره من ضباط البعثة البريطانية لأنهم كانوا يعملون بتأدية واجبهم دون التدخل بالسياسة ووصفه بأنه:

«غريب الطباع مزهو بنفسه».

■ الملك فيصل الأول ملك العراق

كان رأيه فيه كرأي والده وإخوانه، ولكنه سايره بقصد الاستفادة منه حينما رآه حائزاً على ثقة المسؤولين من الإنكليز. قال نسيب البكري وهو صديق فيصل ومساعده في الشؤون السورية:

«عندما كان الحاجب يستأذن فيصل لدخول لورنس كان يقول لنا غيّروا الحديث».

■ جعفر العسكري

قائد الجيش النظامي الشمالي: امتدحه في كلمة نشرت في كتاب (لورنس بأقلام أصدقائه) ولكنه لم يعطه ميزة عن زملائه الإنكليز.

نوري السعيد

رئيس أركان جيش فيصل وكبير سياسيي العراق فيما بعد. لنوري السعيد محاضرات بحث فيها عن المعارك التي جرت في الثورة نشرت بصورة كتيب. وكان من الطبيعي أن يأتي على ذكر لورنس لو كان له شيء من المشاركات المهمة ولكنه لم يذكره إلا بصورة عابرة وعندما تحدث عن فتح العقبة ذكر أن الذي استولى عليها هو عودة أبو تايه وعشيرته وأن لورنس كان معهم وعن تخريبات السكة الحديدية يقول:

«كنا حتى أوائل سنة ١٩١٨ نرسل الضباط على رأس سرايا من البدو للإغارة على الحاميات التركية الضعيفة في شمال معان وجنوبها. وفي الغارات الشمالية كان لورنس مع الهجانة من البدو وبعض المتطوعين السوريين أكثر فعالية من غيرهم».

وأما عن أعمال المفرزة الشمالية في زحفها على حوران فدمشق، فنوري السعيد الذي كان يتولى قيادتها لم يذكر لورنس إلا بدوره كضابط تخريب كما ذكر بيك ويونغ. كما أنه لم يذكره في معرض حديثه عن دخول دمشق، وكانت المقدمة التي كتبها نوري السعيد في سنة ١٩٢٧ لترجمة كتاب لورنس (ثورة في الصحراء) تحتوي على الكثير من الثناء ولكنها لم تعطه أي دور رئيسي، وقال في إحدى فقرات مقدمته:

«لو كان للملازم لورنس إبّان الثورة سلطة ونفوذ كافيان لتمكن العرب والحلفاء في وقت واحد من أن يجنوا من الثورة العربية ثماراً تفوق جداً الثمار التي جنوها منها».

ثم يقول:

«وإذا كان ينقصه شيء فذلك هو الأمور التي لم تتح له الفرص للإطلاع عليها وهي كثيرة ومهمة جداً بالنسبة للتاريخ العربي».

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

الـزعيم السوري وكـان أثناء الـحـرب لاجئاً في مصر يعمـل بكل نشاط في خدمـة الثورة وهــو ممن عرفـوا لورنس، ومما جاء في سلسلة مقالاته في مجلة «المقتطف».

«... والنقط الحساسة في حياة هذا الرجل النابغة الشاذ، تتعلق بمقدار اخلاصه لأمته من جهة ومقدار إخلاصه للعرب من جهة أخرى. ولو سألت مائة ممن جاهدوا في الثورة العربية ورأوا لورنس في ميدان الحرب وساحة السلم، لقال تسعة وتسعون منهم انه غير مخلص إلا لأمته».

فائز الغصين

أحد مشايخ عرب جبل الدروز. خريج جامعة استانبول سكـرتير فيصـل خلال الثـورة وعضو في الهيئـة التي رافقته إلى مؤتمـر الصلح. جاء في مذكراته على ذكر لورنس فامتدح جرأته وثقافته وإخلاصه للعرب. وذكر أن الرحلتين اللتين زعم لورنس أنه قام بهما إلى دمشق وتدمر وبعلبك في حزيران ١٩١٧ وإلى درعـا في تشرين تلك السنة لا يمكن أن تكونا صحيحتـين وأنه يكـذب في كليهما. ويؤكد بأن لورنس لم يسر قط حافياً ولا كان بإمكانه أن يفعل ذلك. وأن اتباعه لم يكونوا يزيدون على خمسة عشر رجـلاً وكانت مهمتهم خدمته ومرافقته بأسفاره.

عودة أبو تايه

أشهر مشايخ البدو في شمال الجزيـرة العربيـة وأشجعهم. هو الذي شجع فيصل على الزحف إلى الشمال وهو الذي كـان على رأس العشـائر التي استـولت على العقبـة. كانت تـربطني بـه صداقة صميمية منذ الثورة. اجتمعت به مرة في عمان وكنت في ذلك الوقت أحد قادة الجيش العربي فيها، وكان لورنس المعتمد

البريطاني. سألت عودة عما إذا كان قد قام بزيارة صديقه لورنس فأجابني بلهجته البدوية الهادئة: «كفانا الله شر هل الشيطان الكذوب». وقد فهمت منه أنه سمع بما كان يدعيه لورنس لنفسه من الأعمال التي قامت بها المفرزة التي تحركت من الوجه وتمكنت أخيراً من الاستيلاء على العقبة، بقيادة الشريف ناصر وعودة أبو تايه. والتي سيأتي تفصيلها.

٦

لورنس والصهيونية

الصهيونية فكرة تقول بأن اليهودية ليست ديانة فقط بل هي ديانة وقومية ولا بد لكل قومية من وطن والوطن القومي لليهود هو فلسطين. ولم يكن الطريق أمام هذه الفكرة ممهداً وسهلاً بل كان مملوءاً بالعراقيل والمصاعب منذ بدايته. وبدأت هذه المصاعب باليهود أنفسهم. إن أكثرية اليهود الموزعين في شتى أنحاء العالم لم يتقبلوا الصهيونية القائلة بأنه يجب أن يكون لليهود وطن ومملكة خاصة بهم، كانت هذه الفكرة تخيفهم فيعتقدون أن اليهودي يجب أن يكون ولاؤه أولاً للدولة التي يعيش فيها وهذه لا تمنع ولاءهم ليهوديتهم. فاليهودي الألماني مثلاً ألماني أولاً ثم يهودي، أما إذا أصبح له وطن ودولة ينتسب إليها فإن الدول التي هو فيها سوف تنبذه وتعتبره غريباً عنها وليس من رعاياها ومعرضاً للطرد. وكان هرتزل مؤسس الصهيونية يعتقد أن هناك وسيلتين لتحقيق الصهيونية: أغنياء اليهود والاستعانة بدولة كبرى. وكان أكثرية أغنياء اليهود ينظرون إلى الصهيونية على أنها عمل من أعمال الإحسان. أما الدول الكبرى، فكانت روسيا لا تهتم بأمر اليهود وفرنسا غير مرتاحة لهم وترى في الصهيونية خطراً على قسم من البلاد السورية التي تعتبرها لها وإيطاليا تعتبرها خطراً على نفوذها في حوض البحر الأبيض

المتوسط وأميركا لم تكن مهتمة بالأمور التي خارج قارتها، وألمانيا ترفض التدخل، ولم يبق أمام الصهيونية سوى بريطانيا التي أبدت كل عطف عليها. وفي المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في سنة ١٨٩٧ في بال وقف (هرتزل) ليعلن لممثلي يهود العالم أن بريطانيا وبريطانيا وحدها بين دول العالم كانت هي الوحيدة التي اعترفت باليهودية قائمة بنفسها ومنفصلة عن غيرها وأن اليهود جديرون أن يكون لهم وطن ومملكة. ثم قرأ هرتزل رسالة اللورد لندسون باسم حكومة جلالته في هذا المعنى. وفي تلك الرسالة قدمت بريطانيا أراضي أوغندا لتحقيق هذا المشروع. وترفض أكثرية ساسة اليهود هذا العرض متمسكين بفلسطين التي يعتبرونها وطنهم الأصلي؛ فعادت بريطانيا فعرضت عليهم منطقة العريش في سيناء فرفضوها أيضاً باعتبارها لا تفي بحاجات الوطن القومي. وتهيأ لليهود عصبة من الرجال النشطين الأذكياء المؤمنين بالصهيونية فتغلبوا بقوة إرادتهم ومثابرتهم وحسن تدبيرهم وعزمهم على العراقيل والمصاعب التي ظهرت أمامهم منذ أول خطوة من خطواتهم. فتمكنوا من إزالتها الواحدة بعد الأخرى. لقد كانت أعمالهم منذ البداية مدروسة ومخططة لم يتركوا مجالاً فيها للارتجال وأول ما فعلوه هو تحقيقهم لفكرة ربط يهود العالم المشتتين في سائر الأنحاء ببرلمان واحد عن طريق المؤتمرات التي اجتمع الأول منها في سنة ١٨٩٧ وبذلك جمعوا أفكار اليهود وجعلوهم يشعرون بأنه أصبح لهم كيان ومرجع عالمي يسمعه العالم وهو يتكلم باسمهم وعن حقوقهم وبدأت أفكار ناشئتهم تتيقظ على الشعور بالشخصية اليهودية وبأنه لها وجود وكيان وحقوق بعد أن كانت مغمورة في أحيائها الخاصة القذرة المعتمة المنعزلة. وفي الفترة التي بين سنة ١٨٩٧ التي انعقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول وهو أول عمل قاموا به في سبيل تطبيق الفكرة الصهيونية، وسنة ١٩١٤ التي اندلعت

فيها الحرب العالمية الأولى، في فترة هذه السبع عشرة سنة حقق زعماء الصهيونية لقضيتهم ما لم يخطر لفكر إنسان إمكانية تحقيقه. لقد تمكنوا من جمع أفكار أكثرية يهود العالم وجعلوهم يشعرون بأن لهم قضية وآمالاً ووطناً وهم في طريق العودة إليه. وأن يجعلوا الرأي العام العالمي يشعر بوجودهم وبقضيتهم وتأثيرهم وأن يجلبوا أكثرية شعوب العالم إلى جانبهم بعد أن كانت تمقتهم وتحتقرهم، وأن يجعلوا أقوى وأعظم دولة في العالم في ذلك الوقت وهي بريطانيا تتبنى قضيتهم وتأخذ على عاتقها متحمسة تأمين تأسيس الوطن القومي والدولة اليهودية لهم ولم يتركوا نجاح قضيتهم معلقاً بيد غيرهم بل دعموه بعمل أساسي قاموا به بأنفسهم فتسللوا إلى الأرض التي استهدفوها لتكون وطنهم وفيها مملكتهم (فلسطين) تسللوا إليها برجالهم وأموالهم بشتى الطرق والوسائل متخطين جميع القوانين والاحتياطات التي اتخذها حكم السلطان عبدالحميد الذي منعهم من شراء الأراضي وبناء المستعمرات وربطهم بالجواز الأحمر الذي يتيح إخراجهم من فلسطين في كل حين، فتغلبوا على جميع هذه الصعوبات بجميع الوسائل الشريفة وغير الشريفة واستفادوا من فساد هذا الحكم المهترىء فاشتروا الأراضي وبنوا المستعمرات وبذروا البذور الأولى لبناء وطنهم ودولتهم. ولما كانت الجيوش البريطانية تقاتل الأتراك في سيناء وثم في الأراضي الفلسطينية وتطردهم منها كان زعماء اليهود قد مهدوا السبيل بين الدول الكبرى لقيام دولتهم فبريطانيا تتبناها وأميركا في جانبها وروسيا وايطاليا غير معترضة حتى فرنسا عدوة الصهيونية قبلت بها.

ومنذ أن أصدرت بريطانيا تصريح بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ وتعهدت بتحقيق الوطن اليهودي وجدت نفسها أمام مطامع والتزامات متناقضة مع بعضها يجب عليها تسويتها وهي أولاً تريد أن تبقى في فلسطين تتطلع منها إلى باقي أقسام

سوريا التي ستكون من حصة فرنسا وهي غير مرتاحة من وجودها فيها، منتظرة الفرصة التي تمكنها من إبعادها عنها لتبقى الجزيرة العربية كلها تحت نفوذها دون أن يكون فيها هذا الجيب تحت سيطرة فرنسا وهي تريد ثانياً القيام بالتزاماتها نحو اليهود وإبقائهم إلى جانبها مستفيدة من تضارب مصالحهم بمطامع فرنسا في سوريا ومنها فلسطين والاستفادة من النفوذ الذي أصبح لهم في أميركا للتخلص بواسطتهم من تدويل فلسطين وجعلهم منتدبين عليها. وهي ثالثاً تريد التملص من التعهدات التي التزمت فيها للعرب أصحاب البلاد والتي تتعارض مع اتفاقها مع فرنسا بمعاهدة سايكس ـ بيكو ومع التزاماتها بالوطن القومي مع اليهود. ورأت بريطانيا بأن خير وسيلة لحل هذه الالتزامات الثلاثة المتناقضة التي تورطت فيها أن توفق ما بين حلفائها العرب أصحاب البلاد الشرعيين وبين أصدقائها اليهود، وتقنعهم بأنها الدولة الفضلى لحكم فلسطين. فهي تخيف العرب بالخطر اليهودي وتخيف اليهود بالأكثرية العربية وتخيف الطرفين بوجود فرنسا المرابطة بقربهم والطامعة بفلسطين وتستعين بكليهما لانتهاز الفرصة بازاحتها عن جميع سوريا. ومنذ نهاية سنة ١٩١٧ بدأت بريطانيا مساعيها للتقريب بين اليهود والعرب فباشر الخبراء بنشاطهم واتصالاتهم بالطرفين تساعدهم بذلك اللجنة الصهيونية التي يرأسها وايزمن. وابتدأ هذا النشاط بالرسائل التي أرسلها سايكس إلى بعض زعماء العرب في تشرين الثاني ١٩١٧ يشرح لهم الفوائد التي يجنيها العرب من تفاهمهم وتعاونهم مع اليهود. ثم الرسالة التي بعث بها كلايتون إلى فيصل في كانون الأول ١٩١٧ بهذا المعنى. ثم اجتماع هوغارت بالملك حسين في كانون الثاني ١٩١٨، ثم الاجتماع الذي وقع في مصر بين أعضاء جمعية الاتحاد السوري واثنين من أعضاء اللجنة الصهيونية بمساعي كلايتون، ثم الكتاب الذي أرسله

كلايتون إلى لورنس في شباط ١٩١٨ يطلب إليه فيه التحدث مع فيصل بشأن تفاهمه مع اليهود والتعاون معهم لمصلحة الطرفين، ورسالة مارك سايكس إلى فيصل التي ينصح له فيها بأن يتبع قادة العرب سياسة التفاهم والتعاون مع اليهود. وفي ربيع ١٩١٨ يمر وايزمن من مصر في طريقه إلى فلسطين ويجتمع بعدد من الزعماء السوريين بقصد تهدئتهم ولما وصل القدس عمل ستورس وكلايتون للجمع بينه وبين الزعماء الفلسطينيين حيث ألقى خطاباً طمأنهم فيه عن نوايا الصهيونيين الطيبة نحو العرب. وفي شباط ١٩١٨ وبينما كانت اللجنة الصهيونية في فلسطين ووايزمن ينزل ضيفاً معززاً على أللنبي في مقر قيادته يطلب أللنبي من لورنس أن يقترح على فيصل الاجتماع به في القدس للمذاكرة بشؤون الحركات العسكرية المقبلة ويقول لورنس بأن السبب الآخر لطلب أللنبي الاجتماع بفيصل هو لتأمين اتصال فيصل باليهود. وحيث إن هذا الاجتماع لم يقع فإن أللنبي اقترح على وايزمن أن يذهب إلى مقر فيصل ويجتمع به ويذهب وايزمن عن طريق السويس والعقبة ويجتمع بفيصل في مقره في موقع (وهيده) بتاريخ ٤ حزيران ١٩١٨. اجتهد وايزمن خلال هذا الاجتماع بإقناع فيصل بحسن نوايا اليهود والفوائد التي يمكن أن يجنيها العرب من التفاهم والاتفاق معهم وفي نطاق هذا العمل. وهذا الاجتماع الذي بدأ بين فيصل ووايزمن برز لأول مرة دور لورنس في القضية الصهيونية، فكلايتون يحرضه على مفاتحة فيصل بأمر اليهود واللنبي يطلب إليه أن يكلف فيصل للاجتماع به في القدس، ولقد كان أللنبي ـ يعتقد بأن فيصل هو الزعيم العربي الذي تتجاوز زعامته ميدان القتال فتشمل سوريا والعراق ولذلك كان اهتمامه بالتوفيق بينه وبين اليهود قوياً. وحيث إن لورنس الذي يعتبره الساسة والمعنيون بقضايا العرب الخبير بالثورة وهمزة الوصل بينهم وبين فيصل فقد

أصبح من الطبيعي أن يعهد إليه ويؤخذ رأيه في جميع الشؤون المتعلقة بالأمور التي تدور حـول العرب واليهـود ـ الأمر الـذي هيأ له الاتصال بجميع الأطراف المعنية من بـريطانيـين وعرب ويهود والوقوف على وجهة نظر كـل منهم. وكان بطبيعـة الحال الترجمان وكاتب الرسائل في الاجتماعات التي وقعت بين فيصل واليهـود أكانت مـع وايزمن أو غـيره فيما بعـد. ولم يعرف عن لورنس قبل ذلك أية علاقة سابقة له بالصهيونية سوى ما كتبـه في سنـة ١٩٠٩ عندمـا كان يتجـول في أنحاء سـوريا وذلـك في رسالة أرسلهـا لأمه عن إعجـابه بـالمستعمرات اليهـودية التي كـانت قائمـة بالقـرب من خيام البـدو المنصوبـة بتلك الأراضي المهملة. ويظهر أن اليهود قد وجدوا بلورنس الشخص الـوحيد المهيأ لتأمين الاتصال بينهم وبين فيصل قـد وجدوا فيـه أيضاً الشخص الفاهم لقضيتهم والملائم لهـذا العمل. كمـا وجد فيـه فيصل الصديق والمستشـار والمترجم. وعنـدما شخص فيصـل بعد ذلك إلى الغرب وجد فيـه علاوة عـلى ذلك المـرشد الـوحيد الذي يعرفه على الوضع السياسي الذي كان فيصل قليل الخبرة به وبرجال السياسة الذين لم يكن له سابق معرفة بهم. وهكـذا تهيأت ـ للورنس كل المعلومات عن القضية الصهيونية وعلاقتها بالعرب وأصبح في مصاف الذين يؤخذ رأيهم من البـريطانيـين ذوي المكانة الممتازة العاملين في القضية العربية أمثال ستورس وكـلايتون وهـوغارت. وفي الاجتمـاع الذي هيـأه لـورنس بـين فيصل ووايزمن كان لورنس يقوم بالنسبـة لوايـزمن بالتـرجمة وأما بالنسبة لفيصل فكان ترجماناً ومستشاراً لأن لا فيصل ولا أحـد من معاونيـه كـان يحسن التكلم بـالإنكليـزيـة. ويتجـدد اجتماع فيصل بوايزمن مـرة أخرى بعـد ذلك بستـة شهور في لندن بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩١٨، وكان فيصل تحت ضغط قلق نفساني من جراء موقف فرنسا السلبي منه وعدم اعترافها به بصفة رسمية، ولم يكن لا فيصل ولا أحد ممن رافقوه حـين

ذاك يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنكليزية فعاد لورنس في هذا الاجتماع أيضاً ليكون الترجمان والمستشار والصديق ورفيق السلاح. في هذه الظروف وتحت حكم هذا الموقف وباسم الحكومة البريطانية قام لورنس بإقناع فيصل بالاجتماع بوايزمن وبأن الحكمة تقضي عليه الآن أن يستعين باليهود لمقاومة فرنسا. وينجح لورنس ليس بإقناع فيصل بالاجتماع بوايزمن فقط بل بتعبئة ذهنه بوجهة النظر البريطانية وبأنها صديقة العرب وبأن فرنسا عدوتهم، كما أقنعه بفوائد التعاون مع اليهود وبالتهويل بقدرتهم على التأثير في موقف الأميركان ونفوذهم عند الرئيس ولسن ـ وبأن القضية العربية يمكن أن تتحسن على يده. ويتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها فيصل إلى أبيه بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩١٨[١]، أن الاتفاقية التي وقع عليها فيصل ووايزمن بنتيجة هذا الاجتماع والتي عرفت باسم (اتفاقية فيصل ـ وايزمن) والتي هول لها المهولون لم تكن تحتوي ما يخالف المذكرة التي قدمها فيصل إلى مؤتمر السلم بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩١٩ باستقلال العرب، بدليل ما أضافه فيصل عليها بخط يده وتوقيعه بأنه يوافق على التعاون مع اليهود إذا نال العرب استقلالهم. وتثبت ذلك الرسالة الجوابية التي أرسلها فيصل إلى الحكومة البريطانية عندما أبلغوه مقررات مؤتمر سان ريمو حيث جاء فيها (وفيما يتعلق بمسألة رضاي عن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فإنني اعتقد أن هناك سوء فهم أن كل ما وافقت عليه هو أن أحمي حقوق اليهود المقيمين في تلك البلاد بمستوى المحافظة على حقوق السكان العرب الوطنيين، وأن أمنحهم الحقوق والامتيازات نفسها. وقامت الحكومة البريطانية بتشكيل لجنة من كبار المشتغلين بالأمور السياسية المتعلقة بالشرق للبحث عن

(١) سليمان موسى في الحركة العربية ص (٤٣٨: ـ٢)

تسوية ملائمة للقضايا المعقدة المتعلقة بالبلاد العربية وعن أجدر الطرق التي يجب على الحكومة البريطانية اتباعها لحفظ المصالح البريطانية والتوصل مع فرنسا إلى حل ملائم للوضع الناشىء عن اتفاقية سايكس ـ بيكو والتزاماتها لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، والتوصل مع العرب إلى تسوية. وفي الاجتماع الذي عقدته هذه اللجنة بتاريخ ٢٩/ تشرين الأول/ ١٩١٨ كان لورنس قد أصبح أحد أعضائها، ويرحب به كرزن وزير الخارجية الذي كان يترأس هذا الاجتماع ويطلب إليه رأيه في وجهة نظر الزعماء العرب حول تسوية قضايا المناطق المحتلة ـ وتكلم لورنس ثم أردف أقواله بمذكرة قدمها بعد ذلك بخمسة أيام شرح فيها الموقف العربي من جميع نواحيه وبين اقتراحاته حول الحلول الملائمة بعد ملاحظة الالتزامات التي ربطت بريطانيا نفسها بها مع العرب والجهود المخلصة التي قدموها في الحرب والنتائج الباهرة التي حققوها. بعد كل الذي ذكرناه عن الخدمات التي قدمها لورنس إلى فيصل ووقوفه بجانبه خلال وجوده في الغرب وخلال مؤتمر الصلح ومن أقواله في اللجنة الشرقية في مصلحة العرب ودفاعاً عنهم هل نعتبر أن لورنس كان صديقاً للعرب ومخلصاً لهم؟ أم أنه كان مخادعاً يعمل للترويج للصهيونية ضمن المصلحة البريطانية؟ أم كان مستقل الرأي؟

ماذا كانت حقيقة لورنس في هذه المتناقضات بالنسبة للعرب؟ إذا نظرنا إلى ذلك من خلال النتائج التي وقعت نجد أنه لم يكن أكثر من قطعة صغيرة جداً في داخل تلك الآلة الجبارة التي تسمى بريطانيا. لقد كانت هذه الآلة سائرة بخطوات قوية ورتيبة نحو غاية وأهداف استعمارية معينة، وكل هذه القطع الصغيرة التي ضمنها أكانت إنكليزية أو غير إنكليزية فإنها سائرة معها وهكذا لورنس وغير لورنس ممن عملوا خلال

الحرب في الساحة العربيـة أكانـوا من المنصفين للعـرب أو غير المنصفين فإنهم عملوا ضمن المصلحة البريطانيـة التي تدخـل فيهـا المصلحة اليهـودية والتي وصلت في النهـايـة إلى تمـزيق البلاد العربية. وإذا أردنا الانصاف نرى أن لـورنس كإنسـان لا بد أنه كان متأثـراً بتلك السنـين الطويلـة التي قضاهـا بين العـرب قبل الحـرب وخلالهـا وتعرف عـلى ما فيهم من مـزايـا الاخلاص والطيبة والبساطة والشجـاعة وقـدر الخدمـات التي قدموها بكل حماس للقضية التي اعتبروها مشتركة بينهم وبين بريطانيا. ولا بد أنه كان متأثراً بكل ذلك بدليل ما ظهر منه من شعـور طيب وتمنيات حسنـة للعرب ومنهـا ما أبـداه في اللجنة الشرقيـة. ولكن كـل هـذا ممـا أبـداه هـو أو غـيره من بعض البريطانيـين الذين كـانوا يتمنـون بعض الخير للعـرب لم يغير شيئاً في الخطة البريطانية التي كانت سائرة في طـريق استعمار العرب وعدم الإفساح في المجال أمـامهم للوصـول إلى آمالهم في الحرية والاستقلال. وفي النتيجة نجد أن لورنس كان في خدمـة الصـهيونية التي لم يدع ميله لها وكان إحدى الأدوات العاملـة التي اشتركت في تهديم العرب بالرغم من ادعائه حبهم.

٧

لورنس في الثورة

عندما وضع لورنس قدمه في الأراضي الحجازية لأول مرة في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر ١٩١٦) كان قد مضى على قيام الثورة (في ١٠ حزيران/يونيو ١٩١٦) أربعة أشهر وستة أيام. وقد كان لورنس في حينها لا يزال ضابطاً صغيراً في المخابرات لا شأن له وليس معروفاً إلّا من رؤسائه، وهذا ما يوضح بصورة لا يدخل إليها الشك عدم صحة ما نسب إلى لورنس من أنه كانت له يد في قيام الثورة والمفاوضات التي جرت من أجلها. فعلاقة لورنس بالثورة بدأت من التاريخ الذي ذكرناه عن وصوله إلى جدة بمعية ستورس. وقد ذكر لورنس ذلك في الصفحة ٥٥٢ من كتابه إذ قال:

«لم يكن لي أية علاقة بالثورة عند نشوئها».

كانت أحوال الثورة في هذا الوقت الذي نتكلم عنه لا تزال في بدايتها مشوشة وغير مستقرة، وكانت المبادرة لا تزال بيد الجيش التركي المرابط في أطراف المدينة، وهو يستهدف استرجاع مكة والمدن الأخرى التي استولى عليها العرب، تارة يهاجم جيش الأمير علي وتارة جيش الأمير فيصل فيجرفه أمامه حتى قرب البحر، وكان الحسين كما ذكرنا يلح على الإنكليز بطلب طائرات وإنزال جيش نظامي في رابغ من قطعاتهم

المسلمة، كما يطلب الافساح في المجال أمام المتطوعين ممن هم في معسكرات الأسر للالتحاق بالثورة وتأمين ما يحتاجون إليه من أسلحة ومهمات. وأمام هذا الالحاح الذي وصل إلى درجة التهديد فكر المسؤولون الإنكليز بعد المذاكرة مع الحسين وقادته من الأمراء بمعالجة أمور الثورة معالجة موضوعية على ضوء الواقع، وذلك بإرسال مسؤول من الدرجة الأولى، ووقع الاختيار للقيام بهذه المهمة على ستورس الذي ألقيت على عاتقه شؤون الثورة منذ بدايتها. وبلغ ستورس وبرفقته هوغارت ولورنس جدة كما ذكرنا وعقدوا اجتماعهم الأول بالأمير عبدالله الذي انتدبه والده بالنيابة عنه وبصفته وكيلاً للخارجية في دار المعتمد البريطاني ولسن.

زعم لورنس في نهاية الفصل السابع من كتاب الأعمدة أن مرافقته لستورس لم تكن لمهمة كلف القيام بها، بل كانت عبارة عن إجازة لم يكلفه بها أحد حيث يقول:

> «وأخيراً علمت أن ستورس ينوي السفر إلى جدة، فاغتنمت هذه الفرصة السانحة وطلبت ترخيصاً لمدة عشرة أيام لمرافقته ومباحثته في بعض الأمور. وما كان الطلب يصل إلى رئيسي حتى وافق عليه... إلخ».

فإذا قرأنا في الفصل الثامن ما كتبه لورنس في وصف هذا الاجتماع يأخذنا العجب، أكان في الحقيقة في إجازة أم هو عضو في تلك البعثة؟ فمجرى المحادثات وواقع الأمور التي أعقبت المحادثات برهنت عما سبق وذكرناه بأن لورنس كان عضواً في هذه البعثة انتخبه ستورس ليقوم بإتمام مهمتها في المذاكرة مع الأمير فيصل بسبب قابليته لركوب الجمال للوصول إلى معسكره.

يصف لورنس لقاءه الأول بالأمير عبدالله بقوله:

«كان العرب يعتقدون أن عبدالله رجل دولة بعيد النظر وسياسي داهية. والحق أنه كان داهية. ولكن لم يبلغ دهاؤه ما قيل عنه. وقد صنعت منه الإشاعات العقل المفكر لأبيه والثورة العربية، وفي الواقع كان دون ما صنعته الإشاعات رتبة ومركزاً».

إلى أن قال:

«وكانت شكوكي تتجمع في قناعتي بأن ما ينقص الثورة هو الزعامة لا المواهب العقلية أو الحكمة السياسية. وبكلمة أخرى كان ينقصها شعلة الحماس التي تلهب الصحراء وتحيلها ناراً متقدة. وكنت كلما امتد بنا الحديث مع عبدالله ازددت يقينا بأن عبدالله بمنطقه القوي وبرودته الجليدية ومزاحه المفرط لا يصلح لأن يكون ذلك القائد الملهم».

لقد أبدى لورنس هذا الوصف في الساعات الأولى من اجتماعه بالأمير عبدالله من غير أن يكون له سابق معرفة به ويقول أيضاً إنه أثناء الاجتماع رد على حديث الأمير بخصوص الطلبات التي بينها فقال له:

«انني سأنقل آراءك إلى مصر، ولكنني أحب أولاً أن أزور فيصل وأشاهد الموقف بنفسي».

ثم يقول:

«وعندئذ ايدني ستورس فيما قلت، مؤكداً أهمية المعلومات التي يمكن أن ينقلها مراقب مدرب إلى القائد البريطاني العام في مصر».

ونلاحظ أن لهجة لورنس وكلامه هذا الذي ادعى قوله بحضور السكرتير الشرقي ستورس كان أكبر من رتبته ومركزه. ولكن سيزول منا العجب إذا تذكرنا أن هذا الكلام وأمثاله مما سنقرأه كتب بعد تسع سنوات، تحت تأثير الأفكار والحوادث التي تلتها، وبعد أن زالت عنه الصفة الرسمية التي تمسك بعنانه وتمنعه من الاسترسال في قول ما كان وما لم يكن، وبعد أن رفعته الدعايات الهائلة ووضعته على قمة الشهرة التي حالت بينه وبين التفكير في الاعتبارات الرادعة.

على كل حال إن لورنس حضر اجتماع الأمير عبدالله واشترك في مذاكراته. ويوافق الأمير بعد تردد على السماح للورنس بـزيارة معسكر الأمير فيصل. ويبحر ستورس ومعه عزيز علـي المصري ولورنس من جدة إلى رابغ فيعقدون هنـاك مؤتمراً مـع الأميرين علي وزيد، ويعود ستورس بعد ذلك إلى مصر، ويرتب الأمير علي، على مضض منه، أمر سفر لورنس إلى معسكر فيصـل. فيسفره ليلاً كي لا يراه البـدو ويعطي تعليماتـه إلى من رافقوا لـورنس من الحراس أن لا يسمحوا له بالاختلاط بأحد.

ويصف لـورنس أول اجتمـاع لـه مـع الأمـير فيصـل في وادي الصفراء بقوله:

> ««وقادني العبد إلى داخل الباحة ومنها إلى قاعة كبيرة، فدخلت إليها لأشاهد شخصاً طويلاً أبيض، يقف إلى جانب باب أسود ينتظر وصولي بلهفة وشوق. وما كاد نظري يقع عليه حتى أيقنت أن هذا هو الشخص الذي جئت بلاد العرب لأبحث عنه. وآمنت بأنه هو الزعيم الذي سيسير بالثورة العربية إلى هدفها المنشود».

وهنا نعيد القول أيضاً أن هذه الفكرة السريعة التي كونهـا عن فيصل قبل أن يجتمع به ليست سوى الأفكار التي تكونت عنده خلال تسع سنوات مقبلة. لـورنس وصّاف بـارع، لقد أتبـع في سرد قصته في الثورة أسلوباً في غاية السلاسة والبـراعة. فهـو يـأخذ الحـادث الحقيقي كـأسـاس ثم يضعـه في قـالب روائي بـأسلوبـه الشيق البليغ، فيضيف إليـه من خيالـه الخصب ما أراد إلى أن يصبح بعيداً عن الحقيقة التي بني عليها، فيأخذها القارىء وكأنها الحقيقة التي لا ريب فيها.

كاتب هذه الأسطر يعرف وادي الصفـراء الذي مـر به لـورنس أثناء ذهابه إلى معسكر فيصل والذي وصفه في كتابه بنحو عشر صفحـات وعرف كـذلك قـرية حمـره التي يقـول بـأن فيصـل استقبله فيها، هي عبارة عن أكواخ صغـيرة من اللبن سقوفهـا

من جريد النخـل، وليس فيها أي منـزل طويـل (كما يقـول) له باحة وقاعة وباب ذو مصراعين، لقـد كان لـلأمراء وحـواشيهم وللضباط وحتى للجنود خيام ينصبونها في معسكرات بعيدة عن القـرى والمدن. وقـد كانت الثـورة في ذلـك الـوقت في بـدايتهـا ورجـالها من البـدو، والبدو كمـا هو معلـوم يأنفـون من سكنى البيوت، فلهذه الأسبـاب ليس من المعقول أن يكـون فيصل قـد استقبل لورنس على تلك الصورة التي بيَّنها.

نقول ذلك اثباتاً لما ذكرناه وتنبيهاً للقارىء ونحن لا نزال في أول طريقنا مع لورنس، أن لا يأخذ كل ما يقوله عـلى أنه الحقيقـة، لأن أقواله في أغلب الأحيان تكون مزركشة ومـرصعة بـالألوان الزاهية التي لا يربطها بالحقيقة سوى خيط رفيع ربما أضاعته على القارىء البلاغة والوصف البديع.

بقي لورنس في معسكر فيصـل يومـاً واحداً وجـد نفسه خـلاله أكثر حريـة وانطلاقـاً. بالنسبـة لمعسكر الأمـير علي لم يجتمـع بفيصل خلال وجوده في معسكره أكثر من مرتـين، وقد اقتصرت محادثاته مع فيصل والتي شرحها في كتابه بصـورة مطولـة على أمرين وهما:

الأول: تحبيـذ فكرة فيصـل بتطلعـه إلى القتـال نحـو الشمـال والأمل في إمداده بالأسلحة والمهمات. والثاني: جعل ميناء ينبع القاعدة لتموين جيشه، كما كانت رابـغ القاعـدة لتموين جيش علي. إن هذين الأمرين كانا يوضحان مهمة لـورنس التي أرسل من أجلهـا لمعسكر فيصـل. نرى من ظـواهر هـذه المهمة أنهـا بسيطـة لا تحتـاج إلى إرســال شخص من أجلهـا، وكـان من الممكن تبليغهـا بواسطـة الملـك حسـين نفسـه، ولكن قـواعـد المخابرات كانت تستلزم الاتصال الشخصي بفيصل والإيحاء له بأن هناك اهتماماً خاصاً بجيشـه. وتعريفـه على هـذا الرسـول الذي سيكون واسطة الاتصال بينه وبينهم.

أنهى لورنس مهمته وتوجه إلى ميناء ينبع وخلال الأيام الأربعة التي انتظر فيها الباخرة التي ستنقله إلى جدة ومنها إلى السويس، كتب تقريره عن المهمة التي أرسل من أجلها وركب الباخرة إلى جدة وهناك وجد السفينة الحربية (يورال) وعلى ظهرها أميرال البحر (ويمس) الذي كان يقصد السودان في زيارة لحاكمها الذي هو في الوقت نفسه سردار (قائد) الجيش المصري الجنرال (ريجنالد ونجيت). وكان لريجنالد رأي ومشاركة في التحضير لقيام الثورة وكان ممن يؤيدون قيامها واستمرارها. وقد أوكل إليه أمر إدارة الشؤون العسكرية المتعلقة بها.

وهنا قام لورنس بأول عمل من أعماله الانتهازية خلال الثورة. فبدل أن يركب الباخرة المتوجهة إلى السويس، توجه إلى الاميرال طالباً إليه أن يسمح له بالسفر إلى السودان، وفي الخرطوم اطلع الجنرال ريجنالد على التقارير التي وضعها عن الثورة والتي استقاها من الاجتماعات والأفكار والقراءات التي تجمعت له من اجتماعات جدة ورابغ ثم من اجتماعه بفيصل فوضعها بتقريره بأسلوبه البارع وكأنها من بنات أفكاره، وتعمد بصورة خاصة أن يظهر نفسه وكأنه هو الذي حل المشكلة الأولى التي كان الحسين يلح بطلبها والتي اختلف الإنكليز أنفسهم حولها، وهي إنزال قوة إنكليزية في رابغ. وقد بيّن لورنس بتقريره ضررها.

يقول لورنس: إن ريجنالد سر من نظرته المتفائلة عن الثورة التي كان ريجنالد متحمساً لها وهناك علم أن السير مكماهون قد أعفي من منصبه وعيّن بدلاً عنه السير ريجنالد. إن الدلائل تجعلنا نظن أن لورنس علم بتعيين ريجنالد خلال وجوده في جدة فانتهز هذه الفرصة للاجتماع به مباشرة وليعرفه على

شخصه ويطلعه على فحوى تقريره وعن تفاؤله بالثورة التي كان ريجنالد من المتحمسين لها.

يعود لورنس إلى القاهرة ويقدم تقريره إلى رئيسه كلايتون الذي رفعه بدوره إلى القائد العام، يقول لورنس:

«وقد سر كلايتون لآرائي التي تقول بأن العشائر تستطيع أن تدافع عن رابغ لمدة شهور طويلة إذا أعطيت المدافع والأسلحة وبذل لقادتها الارشاد والنصح. وأنه من الخير أن نترك لها ذلك، لأنها ستنسحب إلى مضاربها حالما تسمع بنزول قوات أجنبية إلى بلادها. وحمل مذكرتي إلى السير (أرشبالد موري) القائد العام البريطاني في مصر الذي أعجب بعنفها، فأبرق هذا بها كاملة كدليل على أن الخبراء البريطانيين الذين ينصحون بحرمانه قوة عسكرية ثمينة هو في مسيس الحاجة إليها، منقسمون على أنفسهم في هذا الموضوع».

وينجح لورنس بما قصد إليه بإظهار نفسه للمقامات العليا ويستدعيه القائد العام. ويحدثه رئيس الأركان عن الأهمية التي كانت لتقريره عن فيصل وجيشه، وعن أمله في عودته إلى الجزيرة العربية ليتابع ما بدأ به بنجاح.

وينجح لورنس في تمثيل الدور الذي مثله في الخرطوم والقاهرة خير نجاح، فيرضي المندوب السامي ويرضي القائد العام ورئيس أركانه الجنرال (ليندل بل) والسير ستورس ورئيسه كلايتون وهوغارت، فيقررون نقله من ملاك الاستخبارات العسكرية إلى ملاك الاستخبارات التابعة لوزارة الخارجية (المكتب العربي) ويعيّن ضابطاً للإرتباط في جيش فيصل.

ويدَّعي لورنس أنه لم يقبل بهذه المهمة إلا بعد أن قال له كلايتون:

«علينا نحن أن نربط الأمير فيصل سريعاً بنا. وأن نؤمن له الإمدادات التي يطلبها».

وفي ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ عاد لورنس إلى ينبع، وقد أصبحت قاعدة للإمدادات الخاصة بجيش فيصل. ومنها توجه إلى ينبع النخل حيث كان فيصل قد وصلها بسبب هجوم قام به الأتراك على جيشه في وادي الصفراء.

وهناك اجتمع بفيصل وأخبره بما وفق إليه من جعل ينبع قاعدة لجيشه، وأن الإمدادات في طريقها إليه. وبطبيعة الحال اعتبر فيصل كل ذلك من جهود لورنس ونفوذه، فعلت مكانته عنده فأهداه بعض الملابس مما يرتديه الحجازيون مع كوفية وعقال مقصب وخنجر ذهبي، ليرتديها في معسكره لتسهيل أمر دخوله عليه دون أن يجلب الأنظار بملابسه العسكرية. ويستعمل لورنس ذكاءه مستفيداً من هذا المجال الذي انفتح أمامه بسبب الموقف الحرج الذي كان فيه جيش فيصل ومن طبعه الهادىء السمح، فأسرع ليتجاوز مركزه كضابط اتصال ويضع نفسه بمقام المستشار، وبدأ يستعمل في تقاريره كلمة نحن التي يعني بها نفسه وفيصل ليوحي إلى قارئه أنه كان بمثابة الموجه لفيصل.

بعدما أخذ الأمير فيصل موافقة أبيه استولى في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٧ على ثغر الوجه وبدأ من هناك باتصالاته بعشائر الشمال، ثم لم تلبث سراياه أن أخذت تهاجم خطوط السكة الحديدية وفي هذه الآونة كانت المتطوعة من معتقلات الأسر البريطانية من ضباط وجنود تتوارد إلى جيشه فتشكل منهم قطعات الصنوف المختلفة من خيالة ومدفعية ومشاة وهجانة ورشاش. والتحق في هذه الآونة جعفر العسكري بصفة قائداً لجيش فيصل النظامي. وأثمرت اتصالات فيصل بعشائر الشمال وبدأ شيوخها يفدون لعرض خدماتهم، واستولت عشائر حويطات الساحل بقيادة الشريف ناصر بن علي على موقعي (ضبا ومويلح) على الساحل بين الوجه والعقبة.

كان كل ذلك استعداداً للاستيلاء على ميناء العقبة وكان لورنس خلال هذه المدة ينتقل بين الوجه والقاهرة من أجل استكمال الإمدادات اللازمة لهذا الزحف.

قبل وصول لورنس إلى جيش فيصل كان قد ألحق به الميجر (نيوكمب) للعمل بتخريبات الخط الحديدي بواسطة المفرقعات التي لم يتدرب العرب بعد على استعمالها، وهو أقدم الضباط الإنكليز الذين التحقوا بالثورة من بدايتها، وأكثرهم خبرة بالبلاد العربية ومن قدماء منتسبي المخابرات، وهو الذي ذكرنا أن كتشنر قد عهد إليه في مسح شبه جزيرة سيناء قبل الحرب. لقد كان لورنس خلال وجوده في جيش فيصل في الوجه تابعاً للميجر نيوكمب يأتمر بأوامره بصفته ضابط مخابرات أو ضابط ارتباط.

كانت هاتان الصفتان تتطلبان من لورنس الوقوف على حالة الجيش وإعطاء مرجعه في القاهرة تقارير عنه مع بيان مطالعاته واقتراحاته، وأن يكون على صلة وثيقة بالقيادة العسكرية البريطانية وبالأمير، ليكون صلة الوصل بينهما وأن يعمل بصورة لبقة، وغير مباشرة بالسعي لجعل أعمالهم لا تتجاوز الخطط المقررة. بدأت معرفة لورنس بالبدو منذ التحاقه بجيش فيصل، لا كما يتوهم الكثيرون أنه عرفهم منذ ما قبل الحرب عندما كان يتجول في سوريا، خلال وجوده في حفريات كركميش. لقد كان البدو الرحل في ذلك الوقت لا يقيمون بجوار القرى، بل يمرون بها خلال تشريقهم نحو البوادي في أواخر فصل الخريف طلباً للكلأ، وفي تغريبهم في فصل الصيف عندما تنضب في البوادي مياه الغدران وتقل المراعي.

كان في أطراف القرى جماعات صغيرة متفرقة تعيش في الخيام، لا هم فلاحون يسكنون البيوت فينقادون إلى القوانين والأعراف السائدة، ولا هم بدو يرحلون إلى البادية مشرقين ومغربين،

مـرتبطين بقـوانين البـدو وأعرافهم، فهؤلاء هم أنصـاف البدو الذين تعرف إليهم لـورنس. إن أصل هؤلاء من البـدو الرحـل الذين يغريهم العمـل والحياة الـريفية أثنـاء مرورهم من قـرب المعمورة فيتخلف بعض أفرادهم لينصبوا خيامهم قـرب القرى فيخرجوا تدريجياً من بداوتهم. وخلال جيل أو أكثر يصبحـون قـرويـين. هـذه هي العمليـة التي سميت بمـوجـات الهجـرات الصغيرة التي تدفع بها الجزيرة العربية إلى مناطق هجراتها في الهلال الخصيب استمراراً في تغذيتها بدم عربي صـاف لتبقى هذه المناطق عـربية بلحمهـا ودمها كمـا هو الـواقع منـذ ألوف السنين. تمر هذه الجماعات بفترة صعبـة جداً خـلال انتقالهـا من حياة البداوة إلى الحياة القروية التي تفقد أثناءها تـدريجياً الكثير من أخلاقها وطبائعها البدوية المتأصلة، كالأنفة والكبرياء والحرية وبساطة القول، والصدق والعفـة والغيرة عـلى العرض والمتاع والرابطة القبلية بقوانينها وأعرافها وغـيرها من أخـلاق البداوة، بينما لم تتعود بعد حياة القرى ولا تقاليدها ولا قوانين الدولة ومتطلبات أنظمتها، فيغلب عليهم في فتـرة هذا الانتقـال الصعبة وهم جماعات صغيرة تتكون غالباً من أسرة أو أسرتين، المسكنة والضياع الخلقي، لأنهم فقراء.

بدأت هذه الموجات بالتلاشي منذ بدايـة الربـع الثاني من هـذا القـرن، ونكاد أن نعتبـرها منقطعـة في وقتنا الحـاضر، ويرجـع السبب في هذا التحول إلى عدة أمور هامة، كان لها أعظم الأثـر في تحويل شكل الحياة في الجـزيرة وأطـرافها، أهمهـا الوحـدة التي حققها عبد العزيز بن سعود في قلب الجزيرة العربية التي تحتوي على أكبر القبائل العربيـة الرحـل كحرب وعنـزه ومطير وجهينـة وعقيل وغـيرهم وتمكنه من منعهـا عن التنقل والغـزو، وإجبارها على الاستيطان في الـواحات وفيمـا يسمونـه (الهجر) لتعمل في المزارعة، فتوقف بسبب ذلـك الانسياب التقليـدي إلى

مناطق الهلال الخصيب وحصل هذا التحول الذي ذكرناه.

والأمر المهم الثاني الذي حصل هو استيطان القبائل الرحل المتجولة أصلاً في مناطق الهلال الخصيب كشمر وربيعة وبني لام وغيرهم في العراق والرولة وعنزه والحويطات وبني صخر وبني حسن وغيرهم في الشام وتمكن الحكومات من السيطرة عليهم ومنعهم من الغزو والتعديات التي كانوا يرتكبونها أثناء مرورهم بين القرى، وتسهيل أمر استقرارهم والعمل في الزراعة. وخلال الثلاثين سنة الماضية جرى اندماجهم في المجتمع الحضاري وأصبح منهم الوزراء والنواب والموظفون والضباط والأطباء والمهندسون ويعتبر هذا التحول بهذه الفترة القصيرة من أعجب التحولات السريعة في التاريخ.

أيصبح هذا التوقف الذي ذكرناه سبباً لانقطاع تسرب الموجات من داخل الجزيرة إلى أطرافها؟ وهل يقف هذا الشريان نهائياً عن تغذية أطراف الجزيرة بدماء عربية نقية جديدة؟ لا نظن ذلك! بل نعتقد أنها ستستأنف انسيابها بطريقة أفضل، فالازدهار الاقتصادي والعمراني والعلمي السريع الذي حصل من جراء تدفق الأموال بسبب اكتشاف البترول في الجزيرة قد غير شكل الحياة في أكثر انحائها وجعلها تعيش في بحبوحة ظاهرة من العيش لم تعرف لها مثيلاً. وحيث إن الشام والعراق هما منذ أقدم العصور وإلى وقتنا هذا أهم المصادر لتأمين حاجات الجزيرة العربية، وبما أن موانىء الشام على البحر الأبيض المتوسط (بحر العالم) كانت ولا تزال هي الموانىء الطبيعية لها، وحيث إن طقس الشام المعتدل في مناطقها الجبلية الجميلة ومناظرها الخلابة ومنخفضاتها الدافئة المريحة تعتبر المصايف والمشاتي الطبيعية لسكان الجزيرة. فعندما تزول هذه الخلافات غير الطبيعية القائمة الآن بين بعض دولها، وتقدر المصالح المشتركة بينها على حقيقة قدرها، وتتجه نحو

الـوحدة الحقيقيـة سنجد أن تلـك المـوجـات القـوميـة عـادت لاستئناف تدفقها بعد هـذا التوقف القصـير، ولكن على طـريقة جديدة بصورة تجار ورجـال أعمال ومـلاكين وأصحـاب مزارع ومتقاعدين يسكنون المدن والمصايف الشامية والعراقية بصورة دائمة. فتكثر العلاقات التجارية والصناعية، ويـزداد الاختلاط والمصاهرات أخذاً وعطاءً، وهكـذا ستصبح تلـك الموجـات أكثر فائدة في عمليـة المزج من خـلال مدهـا من داخل الجـزيرة إلى أطرافها وفي جزرها نحو الداخل.

٨

زيُّه العربي

منذ أهدى الأمير فيصل لورنس الملابس العربية وهو لا يكاد يرتدي سواها طيلة وجوده في الثورة وعاد إلى ارتدائها في لندن خلال التحاقه بحاشية فيصل كترجمان، لقد وجد هذا الزي هوى في نفس لورنس لا من أجل تسهيل أمر وصوله إلى فيصل كما ادعى ذلك، بل لأنه فتح أمامه أبواباً كثيرة كانت مغلقة في وجه كل أجنبي، وأزال عن طريقه الصعوبات التي كانت تقف بين المجتمع البدوي وبين كل أجنبي سواء أكان هذا الأجنبي عضواً في بعثة تنقيب عن الآثار أو مستشرقاً أو غير ذلك، كما أزال عنه تلك الرهبة التي كانت منتصبة أمام كل من كان يحاول الاقتراب من الجزيرة العربية وسكانها.

وبصرف النظر عن كونها الملابس الوحيدة الملائمة لحياة البوادي في قيظها وشتائها وفي ركوب الهجين والجمال فإنها حققت له ما في نفسه من حب الظهور ولفت الأنظار وممارسة التمثيل.

إن إهداء فيصل إلى لورنس ملابس ليس بالأمر الغريب وليس من الأمور التي خصَّ بها لورنس، فمن تقاليد الأمراء أن يهدوا بعض ضيوفهم أسلحة أو بعض الألبسة والمتاع كترحيب بهم وكثيراً ما كانوا يهدون أحد المتفوقين في إحدى المعارك حصاناً

أو هجيناً أو بندقية أو غيرها. ولكنه لم يسبق لأحد الأمراء أن أهدى شيئاً من ذلك إلى أحد أعضاء البعثة، لسبب عدم رغبتهم بتبديل زيهم العسكري بزي آخر، ولورنس على ما يظهر هو الذي طلب إلى فيصل أن يهديه تلك الملابس ويسمح له بارتدائها في معسكره، فأجاب فيصل طلبه.

لقد بنيت شهرة لورنس على اختلاطه بالبدو ومشاركته لهم في حياتهم الخاصة وحروبهم وبصرف النظر عن كونها صحيحة، أو مبالغاً فيها، فإنها تركزت وأعطيت لها هذه الصفة من خلال هذه الملابس وتلك الناقة التي يركبها.

ومما حبب لورنس بهذه الملابس كونها الملابس الوحيدة الملائمة لركوب الهجين التي لا بد لمن يريد التجول في البادية من ركوبها، وكذلك هي الوحيدة الملائمة لطقسها، كما سهلت له أمر الاختلاط بالبدو دون حذر. وأهم من كل ذلك هي الغاية التي اشتهر بها ووفق في الوصول إليها كل التوفيق ألا وهي جذب انتباه الإنكليز، من رؤساء وقادة مدنيين وعسكريين. فهم ينظرون إليه بإعجاب وتقدير كلما شاهدوه يرتدي تلك الملابس الغريبة متمنطقاً بذلك الخنجر الذهبي المعقوف، وعلى رأسه العقال المقصب كأنه تاج على رأس أحد ملوك ألف ليلة وليلة أو أمير من أمراء الصحراء.

من الطبيعي بعد ذلك أن يصدقوه بكل ما يحدثهم عنه من الأعمال التي قام بها والتي يحسن سكبها بالأسلوب الذي يدغدغ به ما اختزنوه في مخيلتهم من القصص التي قرأوها عن الشرق والشرقيين.

لقد ارتدى لورنس حسب قوله، الملابس المحلية عندما كان يتجول بين المدن السورية. والملابس المحلية في سوريا تختلف كثيراً بين منطقة وأخرى، أو مدينة ومدينة، أما زي أولئك البدو

الذين كانوا يخيمون بالقرب من حفريات كركميش والذين صادقهم لورنس وانتخب منهم صديقيه داحوم وحمودي، فهو زي أنصاف البدو الذين كانوا يضربون خيامهم قرب القرى والمحلات التي يجدون فيها عملاً. فهذا الزي خليط من الزي البدوي وزي القرويين. إذاً الملابس التي كان يرتديها لورنس في سوريا كانت تختلف شكلاً ومعنى عن الملابس التي أهداها إليه فيصل، إنها وإن جعلته شبيهاً برجال حاشية الأمير أو عبيده، إنما لم تخفِ إنكليزيته عن أحد. وأهم ما ميّزته به هذه الملابس هو الإيحاء بأنه من المقربين إلى الأمير وتحت حمايته وهذه كانت تعتبر بتلك الظروف والأحوال ميزة ومناعة قوية ضد أي خطر يتعرض له أي أجنبي.

وذهب لورنس بالاستفادة من ملابسه إلى أكثر من ذلك، فسعى ليوهم قراءه بأنه أصبح وهو يرتدي تلك الملابس في مقام الرئاسة، إذ يقول: (وأنا إذا ما ارتديت الزي (الملكي) فإن رجال العشائر سيعاملونني كما لو انني أحد رؤسائهم)[1]. إن هذا الكلام غير صحيح، فلم يكن عند العرب في أي وقت من الأوقات زي ملكي وآخر غير ملكي. فالملابس التي كان يرتديها فيصل وأخوته وأبوه ترتدي مثلها جميع الحاشية وحتى الخدم والعبيد، ومن المعروف أن البدوي لا يعترف بالرئاسة لأحد مهما سما مقامه، حتى ولو كان ملكاً سوى رئاسة شيوخ عشيرته، ولا يحترم حرمة صادقة سوى الشجعان والأكارم من أولئك الشيوخ.

يدعي لورنس أثناء سرده لإحدى قصصه[2] أن أحد البدو قبّل يده.. وهذا غير صحيح أيضاً، فالبدوي لا يقبل يد أحد كائناً

(١) أعمدة الحكمة السبعة، ص ٨٤.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة، ص ١٨١.

من كان. من التقاليد التي كانت متبعة في الثورة تقبيل أيدي الأشراف، وهي من آداب سكان المدن المتبعة في تقبيل صغير السن ليد الأكبر منه، إلا البدو فإنهم لايقبلون يد أحد ولم يكن الأشراف يطلبون إليهم ذلك.

أما عن سيره حافي القدمين الذي ادعاه فإنه بعيد عن الحقيقة، إن سير الإنسان حافياً لا يمكن أن يكون إلا بالممارسة الطويلة جداً. فالحفاة الذين نراهم أو نسمع عنهم لا بد أن يكونوا قد مارسوا ذلك منذ الصغر أو منذ سنين طويلة، وليس هو بالأمر البسيط كما يظن من لم يجربه.

إن الحفى معناه أن يسير الإنسان واضعاً كل ثقل جسمه على قدم واحدة يتبادلها مع القدم الأخرى، ولسطح القدم جلد رقيق لا يتحمل ضغط ثقل الإنسان على ما تحته من حصى أو رمل أو صخور أو شوك، وإمكان التحمل يتطلب ممارسة طويلة حتى يتصلب جلد القدمين بحيث يغدو أشبه بخف الجمل. أقول هذا وقد مررت بتجربة ذلك أثناء التحاقي بالثورة حين سلبني البدو ملابسي وحذائي فلما أردت استئناف سيري لم اتمكن من ذلك فبركت بعد خطوات قليلة، لأنني شعرت في كل خطوة خطوتها بآلام وكأنها السكاكين تمزق جلد قدمي. مع العلم بأنني كنت أقوى من لورنس وأكثر منه ممارسة للمشاق وتحملها.

لقد كان الضباط والجنود يحتذون الجزم والأحذية العسكرية المعروفة، والمدنيون وقسم من البدو ومشايخهم ممن يركبون الخيول يحتذون الأحذية، وعندما يركبون الهجين ينتعلون ـ النعال وأما الأكثرية الباقية من البدو فهم الحفاة. والرجل عند ركوبه الدلول أو الجمل لا بد له من أن ينزع حذاءه أو نعله ويضعه في الخرج الذي تحته حيث يعود إلى لبسه عند ترجله، وهكذا كان يفعل لورنس. ولم يرَه أحد وهو حاف كما يدعي.

أما الملابس البدوية فتراها في الصورة التي اشتهرت للشيخ عودة ابو تايه، إن لورنس لم يلبسها قط كما يزعم ويظن البعض، وإنه كما قلنا كان يرتدي ملابس الحضر من سكان مدن الحجاز.

٩

الزحف نحو الشمال[١]

إن وصول عودة أبو تايه إلى الوجه وتشجيعه فيصل على الزحف إلى الشمال نقل مسألة الاستيلاء على العقبة من مرحلة الرغبة والتفكير إلى مرحلة التقرير والتخطيط والتنظيم وتوالت الاجتماعات مرتين أو ثلاث مرات في كل يوم. كانت هذه الاجتماعات سرية لا تتجاوز ستة أشخاص فيصل والشريف ناصر وعودة أبو تايه ونسيب البكري وزكي الدروبي وفائز الغصين.

وكانت الأهداف التي تترتب عليها المذاكرات ثلاثة. الأول: إيصال صوت الثورة إلى جبل الدروز القريب من دمشق، والاتصال ببعض شيوخه الموالين وتهيئته لحركات المستقبل وهو الجبل المنيع الذي ليس للأتراك سيطرة عليه، وليس لشعبه ولاء حقيقي للأتراك. الثاني: الاتصال بنوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة وهي أكبر وأقوى عشائر الشام، وبالعشائر الأخرى الممتدة على شرقي السكة الحديدية من حدود الحجاز حتى جبل الدروز لتأمين جعل تلك البيداء مفتوحة ومأمونة أمام الثورة وتجنيد ما يمكن تجنيده من رجالها. الثالث: الاستيلاء

---

(٢) اخذت تفاصيل حركات هذه الحملة من قائدها الشريف ناصر قبل وفاته بمدة قصيرة.

على العقبة الذي يعني وصول الثورة إلى الديار الشامية، وهذا ما كان يستهدفه الحسين وفيصل والإنكليز.

كان لكل من هؤلاء المجتمعين دوره في منجزات الحملة، فالشريف ناصر سيكون قائدها وممثل قائد الجيش الشمالي الأمير فيصل، وعودة أبو تايه عقيد الحملة[٢] والمقاتل الخبير بالمنطقة وعشائرها، ونسيب البكري الوجيه الدمشقي المعروف والخبير بجبل الدروز والصديق لبعض زعمائه الموالين ورسول فيصل إليهم، وزكي الدروبي ضابط ممتهن ذو خبرة بالجبل وبأحواله، وفائز الغصين وهو قاضٍ مثقف خريج الحقوق من كلية الأستانة ولكنه أحد كبار مشايخ عشائر الجبل وله خبرة واسعة بكل ما يتعلق بتلك الجبهات.

وكان الكولونيل جويز كبير ضباط البعثة البريطانية في الوجه يحضر بعض تلك الاجتماعات. أو يجتمع مع الأمير فيصل بمفرده للمذاكرة معه ببعض الأمور المتعلقة بحاجات هذه المفرزة. أما لورنس فإن الشريف ناصر نفى حضوره أي اجتماع من هذه الاجتماعات أما نسيب البكري فقد أكد ذلك وزاد عليه أنهم إذا ما كانوا في أحد مجالسهم العادية وحضر لورنس يستأذن لمقابلة فيصل فإن فيصل كان قبل دخول لورنس يقول لهم: غيّروا الحديث كي لا نشركه معنا بأي موضوع من هذا القبيل. وكان عمل لورنس في ذلك الوقت ينحصر في تأمين الاتصال بين الأمير والإنكليز لتأمين المخابرات واللوازم.

يقول الشريف ناصر: ولما كان أمر حركتنا لا بد من تسربه إلى الأتراك، وخوفاً من أن يتخذوا ترتيبات من شأنها عرقلة أعمال

---

(٢) لقب يطلقه البدو على قائد المعارك التي تجري في غزواتهم وهو غير شيخ العشيرة وقد يكون شيخاً وعقيداً في آن واحد.

الحملة فقد اقترح زكي الدروبي أن نخدع الأتراك ونجعلهم يعتقدون أننا نقصد جبل الدروز ومنه إلى أطراف دمشق فتدمر فحلب بقصد إثارة تلك الجبهات وإيصال الثورة إلى تلك الأطراف فَقُبِلَ الاقتراح.

حرر كتاب بصورة أمر موجه من الأمير فيصل إلى آمر مفرزة التخريب يأمره فيه أن يقوم بتخريب السكة الحديدية بموقع كذا وبعد ذلك يلتحق بالحملة التي ستتوجه إلى جبل الدروز فأطراف دمشق فتدمر فأطراف حمص فالشمال نحو جبهة حلب، ويأمره أن يصطحب معه ما تحتاجه هذه الحركة الطويلة من متفجرات ولوازم أخرى. وسلم هذا الكتاب إلى الميجر (نيوكمب) الذي كان على وشك الذهاب بمهمة تخريب ليؤمن وقوعه بيد الأتراك بصورة مناسبة وكأنه سقط سهواً من قبل آمر مفرزة التخريب. ونجحت الخدعة نجاحاً تاماً وقد أهمل الأتراك تقوية موقع العقبة وأرسلوا لواء إلى درعا ولواء آخر إلى تدمر.

وفكرة إرفاق مفرزة تخريب مع الحملة لم تكن موضوع بحث. فالكولونيل جويز ومعه الميجر نيوكمب هما اللذان اقترحاها على الأمير فيصل وبينا له فوائدها في عرقلة المواصلات وتأثيرها في رفع معنويات عشائر الشمال من جهة، وإرباك الأتراك بوصول التخريب إلى تلك الأطراف مما يضطرهم إلى توزيع قواتهم على طول الخط الحديدي.

ولأنه لم يكن في ذلك الوقت مفارز تخريب بقيادة ضباط من العرب فقد اقترحا أن يقوم لورنس بمرافقة المفرزة لهذه الغاية. وتدارسوا هذا الاقتراح وكان نسيب البكري وزكي الدروبي وفائز الغصين يعترضون بشدة على مرافقة الإنكليزي لهذه المفرزة، لما سيسببه وجوده من سوء الظن لدى البدو والدروز بالنسبة للثورة، خصوصاً وأنهم لم يروا كبير فائدة من هذا

التخريب. وبأن الفائدة البسيطة التي ستأتي من جراء بعض التخريبات لا تعادل جزءاً من المحاذير التي ستكون من وجود إنكليزي مع المفرزة.

أما عودة الذي كان يسمع بالمبالغات التي كانت منتشرة عن تخريبات الديناميت (وكان البدو يسمونه دنا الموت) ونتائجه العظيمة وكيف كانت من جرائه الأبنية والقطارات تتطاير في السماء فقد حبذ الفكرة. أما الشريف ناصر فكان يميل إلى الرأي الأول دون إصرار منتظراً رأي الأمير فيصل. وأخيراً تقرر السماح للورنس بمرافقة المفرزة بشرط أن يقتصر عمله على التخريب وعدم الاختلاط بأحد، وأن يجعل سيره مع قافلة النقل برفقة الجمال المخصصة لحمولة المتفجرات. وبُلِّغ ذلك إلى جويز الذي بلغه بدوره إلى لورنس، وخصص للورنس تسعة جمال لحمولة المتفجرات.

وتقرر أيضاً عدم مرافقة فائز الغصين للحملة وبقائه كأمين سر بجانب فيصل، كما تقرر أن يرافق الحملة ٣٥ هجاناً من متطوعي العقيل شبه النظاميين كحرس، وأن يكون الاعتماد في أمور القتال على الذين سيجندهم عودة ابو تايه من عشائر الشمال كما اقترح ذلك وتعهد به. وأن تصطحب الحملة معها كمية من البنادق والعتاد وما يكفيها من أزراق. ووضع فيصل بأمرة ناصر ٢٥ ألف ليرة ذهبية لتصرف في النواحي التي تتطلبها المصلحة.

في ٣ أيار ١٩١٧ تحركت المفرزة من الوجه باستقامة الشمال الشرقي وعبرت الخط الحديدي متجهة إلى الشرق بالقرب من محطة (ديسعد) - وجرى أثناء العبور تخريب بعض قضبان السكة. ووصلت المفرزة إلى موقع (عرفجة) في وادي السرحان ثم تقدمت نحو موقع العيساوية حيث ينزل بعض عشائر

الحويطات ووصلت إليه في ٢٧ أيار أي بعد مرور ١٨ يوماً على حركتها من الوجه.

ومن العيساوية انطلق عودة لزيارة نوري الشعلان وارتحلت المفرزة من العيساوية إلى قرية كاف إحدى «قرايا الملح»، وهنا بدأ النشاط. فنسيب البكري كان قد كاتب صديقه حسن الأطرش الذي حضر إلى كاف واصطحب معه نسيباً وزكي الدروبي وذهبوا إلى جبل الدروز. ورجع عودة بعد زيارته لنوري الشعلان وبدأ بتجنيد العشائر وتسجيلهم حتى وصل عددهم إلى ٥٠٠ ووزع عليهم ما كان مع المفرزة من سلاح وعتاد، أما المرتبات فقد تأجلت إلى ما بعد الاستيلاء على العقبة.

وعادت المفرزة متوجهة من قرايا الملح نحو موقع باير فوجدت آبارها قد خربها الذين أرسلهم الأتراك لهذه الغاية فأصلحوها وبقيت المفرزة في باير لمدة أسبوع أرسلوا خلاله إلى الطفيلة من ابتاع لهم بعض حاجاتهم من الأرزاق. وأثناء ذلك أيضاً أرسلوا زعل ابن أخي عودة ومعه مائة هجان وبرفقتهم لورنس إلى نواحي محطة الزرقاء في شمال عمان لتخريب الخط بقصد جلب انظار الأتراك إلى تلك النواحي وتضليلاً لهم عن خط مسيرة المفرزة.

وفي ٢٨ حزيران تحركت المفرزة من باير نحو موقع الجفر فوصلته بمرحلتين ومنه توجهت باستقامة الجنوب الغربي فعبرت السكة إلى الغرب من قرب محطة غدير الحج وأثناء عبورها أجرت بعض التخريبات وقضت على مخفر للأتراك في موقع الغويلة.

١٠

احتلال العقبة

باجتياز الحملة للخط الحديدي، أصبحت قريبة من المواقع التي تعتبر ستارات أمامية لكل من ميناء العقبة ومدينة معان ومحطتها التي تعتبر أهم محطات الخط الحجازي بعد دمشق والمدينة، وفيها أكثر القوات ومقر أكبر قيادة عسكرية بتلك الجبهات. وهذه الستارات هي: أبو اللسن، دلاغه القويرة، كنارة، أم العظام.

في ليلة ٢ تموز بلغ الشريف ناصر وصول حملة تركية إلى موقع أبي اللسن، ودون إضاعة الوقت توجهوا إليه وأحاطوا به خلال تلك الليلة ومع بزوغ الفجر اشتبكوا مع الحملة وبهجوم صاعق قام به عودة بخيالته انتهت المعركة باستسلام الأتراك بخسارة ٣٠٠ قتيل و١٦٠ أسيراً.

وتركت المفرزة أبي اللسن حالاً مبتعدة عن منظر بقايا تلك المجزرة المحزنة من قتلى وجرحى متوجهة نحو موقع القويرة وأحاطت به فاستسلمت حاميته دون مقاومة وأخذت منه ١٢٠ أسيراً وفي الليلة التالية هاجمت المفرزة موقع كنارة الذي استسلمت حاميته أيضاً دون مقاومة.

عندما علم الأتراك بما وقع بهذه المفاجأة المذهلة، جمعوا مخافرهم الأمامية الأخرى في موقع (الخضر) وهو الموقع

الدفاعي عن ميناء العقبة، ويقع على مرتفعات وادي التيم المشرفة على السهل الساحلي المحيط بالميناء. وكانت جميع التحصينات معمولة بالنسبة لعدو يأتيهم من البحر، ولا تفيدهم تجاه عدو يهاجمهم من خلفهم (من الشرق). ولذلك كان الهجوم عليهم بهذه الصورة مفاجأة مريعة ومرعبة أذهلتهم وأخافتهم وأربكتهم.

وكتب الشريف ناصر إلى القائد التركي في موقع الخضر يطلب اليه الاستسلام حقناً للدماء ويخبره بما حصل في مواقع أبي اللسن والقويرة وكناره ويؤمنهم على أرواحهم. وبنتيجة المفاوضات وفي ٦ تموز استسلمت الحامية وكان مجموعها ٣٠٠ ضابط وجندي. وأصبح بذلك مجموع الأسرى ٧٠٠ ضابط صف وجندي و٤٢ ضابطاً. وليس من موضوع هذا الكتاب الدخول في تفاصيل المعارك التي وقعت في الثورة إلا ما كان له علاقة بما كتبه لورنس عنها.

لقد كان أول عمل قام به الشريف ناصر بعد استسلام حامية العقبة هو إرسال نجابين[١] شجاعين يركبان دلولين قويين ومعهما كتاب إلى فيصل يبشره به بفتح العقبة. ثم أمره عودة بأن يتوجه مع جميع قواته للمرابطة في موقع القويرة وتوزيع رجاله على المواقع الأمامية كدلاغة وأبي اللسن وغيرها لستر موقع العقبة أمام أي حركة فعّالة يقوم بها الأتراك.

وفي الساعة الأولى التي دخل بها ناصر إلى العقبة شعر بأنه أصبح أمام مشكلة تفوق الخطر الذي جعله يقف أمام قوات كبيرة نظامية متفوقة. وهذه المشكلة هي نفاد ما كان لديه من طعام ومال. وكان مجموع ما كان معه من المقاتلين يتجاوز الألفي مقاتل يضاف إليهم ٧٤٢ أسيراً تركياً وجميع هؤلاء

(١) النجاب هو الرسول الذي يركب الهجين الأصيل السريع.

بحاجة إلى طعام، وفيصل بعيد وليس من المعقول أن يكون بإمكانه مدهم بشيء من الطعام أو المال بهذه السرعة الملحة. وبدأ يفكر في هذا الأمر حتى خطرت له الاستعانة بالجيش الإنكليزي، وهو أقرب من جيش فيصل إليه، وطلب لورنس وأفهمه الوضع وسأله إذا كان بالإمكان الاستفادة من الجيش الإنكليزي الموجود في سيناء بمعونة سريعة؟

ولمعت أمام لورنس الفرصة الذهبية التي أتت على قدميها وهو الذي خبر صحراء سيناء قبل الحرب، فأجابه لورنس بإمكانية ذلك وقال له: إن أقرب مكان للاتصال بالإنكليز هو السويس التي تبعد عن العقبة ١٣٠ ميلاً، وقال: له إنه مستعد للذهاب إليها بدون إضاعة وقت، وأنه سيواصل السير ليلاً ونهاراً وسيسعى هناك لتأمين جميع احتياجات المفرزة من طعام وسلاح وأموال، وسيطلب كذلك تأمين إرسال مركب حربي يتسلم الأسرى للتخلص من تبعة إعاشتهم، فكاد الشريف ناصر يطير فرحاً ولم يضيع دقيقة واحدة من الوقت فأرفق لورنس بثمانية رجال من الهجانة النشيطين وتوجهوا من توهم نحو السويس.

يقول الشريف ناصر إنه في تلك الساعة فقط شعرنا بفائدة وجود لورنس معنا لم نكن قبل ذلك نشعر بأي فائدة من وجوده. حتى عودة الذي كان أول الموافقين على مرافقته لنا، رجع وصرح لي عند وصولنا إلى قريات الملح بندمه على تلك الموافقة بسبب تلك المواقف الحرجة التي يتعرض لها أمام البدو والدروز بسبب وجود هذا الإنكليزي في حركة وطنية عربية وقد عاد عودة ليشارك ناصر في سروره بهذه الخدمة التي يقوم لورنس بتأديتها.

هذه هي حقيقة ما قامت به مفرزة العقبة من أعمال، وحقيقة ما قام به لورنس من مهام خلال مرافقته لها. وعدا ذلك فكل ما

ذكره لورنس عنهـا، وما يـدعي قيامـه به من أعمـال في كتابـه (أعمدة الحكمة) فهو اختلاق وزركشة كلام، يـوهم به القـارىء بأنه كان في تلك المفرزة كل شيء بينمـا لم يكن أكثر من ضـابط تخريب ولم يقم بعمل مهم يستأهل الكتابة عنه.

وصل لورنس إلى السويس في ٨ تموز ١٩١٧. وبالرغم من تعبه الشديد لم يركن إلى الراحة التي كان بأشد الحـاجة إليهـا، بل أسرع بكتابة تقريره الذي قدمه إلى رئيسه كـلايتون. لقـد كان التقرير في حـد ذاته، وبصرف النظـر عن كل مـا كان يحتـويه، بشرى عظيمة للقائد العام الجـديد الجنـرال أللنبي الذي عـيّن خلفـاً للجنرال مـوري، الذي نحي عن القيـادة على أثـر الفشل الذي مني به في معركتي غزة.

لقـد قدر لـورنس الأهمية الكبـرى التي ستكون لتقـريره وهـو يحمل في طياته تلك البشرى العظيمـة بالاستيـلاء على العقبـة، وقدر أيضاً أن هذا التقرير سيحال كما هو إلى القيادة العامـة، فتعمـد أن يتطرق فيـه إلى الأمور التي تهمـه، خصوصـاً فيمـا يتعلق منها بخطوط مواصلات الجيش التـركي المحارب في غـزة وبئر السبع، وعلاقته بـالسكان العـرب المقيمين بتلـك الجهات، كمـا بين فيـه الأهميـة الاستـراتيجيـة لقبـائـل شرقي الأردن، والفـائدة التي يمكن أن تحصـل منهم إذا ما جعلـوا في وضـع يهـدد تلك الخطـوط. ولم ينس أن يزين تقـريره، ويبـرهن على سعة علمه بالاستشهاد بحركات أبي عبيدة بن الجراح وصلاح الدين الأيوبي.

ركب لورنس القطار من السويس متوجهاً إلى القاهرة، وفي جيب ثوبه العربي الأبيض ذلك التقرير الذي كتبه في السـويس وعلى كتفيـه عباءتـه المصنوعـة من وبر الابـل، وفي وسطـه خنجـره الذهبي المعقوف الذي أهداه إليه فيصل، وعـلى رأسه الكـوفية والعقال المكاوي المقصب.

وحين وصل به القطار إلى محطة القنطرة وهو في تلك الملابس الغريبة حتى على المصريين أنفسهم. بسحنته البيضاء التي احرقتها الشمس، وعينيه الزرقاوين كزرقة البحر كان يظهر بين تلك الجموع الغفيرة التي تعج بمختلف أجناس البشر، من ضباط وجنود ومدنيين، وحمالين وعمال ونساء ورجال بيض وسود وملونين، كان يظهر بينهم وكأنه آت من حفلة كرنفال. في تلك الدقائق ظهرت أمام لورنس فرصة جديدة لم يكن ينتظرها، لقد شاهد في المحطة صفا من جنود حرس الشرف، وجمعاً كبيراً من مختلف الضباط والجنرالات، يلقون التحيات على جنرال ضخم، وبقربه رئيس أركان جيش الحملة المصرية الجنرال (بور مستر). فسعى لورنس أن يريه نفسه حتى إذا ما رآه في تلك القيافة الغريبة، أشار إليه فاقترب منه لورنس وأعلمه بخبر الاستيلاء على العقبة، فأعاره بور مستر انتباهه الكلي. فأخبره لورنس بالحرج الذي تعانيه الحملة من حاجتها للإعاشة والعتاد والمال والحماية ورجاه أن يأمر بتوجيه سفينة تحمل حاجاتها على أن تعود بالأسرى.

ويفهم لورنس بأن هذا الجنرال الضخم هو أللنبي القائد العام الجديد. لقد أحسن لورنس انتهاز الفرصة ووفق بلفت انتباه القائد العام بهذا الخبر المهم، وبتلك القيافة الغريبة التي تدل على العمل بطريقة فذة لم يسبقه إليها أي إنكليزي. وسنرى كيف كان لهذه الدقائق القليلة التي أحسن لورنس انتهازها، أحسن الأثر فيما وصلت إليه شهرته، وكيف أنها أصبحت أضخم الأحجار التي رفع لورنس عليها بناء كل ما وصل إليه من شهرة.

ويصل لورنس إلى القاهرة، ويدخل على رئيسه كلايتون الذي ذهل من وجوده ومن خبره حول الاستيلاء على العقبة. وقدم إليه تقريره المملوء بالتلفيقات والأكاذيب التي يفهم منها أنه هو

صاحب فكرة الاستيلاء على العقبة، وأنه هو القائد الحقيقي والمسير لها، وبينما كان يخبره عن مواجهته لرئيس الأركان وعن إصداره الأمر بتوجيه السفينة إلى العقبة إذ يرن تليفون كلايتون يخبره عن قرب حركة السفينة، فيرسل مع حرس خاص ١٦ ألف ليرة ذهبية إلى الشريف ناصر مع تلك السفينة.

وتنتهي بذلك مهمة لورنس التي أرسله الشريف ناصر من أجلها. ارزاق ومؤن ومال والخلاص من متاعب الأسرى وسفينة حربية للحماية. وتبدأ مهمة لورنس الشخصية التي هُيِّىء لها من خلال مهمته الأولى أحسن تهيئة وتمضي ثلاثة أيام يصل خلالها التقرير الذي أحاله كلايتون إلى القيادة ويقع ما كان ينتظره لورنس، ويطلب القائد العام أللنبي رؤية هذا العفريت الأشقر الذي قاد العرب من الوجه حتى افتتح بهم العقبة، دون أن يكلفهم ذلك شيئاً لا بالأرواح ولا بالأموال بعد أن عجزت عنه البحرية البريطانية مرتين، الأمر الذي لم يكن البريطانيون ينتظرون وقوعه على هذا الشكل وبهذه السرعة المذهلة.

يقول لورنس إن لقاءه مع أللنبي كان مثيراً للضحك، فاللنبي ضخم الجثة واثق من نفسه وهو (أي لورنس) نحيل الجسم حافي القدمين يبدو كأنه دجال أكثر منه رجل أعمال يدعي أنه كان حافياً في القاهرة وبحضور القائد العام بينما لورنس لم يمش حافياً قط كما بينا ذلك في فصل سابق.

يقول إنه شرح لأللنبي الذي كان يتتبع حديثه على الخريطة الأوضاع عن سوريا وأهلها كما بين له الخطط التي وضعها لجعل جميع إمكانات عرب تلك الأطراف في خدمة الجيش البريطاني وأعلمه أنه طلب لتنفيذ مهمته هذه مؤناً وسلاحاً ومائتي ألف ليرة ذهبية. وقال أللنبي:

«طيب سأبذل المستطاع لخدمتك».

إلى أن يقول لورنس:

«وكنت أجهل إلى أية درجة استطعت أن أقنعه».

وللحقيقة يبدو أن أللنبي تأثر بلورنس وصدقه في كل ما قاله وكل ما قرأه في تقريره، ومن الطبيعي أن يصدقه طالما أنه يحدثه عن أمور واقعية ملموسة بأحداثها وأشخاصها، وليس هناك من يخبره عما كان في ذلك التقرير من أكاذيب ينسب فيها لنفسه ما هو لغيره.

وذهب لورنس بعد أن أفرغ جعبته عند أللنبي، مما كان يختزنه فيها من أفكار، كان يعتقد أنها ستصل به إلى ما كان يطمح إليه. ذهب إلى رئيسه كلايتون ليخبره بما حصل باجتماعه بأللنبي وتحدث معه (كما يقول) بصراحة متناهية، فقال له: إن العقبة قد تم الاستيلاء عليها بفضل جهوده وعلى حساب عقله وأعصابه، وأنه متأكد أنه لا يزال قادراً على عمل شيء آخر إذا كان كلايتون يعتقد بأنه اكتسب الحق في أن يكون سيد نفسه.

أي أنه طلب إلى كلايتون أن لا يكون بعد الآن تابعاً لآمر في البلاد العربية، وأن يكون اتصاله به مباشرة. ويقول لورنس إن كلايتون وافقه على ما أبداه، ولكنه وجه نظره إلى أن القيادة الرسمية لا يمكن أن يوكل أمرها إلى ضابط صغير، واقترح أن يكون جويس على رأس العقبة. بمعنى أنه سيعهد إلى جويس بشؤون العقبة الإدارية، ويترك للورنس حرية العمل والاتصال كما تتطلبه المصلحة.

وانتقل لورنس بذكائه وحسن تصرفه واتقانه سبك ما يريد الإيحاء به وبجرأته الفائقة في انتهاز الفرص خلال ثلاثة أيام من ضابط ارتباط بسيط بين الكولونيل جويس والأمير فيصل بالوجه أو ضابط تخريب، إلى معتمد القيادة البريطانية العامة في مصر لدى جيش الأمير فيصل.

سرنا نحن والقارىء مع حملة العقبة منذ خروجها من الوجه حتى الاستيلاء على العقبة وعرفنا حقيقة كل ما قام به لورنس خلال مرافقته لها. فهل نجد فيما فعله ما يتجاوز واجب ضابط تخريب اعتيادي يعمل بأمرة قائد مفرزة مسؤول عما يقوم به من حركات؟ لو أن لورنس لم يرسل مع هذه الحملة لقامت بجميع ما قامت به من أعمال. ولوفرت على نفسها نظرات الاستفهام والريبة التي كانت تتعرض لها عند بعض مشايخ الدروز والبدو بسبب وجوده معها. وماذا كان سيحصل لو لم يكن موجوداً عقب افتتاح العقبة وارتباك الشريف ناصر لعدم وجود المال والطعام؟ لا شيء أيضاً لقد كان بإمكان ناصر أن يرسل أولئك الذين أرسلهم مع لورنس مع شخص آخر غير لورنس يرفقه بكتاب إلى أقرب قطعة بريطانية ببئر السبع أو السويس براً كما ذهب لورنس أو بحراً على أحد قوارب الصيد أو أحد القوارب الباقية من مخلفات الأتراك. وكان من الممكن لهؤلاء الوصول بالسرعة نفسها أو أقل منها أو أكثر منها بيوم. ولكانت وصلتهم تلك الباخرة بالمدة نفسها التي وصلتهم فيها بأقل أو بزيادة يوم واحد. إذ لم يغير وجود لورنس مع الحملة شيئاً من انجازاتها. أما الأمر الذي حصل نتيجة لوجوده فهو اعتقاد القيادة البريطانية وملحقاتها بأن جميع ما قامت به هذه الحملة كان من تدبير لورنس وتوجيهاته. الأمر الذي قوى جرأته على التلفيقات وجعلها الأساس ـ الذي بنى عليه جميع أعماله في المستقبل.

لا اعتقد أن ألنبي أو كلايتون كانا مصدقين كل ما ادعاه لورنس كل التصديق. فالقائد العام عادة يعتمد في مثل هذه الأخبار على دائرة الاستخبارات العسكرية التي يرأسها كلايتون، وكلايتون الذي يستقي الأخبار بواسطة جميع وسائل الاستخبارات وكان يعتبر من أكبر خبراء المخابرات المختصين

بشؤون البلاد العربية، ولا بد أنه كانت له شبكة واسعة من الجواسيس والمخبرين والعملاء في جميع البلاد العربية التي كان لها صلة بحركات الجيش البريطاني في سيناء. ولورنس كان بالنسبة لكلايتون أحد موظفي الاستخبارات الصغار ضمن تلك الشبكة الواسعة، وقد منحت له رتبة عسكرية متواضعة لتجعله منسجماً مع العمل المطلوب منه، ولذلك فنحن نرجح أن كلايتون ما كانت لتفوته بهلوانيات لورنس وادعاءاته، وربما أنه كان يتظاهر بتصديقها ما دامت لا تضر بالمصلحة البريطانية، وما دام العرب الذين على حسابهم تحاك هذه الأكاذيب لا يعترضون عليها.

في اللحظة التي حصل فيها لورنس على ثقة أللنبي واعتماد كلايتون ودون إضاعة وقت وضع نفسه مستشاراً للأمير فيصل، وبدأ باستعمال ضمير المفرد المتكلم بجميع تقاريره أو مكالماته مع كلايتون أو القيادة البريطانية اقترحت، طلبت، رغبتي، أوضحت، علمت، وقررت إلخ. ليدل على أنه أصبح لفيصل مستشاراً ذا رأي معتبر ومسموع. أما مع الأمير فيصل وقيادته العسكرية فقد بدأ يستعمل عبارات واقترحت عليهم، طلبت منهم، أفهمتهم، أقنعتهم، اضطررتهم إلخ يقصد بضمير الجمع الغائب المسؤولين الإنكليز وكأنه ليس منهم، ويستعمل في أحاديثه مع فيصل وغيره من القادة تعابير: نحن، هم، طلبت منهم، أرسلوا لنا، سأخبرهم إلخ. يقصد بها الإيحاء لمستمعيه أنه في علاقاته مع الإنكليز يمثل الطرف العربي ويعمل لمصلحته.

يقول إنه اقترح على الإنكليز إلغاء قاعدة الوجه وأن ينتقل جيش فيصل إلى العقبة. أليس هذا من الأمور البديهية؟ إن استيلاء جيش فيصل على العقبة جعله على بعد نحو ألف ميل عن مكة ومائة وثلاثين ميلاً عن الجناح الأيسر للجيش

البريطاني المتقدم نحو غـزة. وقد أصبـح الجيشان يقـاتلان في منطقة واحدة، عدواً واحداً، الأمر الذي يوجب عليهما التعـاون وتوحيد الخطط بقيادة واحدة. ومن البـديهي في هذه الحـال أن تكون القيادة للقائد البريطاني ولـورنس قدر أن هـذا الاقتراح سيرضي كلاً من أللنبي وفيصل، ولا يلاقي اعتـراضاً كبيـراً من الملك حسين، بسبب هذه المسافة الشاسعـة التي ستكون بينـه وبين جيشه الشمالي. وإننا نـرجح أن يكـون هذا الاقتـراح قد صـدر عن أللنبي، لا عن لـورنس، لأن طبيعـة المـوقف كـانت تقتضي ذلك.

ويذهب لورنس إلى فيصـل في الوجـه، ليخبره بمـا قدم لحملـة العقبـة من خدمـات، وليبشره بما حقق لـه من تـرتيبـات لنقـل قاعدته وجيشه من الوجه إلى العقبة، وعرض عليه مسألـة ربط جيشه بأللنبي ومـا سيكون من جـراء ذلك لجيشـه من فوائـد أهمها تموينه بالأسلحة والمعدات والمتطوعة التي ستتدفق عليه. وطلب إليه تزويده بكتاب منه إلى والده يؤيده ويدعمـه. وتوجـه إلى جـدة، ولكنه وجـد أن المعتمد البـريطاني ولسـون قد تلقى أمراً بالحصـول على رضى الحسـين بالاقتـراحين، وحصـل على موافقته قبل وصول لورنس.

الخـلاصة: إن لـورنس أحسن الاستفـادة من حـركـة مفـرزة العقبة فحشر نفسه فيها، وأحسن الاستفادة من وجـوده معها، فاقنع الجنرال أللنبي ثم كلايتون بأنه هو الذي قاد هذه الحملة من الوجه إلى الأزرق ثم إلى العقبة، وقاتل الأتراك بعـدة معارك وأخذ منهم ٧٤٢ أسيراً وافتتح العقبة التي عجـزت محاولتـان إنكليزيتان عن الاستيـلاء عليها. وأقنعهم بهـذه الحركـة التي وقعت فعـلاً، وبما بينـه لهم من معلومـات وآراء عن عرب تلـك الأطـراف وما بعـدها من البـلاد السوريـة بـأنـه أعظم خبـير إنكليـزي بأحـوال العرب، وبـأنه الـوحيد بـين الإنكليـز وغـير

الإنكليز الذي تمكن من الاختلاط بالعرب على هذه الصورة وبهذا القدر حيث ارتدى ملابسهم وعاش كواحد منهم، واكتسب ثقتهم ومحبتهم واحترامهم إلى أن أصبح بإمكانه قيادتهم كيفما يشاء وإلى حيث يشاء، وبإمكانه أيضاً بما يملك من خبرة ومعرفة وذكاء وشجاعة ومغامرة، أن يوجه هذه الآلاف من البدو والحضر لخدمة مصلحة الجيش البريطاني.

ولم يأت أحد إلى أللنبي ليقول له خلاف ما قرأه في تقرير لورنس، أو خلاف ما سمعه منه عن أنه لا يعرف البدو إلا منذ التحاقه بالثورة وأنه لم يخالطهم أو يعش معهم، وأنه لا يحسن التكلم بلغتهم بالقدر الذي ادعاه، وأنه لم يكتسب ثقتهم ومحبتهم واحترامهم، أو أن بإمكانه قيادتهم وأنه لم يقم خلال وجوده في حملة العقبة بأكثر من بعض تخريبات السكة بالأشتراك مع غيره.

ولذلك فإن أللنبي صدقه، ومن الطبيعي أن يصدقه، ويمنحه ثقته واعتماده، ويوسع من صلاحياته فيجعل منه الخبير بشؤون العرب والثورة، لا يبت في أمر من أمورهم، إلا بعد أن يأخذ رأيه الذي سيكون له الاعتبار الأول وقد رقاه إلى رتبة ميجر لتنسجم رتبته مع مسؤولياته الجديدة، ووضع تحت تصرفه ميزانية كبيرة من الجنيهات الذهبية، ليوسع بواسطتها إمكاناته ويقوي نفوذه.

وهكذا نرى لورنس قد تحول خلال أيام قليلة من ضابط مخابرات، بمظهر ضابط ارتباط، بين الكولونيل جويز والأمير فيصل إلى مستشار خاص للشؤون العربية، ومعتمد ذي صلاحيات لدى أللنبي القائد الأعلى للحملة البريطانية للشرق الأوسط.

وبعد أن حصل لورنس من أللنبي على هذه الصفة والارتباط به

رأساً وتسلح بهذه الصلاحيات ذهب إلى الأمير فيصل ليخبره عن الخدمات التي أداها إلى حملة العقبة، وعن كيفية ذهابه إلى السويس وسرعة تأمينه لاحتياجاتها من مؤن وسلاح وأموال وباخرة حربية لحمايتها، وعن اجتماعه بـأللنبي وحصوله على الموافقة لرغباته (رغبات فيصل) ومد جيشه بالمؤن والأموال لتسهيل زحفه على الشام. وكان في طريقة تعبيره، يوحي إلى فيصل أن يفهم منها أنه يعمل لمصلحة العرب أولاً وأن في مقدوره أن يؤمن لهم كل ما يحتاجون إليه.

وهكذا أيضاً نراه وقد تحول عند الأمير فيصل من ضابط ارتباط صغير ما بينه وبين الإنكليز إلى صديق ومحب للعرب ومعتمد لهم لدى القيادة الإنكليزية. وأصبح يستشيره في كل أمر له صلة بالإنكليز. وبهذه الطريقة التي اتبعها أصبح لورنس حائزاً على ثقة واعتماد الطرفين، فلأي منهما كان مخلصاً؟

منذ أن تعرف أللنبي على لورنس وجعله مستشاره في الشؤون العربية، بدأت معلومات لورنس عن قضايا العرب السرية تتوسع ولم يكد ينتهي عام ١٩١٨ حتى كان قد وقف على جميع المؤامرات الاستعمارية السرية التي كان الإنكليز والفرنسيون قد اتفقوا عليها وعلى ما كان الإنكليز يحيكونه من مؤامرات أخرى ضد مصالح العرب، ومنها معاهدة سايكس ـ بيكو ووعد بلفور وما يضمره اليهود من إنشاء دولة إسرائيلية.

إن لورنس الذي وقف على نوايا حكومته وخططها التي ستطبقها بعد الحرب، كان في الوقت نفسه، يعلم آمال العرب وما يعملون من أجله، وبأنه لم يكن عندهم لا أسرار ولا نوايا مبيتة لأحد. يعلم حق العلم أن المصالح والأعمال العربية لا تتوافق مع ما كان يبيته لهم حلفاؤهم وفي مقدمتهم الإنكليز، وأن مصلحة الطرفين متفاوتة ومتخالفة، فإلى أيهما كان لورنس

منحازاً؟ ومع أي طرف كان يجر الحبل؟ فلورنس كان إنكليـزياً بلحمه ودمه وفكره، وكان عربياً عند اللزوم بثوبه فقط فهـل من المعقـول أن يخدم مصلحـة العرب التي تتخـالف مع مصلحـة قومه الإنكليز؟. لنترك الآن الإجابة عن هذا السؤال، إلى ما بعد الحرب، إلى أن يخلع لورنس ثوبه العربي الذي يسميه لـورنس نفسـه ثوب الخـداع، وإلى أن يعود إلى لبس ثـوبه الإنكليـزي الحقيقي، ويحضر المؤتمرات والاجتماعـات التي تدور أبحـاثها حـول أصلح الطـرق لاستعمار العـرب وتمزيقهم والقضـاء على وحدتهم وأمانيهم.

١١

الجيش الشمالي في العقبة

انتقل الجيش الشمالي من الوجه إلى العقبة، فوصلت هجانته عن طريق البر، وتحركت باقي قواته في البواخر على ثلاث حملات، ففي ٧ آب ١٩١٧ تحركت الحملة الأولى من خمسمئة ضابط وجندي بقيادة المقدم رشيد المدفعي، وفي ١٧ منه تحركت الحملة الثانية المكونة من مقر الجيش النظامي وباقي قطعاته وعددهم نحو ألف ضابط وجندي، بقيادة اللواء جعفر العسكري، وفي ٢٤ منه تحرك الأمير فيصل مع حاشيته والمؤخرة من بقية القوات النظامية. وبوشر حالاً بتنظيم المعسكرات وتدريب القطعات.

لقد حصل من جراء انتقال الجيش الشمالي إلى العقبة تبدل أساسي وجوهري في وضع جيش الثورة، وجعله ينقسم إلى قسمين: فقد بقي جيشا الأميرين علي وعبدالله في الحجاز يقومان على حصار المدينة، والجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل وصل إلى الأراضي الشامية وقد اتخذ العقبة قاعدة له وأصبح بذلك على ميمنة الجيش البريطاني الذي يقاتل في فلسطين وتابعا لقيادته.

وبوصول الجيش الشمالي إلى العقبة ازداد بصورة مستمرة ومتزايدة الملتحقون به من المتطوعة، من ضباط وجنود حتى

أصبح بكثرته جيشاً نظامياً تساعده جموع بدوية، بعكس جيشي الجنوب اللذين كانا بأكثريتهما قوات بدوية تساعدها بعض التشكيلات العسكرية.

يقود الجيش الشمالي النظامي اللواء جعفر العسكري تعاونه هيئة أركان برئاسة العقيد نوري السعيد (السياسي الشهير رئيس الوزراء العراقي فيما بعد). وجميع ضباط الجيش على اختلاف رتبهم كانوا ممن تخرجوا من الكليات والمعاهد العسكرية التركية، وخدموا في دوائر الجيش وقطعاته العسكرية، وأكثرهم أو بالأحرى جميعهم، ممن كانوا في الخطوط المحاربة الأمامية فأسروا من قبل الإنكليز أو التحقوا منها مباشرة. ومثلهم ضباط الصف والجنود.

وهكذا نجد أن الجيش العربي كان (كما وقع فعلاً) يتفوق على الجيش التركي وقد اتضح ذلك بنتيجة المعارك التي كانت تقع بين الجيشين، فكان الجيش العربي متفوقاً بمعنوياته وتسلحه وقياداته وتموينه.

كان الجيش الشمالي حين وصوله إلى العقبة يتألف من نحو ١٥٠٠ ضابط وجندي من مختلف الرتب وبوصوله تدفق عليه المتطوعون من ضباط وجنود، فجرى تنظيمهم بفرقة تتشكل من لواءي مشاة ومدافع ورشاشات بقيادة العقيد قاسم راجي، وباستمرار تزايدهم تشكلت الفرقة الثانية من لواءين أيضاً بقيادة العقيد حسن وفقي.

إن ارتباط قيادة الجيش الشمالية بالقيادة الإنكليزية، لا يتجاوز التعاون السَوقي ولم يكن في الجيش العربي أية قيادة عسكرية بريطانية من أي مستوى. والعون الذي كان يقدمه جيش الثورة عن طريق الحركات السوقية والتعبوية كان يتم عن طريق القيادة العربية، أما رجال البعثة البريطانية فلم يكن لأي

واحد منهم شأن ولا دخل بالقطعات، وتنحصر واجباتهم في أمور الإمدادات من لوازم وإعاشة، برئاسة الكولونيل جويز الذي كان يقدم استشارته فيما يتصل بالأمور المتعلقة بانسجام الحركات بين الجيشين العربي والبريطاني، أما لورنس فقد أصبح بعد الاستيلاء على العقبة وحسبما بيناه، بنظر أللنبي الخبير الذي يؤخذ رأيه في الحركات المتعلقة بشؤون الثورة. أما علاقته بالجيش العربي فقد بقيت كما كانت، وهي ضابط اتصال بين فيصل والقيادة البريطانية بزيادة شيء من الثقة التي نالها من فيصل نتيجة الخدمة التي أداها لمفرزة العقبة بعد فتحها.

ومن الأمور الغريبة التي تخرج عن القاعدة، أن فيصل وأللنبي بالرغم من هذه الصلة الجديدة التي حصلت بينهما، كان الواحد منهما لا يعرف الآخر معرفة شخصية وبقيت علاقاتهما تسير بواسطة ضابط صغير لا علم له بالشؤون العسكرية، ولا بشؤون البدو الذين لم تمر سوى أشهر قليلة على معرفته بهم. إن الثقة التي نالها لورنس من أللنبي، بالطريقة التي مر ذكرها، وبرتبة الميجر التي حصل عليها، ضاعفت من نشاطه وجعلته يتحرى عن طريقة تفسح له في المجال ليكون أكثر حرية في العمل، والعمل الوحيد الذي كان مفتوحاً أمام ضباط الإنكليز هو تخريب السكة باعتباره عملاً فنياً تستعمل فيه المتفجرات ولا يعرفه سوى عدد منهم وهم غارلند، نيوكمب، لورنس وبيك. ولم يكن في وسع هؤلاء أو غيرهم من الإنكليز القيام بهذه المهام وحدهم، فالقيادة العسكرية التي تكلفهم ترفقهم بالعدد اللازم من البدو لحمايتهم ومعاونتهم. وبهذه الحالة لا يبقى أمام ضابط التخريب إلا أن يقوم بعمله ضمن المجال الذي أوكل إليه وتقديم تقريره عن الإنجازات التي حققها، ونرى لورنس بعد عودته موفقاً من عند أللنبي، وبعد

حصوله على إمكانات مالية، يحل بذكائه وجرأته هذه العقدة التي كانت تحد من حريته في التجول، ثم في الإدعاء بقيامه بخوارق الأعمال. وهكذا قام بتشكيل جماعة من مختلف العشائر ألبسهم الملابس البدوية الثمينة وسلحهم بأحسن الأسلحة، وخصص لهم رواتب تزيد ضعفين على مخصصات غيرهم من المتطوعين، وانتخبهم ممن يملكون هجناً قوية سليمة، وسماهم «حرسي الخاص أو رجالي» وبذلك أصبح لورنس ليس في حاجة إلى أخذ الموافقة من القيادة على تحركاته ولا حاجة له في حرس يرفق به، ولا بدليل يرشده إلى الطريق، فجماعته هم الحراس ومن ضمنهم الأدلاء والقيادة العربية مع الأسف منحته هذه الحرية فأرخت له العنان ليذهب متى شاء وأنى شاء.

وإذا نظرنا إلى حقيقة الأعمال التخريبية التي يدعي لورنس قيامه بها وجدناها تافهة جداً أهمها لا يتعدى نسف قاطرة. ولم يخطر للقيادة العربية على بال أنه سيأتي وقت ليس ببعيد ربما لا يتجاوز السنتين ليخرج لورنس على العالم الغربي بكتاب يملأه بالاختلاقات والأكاذيب ويدعي فيه أنه كان يملك حرساً خاصاً مؤلفاً من ٩٠ رجلاً من البدو، ينتسبون إلى ثلاثين قبيلة مات منهم في سبيله ثلثاهم. ولم يخطر لها أنه سيصل به الأمر إلى ادعاءات تجعل منه في نظر العالم بأجمعه ملك العرب غير المتوج، الذين انقادوا له في الحرب العالمية الأولى ومشوا خلفه، لا من أجل مصلحتهم الوطنية، بل لمصلحة بريطانية، والذهب الذي يتدفق منها عليهم.

يقول لورنس في كتابه (أعمدة الحكمة):

«وبعد عودتي إلى العقبة كرست الأيام الباقية لتنظيم شؤوني الخاصة. وكان أول ما فعلته تشكيل فرقة لحراستي الشخصية بعدما شاع صيتي وذاع وبات معروفاً أنني شخص ذو أهمية.

وبعد نسفنا لقطار جمال باشا، بات ثمن رأس كل منا أنا وعلي (يقصد الشريف علي الحارثي) عشرين ألف ليرة ذهبية حيين، وعشرة آلاف ليرة ميتين. وهكذا جمعت حولي فرقة بلغ عدد أفرادها التسعين. نصفهم من بني عقيل كنت أدفع لكل منهم ست ليرات استرلينية في الشهر. اخترتهم فرداً فرداً مع مطاياهم بصورة دقيقة جداً ومن الجدير بالذكر أن رجالي هؤلاء كانوا ينتسبون إلى ثلاثين قبيلة مختلفة بينها دماء وثارات ولولا سهري عليهم وتشددي لقتلوا عدداً جديداً كل يوم. وكان تباغضهم يمنعهم من التكتل ضدي كما كان الخلاف المستحكم بينهم ييسر لي إيجاد الجواسيس لنا في كل مكان من العقبة ودمشق وبئر السبع وبغداد. ستون منهم ماتوا في خدمتي».

نلاحظ من ٢٣ سطراً مما كتبه لورنس في الصفحة ٣٢٧ من كتابه أنه جمع في هذه الأسطر القليلة الكثير مما أراد أن يوهم به القراء أنه أصبح رجلاً عظيماً، له حاشيته وحرسه الخاص يسيطر عليه وأنه أصبح في نظر الأتراك رجلاً خطيراً ذا أهمية، رأسه يساوي عشرين ألف جنيه ذهباً.

إن لورنس عندما كتب هذه العبارات كان لا يزال مجهولاً من العرب والإنكليز والترك. من العرب لا يعرفه سوى فيصل وحاشيته ومن رافقهم من رجال حملة العقبة والخمسة عشر بدوياً الذين جندهم بعد عودته إلى العقبة؛ ومن الإنكليز لا يعرفه سوى رؤسائه وزملائه، وأما الأتراك الذين يدعي بأنهم وضعوا ثمناً لرأسه فلم يسمعوا عنه. أما أولئك التسعون الذين سماهم حرسي الخاص فلم يكونوا أكثر من خمسة عشر رجلاً الذين ذكرناهم، قال إنهم تسعون ليتمكن من أن ينسبهم لثلاثين قبيلة، ليوهم بأن هذه القبائل الثلاثين، التي تعادل بعددها جميع قبائل سوريا والعراق مرتبطة بولائها له بواسطة هؤلاء الرجال الذين مات منهم في سبيله ثلثاهم. إن حقيقة هؤلاء الحرس هي خمسة عشر رجلاً فقط، قسم منهم من عقيل والباقون من عشائر شرقي الأردن المختلفة كالحويطات وبني

صخر وبني حسن؛ لقد شاهدت قسماً منهم بنفسي عندما كانوا معه بالطفيلة (كما سيأتي ذكره) والذي ذكر لي عددهم هو لورنس نفسه. ولدينا دلائل أخرى لا تقبل الشك سأبينها كما سأبين غيرها فيما بعد لأبرهن على أن أكاذيبه كثيرة ومتنوعة منها ما له أساس صغير بنى عليه بناء كبيراً ومنها ما ليس له لا أصل ولا أساس.

للورنس صورة شمسية مع جماعته الخمسة عشر التقطت بمعرفته، وقد نشرها (روبير رافيس) في كتابة «لورنس والمغامرات العربية»، ويظهر فيها لورنس في وسطها راجلاً في ملابسه الحجازية، وفي قدميه النعل الذي ينتعله راكبو النوق، وليس حافياً كما يدعي. وإذا أحصينا جماعته نجدهم ١٤ رجلاً أما الخامس عشر فهو الذي يقوم بالتقاط الصورة، ونرى في أقصى اليمين ناقتين دون راكب، إحداهما للورنس والثانية للاقط الصورة. ولا أعتقد أن القارىء يحتاج إلى الكثير من التدقيق ليتبين له الفرق بين قيافة أولئك الجمع من البدو وقيافة لورنس الذي ادعى أنه لم يكن يختلف عن البدو لا بالقيافة ولا بالكلام.

يقول لورنس: إن انتساب حرسه إلى ثلاثين قبيلة، منع تكتلهم ضده ولولا شدته عليهم لقتلوا عدداً جديداً كل يوم. يريد بذلك أن يوهم قراءه، بأن البدو لا يزالون يعيشون بخلافاتهم وأخذهم بالثأر وأنه بسيطرته عليهم كان يحول دون سفك الدماء، وينسى قوله السابق عندما قال: «إن فيصل تمكّن من إزالة خلافات العشائر» وللأسف إنّ الأجانب وأكثر العرب، يجهلون أن من الأمور الخارقة التي حققتها الثورة العربية هو القضاء على الغزو، وعلى عادة أخذ الثأر التي تلاشت إلا نادراً، فمنذ ما أعلنت الثورة أعلن الحسين معها وقف الخلافات وإجراء التصالح بين العشائر كلها حجازها وشامها، واتخذ في

سبيل ذلك إجراءات كثيرة من أهمها إرفاق كل مفرزة مقاتلة، وكل مركز من مراكز الثورة، بأحد الأشراف. الأشراف بطبيعتهم، وبمقتضى مركزهم وتمثيلهم لقائد الثورة، محايدون وبسبب نشأتهم وصلاتهم بالعشائر كانوا على علم ومعرفة بأخلاق البدو وتقاليدهم، يجيدون التكلم بلهجاتهم.

إن كل أمر من أمور المجتمع أو تقليد من تقاليده، إذا أريد له التغير أو التطوير فلا بد له من وقت يستقيم خلاله ذلك التبديل. إلا التوفيق بين العشائر الذي حققته الثورة فهو معجزتها الكبرى، فقد تم في وقت لم يتصوره أكثر الناس تفاؤلاً. وهذا في مقدمة ما كان للحسين من أفضال على العرب.

كان فيصل يقضي أكثر أوقاته في تسوية خلافات العشائر قديمها وحديثها، ليجعلهم متوجهين إلى عملهم الجديد، وهم أصدقاء غير مختلفين، لا يصدهم عنه لا فرقة ولا عداء. أليس هذا ما فعله الرسول قبل أن يوجه المسلمين نحو أعدائهم؟.

ولكي يوهم لورنس قراءه بأن شهرته تعدت ميادين الثورة وتجاوزتها إلى الأتراك، قال: إنهم وضعوا مكافأة قدرها مئة جنيه ذهباً ثمناً لرأس كل إنكليزي، أما هو فثمن رأسه عشرة آلاف ليرة ذهبية أما إذا كان حياً فعشرون ألفاً، أي أنه كان يساوي مائتي إنكليزي. إنها كذبة من أصلها. فكاتب هذه السطور، كان في تلك الآونة التي يكتب عنها لورنس في الجيش التركي وفي منطقة الثورة نفسها وأنني لم أسمع باسم لورنس، وبطبيعة الأمر لم اسمع بهذه المكافاءات، لا خلال وجودي في الجيش التركي ولا بعد ذلك خلال وجودي في الثورة ولا أحد سمع بها إلا من قرأها في كتابه.

١٢

أسطورة درعا

قصة درعا هذه أغرب قصة جاء بها لورنس. إن التلفيق والخيال فيها واضح، بعيداً عن تصديق كل من له أدنى معرفة بالمنطقة وأحوالها في تلك الحقبة من الزمن.

وخلاصة الحكاية كما بينها لورنس في كتابه هي: بعد عودة لورنس إلى الأزرق من محاولة نسف جسر تل شهاب، وبعد نسفه المزعوم للقطار الذي كان ينقل جمال باشا، وجد في الأزرق طلال الحريديني. شيخ قرية طفس (طفس تقع في الشمال الغربي من درعا) ويصفه بأنه من الخارجين على القانون وأن قتلاه يزيدون على الثلاثة والعشرين قتيلاً، وأن الأتراك وضعوا جائزة كبيرة ثمناً لرأسه ويقول إنه كشف لطلال عن رغبته في استكشاف منطقة درعا. فوافقه وقرر مرافقته. وفي اليوم التالي توجه مع طلال وبرفقته خادماه حليم وفارس، فوصلوا إلى تل عرار المشرف على درعا ومنه انتقلوا إلى مزيريب (وهو يقصد أنه استطلع الخط من طرفه المتصل بدمشق من تل عرار ومن جهته المتصلة بخط القدس من مزيريب) وبعد ذلك وجد من الضروري زيارة درعا، وهي القاعدة المهمة وملتقى خطوط دمشق ـ القدس ـ المدينة ـ. واعتذر طلال عن عدم مرافقتهم إلى درعا. وتوجهوا إليها، وعند طرف المدينة ترجلوا

عن مطاياهم، وكلف لورنس خادمه حليم أن يأخذ المطايا ويتوجه إلى بيت نسيب الكائن في الطرف الجنوبي من درعا. (من هو نسيب هذا وكيف ومتى تعرف عليه؟) وبقي مع خادمه الثاني فارس، ليطوف في المحطة وأطراف المدينة.

يقول إنه تخفى بثياب حليم الرثة. وانه استطلع الخط من الطرف الذي يربطه بفلسطين ثم قرر استطلاع الجهة الشرقية، وسجل كل ما رآه في مذكرة. ثم ولج داخل المدينة. وأثناء تجواله قبض عليه أحد الجنود دون أن يهتم بخادمه، وأخذه إلى ما وراء السور، حيث الأبنية العسكرية وقاده إلى ضابط سأله عن اسمه فأجابه أن اسمه بكر شركس من القنيطرة فيقول له الضابط إنه فراري فيجيب لورنس أنه شركسي لا يخضع للخدمة العسكرية. فيأمر الشاويش أن يأخذه ويفعل به اللازم إلى أن يطلبه البيك. ويقول إنهم أخذوه إلى قاعة كبيرة فيها عدد من الجنود الوسخين فنزعوا عنه حزامه وخنجره وأمروه بالاغتسال (كيف لم يعثروا على مفكرته المكتوبة بالإنكليزية) ثم قدموا له بعض الطعام ثم طمأنوه إلى أنه سيكون غداً حراً، إذا أشبع في هذه الليلة رغبات البيك ويقول إنه تظاهر بالبلاهة لإخفاء شخصيته. وخلال السهرة جاء ثلاثة رجال بطلبه، وأخذوه إلى دار البيك وأدخلوه إلى غرفته.

كان البيك متمدداً فوق سريره في ثياب النوم يرتجف ويتصبب عرقاً كأنه مصاب بالحمى. فأومأ للحراس بالخروج، وأمره بالجلوس قبالته على السجادة، ثم طلب إليه أن يقف ويستدير، ثم أخذه بين ذراعيه عنوة، فتخلص منه. ثم أخذ البيك يلاطفه ويتغزل بقوامه ولون بشرته البيضاء واستدارة قفاه ـ ثم وعده بإعفائه من الخدمة مقابل اشباع رغبته الجنسية. وأمره أن يخلع سراويله. ولما وجد فيه التردد انقض عليه. ولما رده، نادى

الحراس الذين دخلوا وأوثقوا يديه ثم أمرهم بتمزيق ثيابه، فظهرت على بدنه آثار الرصاص والشظايا، فاعترى البيك الذهول. لكنه سرعان ما استعاد رشده وعاد إلى التطلع النهم إلى جسده العاري.

يقول إن صبره عيل وهجم على البيك وضربه بركبته على بطنه فوقع على سريره. عندئذ هجم عليه الحراس وأوثقوا قدميه. واستأسد البيك، وبصق عليه وصفعه ثم غرز أظافره في عنقه، وبعد ذلك أخذ يقبله. ثم أخذ حربة الحارس وصار يخذه بها حتى راح الدم يسيل من فخذه، إلى أن قال له البيك الأفضل لك أن تستجيب لرغباتي. ولما رفض من جديد أمر البيك رئيس الحراس بجلده فاقتادوه إلى غرفة الحرس وجلدوه حتى فقد الوعي. وفي الصباح ايقظته رفسة من قائد الحرس اتبعتها لسعات السوط الذي كان يمزق جلده. وبعد أن تعب من ذلك أمر ثلاثة من رجاله بأن يمسك أحدهم من رأسه والاثنان الآخران كل منهما برجل ويشدها إلى طرفه. وفيما هم يقومون بذلك، طلبه البيك فغسلوا وجهه ومسحوا الدماء عن جراحه ثم نقلوه إليه لكن منظره أرعب البيك فأمر بإرجاعه واحتفظ برئيس الحرس الوسيم (كذا) في غرفته بعض الوقت. وأخذه الحراس إلى تخشيبة واقعة وراء بيت الحاكم وبقي فيها حتى التباشير الأولى من الفجر عندها قفز من النافذة المفتوحة واتجه مسرعاً نحو الجنوب ـ داخل الوادي حيث أصبح في مأمن بعيداً عن الانظار، وأثناء ذلك صادف رجلاً على بعير فرجاه أن يركبه فأشفق عليه وأركبه خلفه، حتى وصل به إلى قرية نصيب، وهناك التقى بخادميه فارس وحليم فقص عليهما قصته، ثم ركبوا مطاياهم وتوجهوا إلى الأزرق.

لكن لورنس ينسى وهو في هذه الحالة أن يدعي أنه أثناء خروجه من درعا ومروره مسرعاً في الوادي تمعن فيه، فوجده صالحاً

للقيام بغارة مفاجئة على درعا وأنه أثناء الليل أعاد الكرة برؤية الجسر الحجري الكبير قرب بيت نسيب.

هذه هي قصة درعا التي اخترعها لورنس دون حياء أو خجل لقد فاقت هذه القصة جميع ما اختلقه حتى أكذوبة وصوله إلى ضاحية دمشق واجتماعه برضا باشا الركابي، ومع ذلك فإنها لا تغيب عن فهم المتمعن ومن له معرفة بأحوال البلاد في ذلك الوقت ولورنس لم يتردد في النزول لقرائه في هذه القصة إلى منزلة الأطفال يفرض فيهم أن يصدقوه بكل ما يحدثهم به. وأغرب ما فيها أن نلقى رجلاً مثقفاً مثل لورنس ينحط إلى الدرجة التي يخترع لنفسه فيها مثل هذه الحكاية ويسردها على مثل تلك الصورة المخزية التي تلقي شعاعاً كئيباً مخجلاً على كل حياته.

عندما وصف لورنس ليلة درعا الرهيبة في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) فإنه لم يذكر اسم ذلك الشخص بل لقبه بالبيك، أما في السلسلة التي نشرتها الصنداي تايمس عن لورنس والتي تتحدث فيها عن رسائل ومخططات للورنس أودعت مكتبة بودليان، تقول بأنه لقبه بالوالي واسماه هاجم بيك. وهذا أيضاً يبرهن على تلفيق القصة... ففي درعا لا يوجد والٍ، فالوالي في ولاية دمشق، والوالي ليس عنده جنود.

وتقول السلسلة أيضاً عن الحادثة، إن لورنس لم يذكر في كتابه أن الوالي تمكن منه، ولكنه يعترف بذلك إلى السيدة شارلوت زوجة شو برسالة يقول فيها:

> «لا أريد أن اتحدث عن تلك الليلة. بعد عذاب فظيع أعطيت الوالي ما خلق الرجل من أجل الحفاظ عليه: الطهارة الجسدية».

وتذكر الصنداي تايمس أيضاً تقريراً سرياً بعث به لورنس إلى رؤسائه لا يترك مجالاً للشك يقول فيه:

«احتفظ بي هاجم بيك تحت الحراسة حتى الليل ثم حاول أن يغتصبني. لم أكن راغباً في ذلك لكنني قبلت بعد مصاعب وعذابات».

فلنبدأ الآن بتحليل هذه القصة: أولاً لم نجد أحداً ممن كانوا في تلك الحركة في الأزرق يتذكر أن لورنس افترق عنهم، ولا يمكن أن يكون طلال شيخ طفس، أو أي شخص آخر من حوران جاء إلى الأزرق. لأن وضع حوران في ذلك الوقت كان غير وضع جبل الدروز. فنفوذ الحكومة على الجبل كان شبه مفقود بحيث غدا ملجأ للفارين من الجيش، الذين أصبحوا يعدون بعشرات الألوف، يعملون في الزراعة والتجارة بكل حرية وأمان. ولكن حوران كانت على العكس تحت سيطرة الحكومة الكاملة خصوصاً درعا التي تقع في مركز عسكري مهم على ملتقى ثلاثة خطوط حديدية وكانت تلك المنطقة مقتظة بالقرى القريبة من بعضها والطارىء الغريب عنها، لا يمكن أن يخفى أمره سواء أكان حضرياً أو بدوياً. ونظراً لقرب الأزرق الذي أصبح مركزاً للذاهبين والآيبين من العقبة، فإنها (درعا) كانت تحت رقابة عسكرية شديدة. والعيون مفتوحة على كل من يدخل إليها أو يغادرها. وكاتب هذه السطور يعرف ذلك، وقد مر منها في تلك الآونة التي كتب عنها لورنس قصته في طريقه إلى معان كما سيأتي ذكره. أما عن الشيخ طلال، فإنه لم يحضر إلى الأزرق ولا يمكنه مرافقة لورنس إلى شيخ مسكين وطفس ومزيريب كما أنه لم يكن لا هو ولا غيره من الحوارنة خارجاً على القانون. ولورنس عرف اسم طلال أثناء الحركة التي كنا متوجهين خلالها إلى دمشق لا قبل ذلك. لقد التحق الشيخ طلال بمفرزتنا عندما وصلنا إلى تل عرار بالقرب من درعا وقاتل معنا مع رجال قريته طفس واستشهد في جوارها. وقد بقي هذا الاسم بذاكرة لورنس فأدخله في قصته هذه عندما ألفها بعد ذلك بثلاث سنوات لعلمه أن الرجل قد مات.

يدعي لورنس بحكايته أنه عندما دخل درعا قبض عليه أحد الجنود، وأخذه إلى الضابط الذي سأله عن اسمه، فأجابه بأنه بكر شركس من القنيطرة. يقصد أنه أراد أن يبعد الشبهة عنه بادعائه أنه شركسي لبياض بشرته الشبيهة ببشرة الشركس. وأراد بذلك أن يقول إن حيلته هذه سلكت على الضابط عندما قال له أنت فراري. بينما لا يمكن أن يغيب عن أي إنسان أنه منذ أن يفتح لورنس فمه بأول كلمة أنه إنكليزي.

ثم يقول إن الضابط أمر الشاويش أن يأخذه ويفعل اللازم حتى يرسل البيك بطلبه. ويقول إنهم انتزعوا منه حزامه وخنجره وأمروه بالاغتسال وقدموا له شيئاً من الطعام ثم طمأنوه أنه سيحصل غداً على حريته إذا أشبع هذا المساء رغبة البيك. وفي المساء أخذوه إلى دار البيك حيث جرت الأمور كما ذكرنا.

إذا الجنود أخذوا لورنس أولاً إلى ضابط هو غير البيك، وهذا الضابط يتطوع لتقديم هذا الأشقر لسيده البيك وأنه يفضله على نفسه. وأنه غبي لدرجة أن لا يفطن لخنجره الغريب وهو من الذهب الخالص كما لا يفطن للهجته الإنكليزية فصدقه بأنه شركسي والشركس عادة يتكلمون العربية برطانة خاصة بين التركية والشركسية، ومع ذلك فإن هذا الضابط الطيب أمر الشاويش أن يهيأ هذا الشركسي الأشقر ذا العينين الزرقاوين لمتعة البيك في تلك الليلة. فراح الجنود يغسلونه ويطعمونه ويطمئنونه ويهيئونه كما تهيأ العروس لعريسها. والغريب الذي لم يسعه خيال أحد من القاصّين منذ عرفت القصص، أن يهيأ رجل ليزف إلى رجل آخر على هذه الصورة. والأغرب من ذلك أن الذين يقومون بتهيئته ضابط وضباط صف وجنود يحملون الشرف العسكري في جيش عريق في جنديته وتقاليده في النظام والضبط الشديد وفي تمسكه بقواعد الدين.

وفي المساء يأخذونه إلى البيك كما تؤخذ العروس ويصور لورنس من سماه بالبيك بأنه كان - ينتظره في ثياب النوم وهو جالس على السرير يغسله العرق، وينتفض مرتعشاً من تهيجات الشهوة. ويراوده ويغالبه ويضربه ويخزه بالحربة ويصفعه ثم يضمه ويقبله كأنه حيوان هائج. كل ذلك بحضور الشاويش والجنود. فهل هذا ممكن أن يقع في أي بقعة من بقاع العالم؟ أقول وأنا الذي نشأت في الجيش التركي أنه لو وقع أقل من هذا الأمر لقام الشاويش والجنود بقتل البيك فوراً وانني لا أكاد أصدق عيني وأنا أقرأ ما كتبه لورنس من أن البيك الهائج أمر الحراس بأن يذهبوا بلورنس وأن يحتفظ بالشاويش الوسيم. فأراد لورنس بقوله هذا أن يفهم القارىء أن البيك هدأ هياجه الجنسي بذلك الشاويش فهل يمكن أن يحصل مثل هذا الأمر؟ وهل يمكن أن نتصور رجلاً سويَّ الأخلاق يمكن أن يأخذ بقلمه مثل هذه الحادثة ويسردها على هذه الصورة حتى لو كانت حقيقية؟ فكيف وهي أكذوبة مختلقة من أصلها؟

إنه لم يذكر لنا شيئاً عن خنجره الثمين وهو كما ذكرنا من الذهب الخالص وكان يعتبر في ذلك الوقت بالنسبة للأتراك ثروة عظيمة. إنه هدية فيصل أهداه إليه في الوجه. لم يخبرنا عن خنجره هذا عندما أخذوه منه؛ والحقيقة التي تدل على هذه الكذبة أن لورنس بقي محتفظاً بخنجره هذا إلى ما بعد الحرب ونراه في وسطه في جميع الصور التي أخذها خلال الحرب وبعدها، ولورنس لم يتمكن من أن يسكت عن ذكره خلع خنجره عنه وهم يجلدونه ولكن اكتفى بهذا القدر دون أن يدخل في نواح جانبية تورطه في أمور أخرى أدق منها.

ويغلب على الظن أن الأمر الذي حدا لورنس إلى اختلاق هذه القصة، هو أن أللنبي بتكليفه تأمين نسف أحد جسور اليرموك لعرقلة مواصلات الجيش التركي أثناء قيام الجيش البريطاني

بهجومه على غزة، وحيث إن هذه الجسور، تقع في منطقة بعيدة جداً عن المناطق التي وصل إليها الجيش العربي، فنسفها يتطلب عملاً فدائياً خطيراً فيه الكثير من التنظيم الدقيق والسرية والجرأة والمباغتة. وهذا ما هو خارج عن إمكانات البدو. وحيث إن لورنس بنى مركزه عند أللنبي بإيهامه أن إمكاناته تصنع العجائب، فكان مضطراً أن يورط نفسه ويتعهد بالقيام بهذا العمل الخطير ويفشل في نسف أحد الجسور، فيتشبث بنسف جسر تل شهاب ويفشل أيضاً، وهو يسمع أثناء ذلك أصوات مدافع الإنكليز التي كانت تدل على بدء الهجوم. ويتصور تأثير فشله على ما حازه من ثقة عند أللنبي. وقد تكون سبباً لكشف جميع بهلوانياته. لذلك أخذ يحاول اختلاق مبررات لهذا الفشل فاخترع أولاً أن عبد القادر الجزائري كان السبب بإفشائه سر هذه المفرزة التي كانت تقصد نسف جسر اليرموك. ولما وجدها غير كافية وهي قابلة لعدم التصديق، زوقها بأن القطار الذي نسفه كان ينقل جمال باشا، فأخره عن اللحاق بجيشه خلال الهجوم الإنكليزي وبقي الجيش التركي أثناء الهجوم دون قائده، وهذا العمل أعظم وأفيد لأللنبي من نسف الجسر. وأكد وجود جمال باشا بهذا القطار بوجود الشقيري مفتي الجيش الرابع والمقرب للباشا وأنه قتله.

وبعد أن عاد لورنس إلى الأزرق، وهو يجر ذيل ذلك الفشل، وكان خبر ظفر أللنبي واستيلائه على غزة لم يصلهم بعد. خطر له أن يضيف إلى ما لفقه من معاذير عن فشله عملاً بطولياً ومغامرة فذة غريبة بدخوله إلى أخطر منطقة عسكرية بقصد التجسس. وزين هذه المغامرة بما سببته له من عذاب وآلام جسدية ونفسية. فلعله يجد بها عند أللنبي العذر الممزوج بالإعجاب والتقدير والشفقة. بدأ قصته هذه بعملية استطلاع تافهة جداً وغير معقولة. ثم تورط في أمور أكثر منها تفاهة،

وأبعـد منها عن العقـل والتصديق. ومن حسن حظ لـورنس أن ينجح أللنبي في هجومـه على غـزة ذلك النجـاح الذي رفعـه إلى مصاف أعظم قادة الحرب العالمية الأولى. وضاع خلال فرصـة الظفر التفكير في الفوائد التي كانت ستحصل من تخـريب جسر اليرموك، وضاع معها فشل لورنس، ولكن القضية التي اختلقها لـورنس لتغطيـة فشلـه بقيت، لأنهـا عـلى مـا يظهـر راقت لـه وأشبعت منه ميوله الملحة عليه.

١٣

الاستيلاء على محطة جرف الدراويش

وصل لورنس إلى العقبة عائداً من الأزرق بعد فشله في نسف جسر اليرموك ليتلقى أمراً بالتوجه إلى القيادة العامة قرب غزة. وهناك علم بسقوط القدس وتقدم الجيش البريطاني. وطلبت إليه القيادة البريطانية كضابط اتصال مع الجيش العربي إبلاغ القيادة العربية بوضع الجيش البريطاني الجديد وتجاوزه لمدينة القدس وتقدمه نحو الرملة. وبأن هذا الوضع جعل الجيش العربي الذي لا يزال في نواحي القويرة متأخراً عن محاذاة الجناح الأيمن للجيش البريطاني، وأن الأتراك أصبحوا يشكلون خطراً على هذا الجناح من جهة البحر الميت الذي يستعملونه كطريق مواصلات لتموين قطعاتهم. ورجا قائد الجيش البريطاني أللنبي من قائد الجيش العربي الأمير فيصل العمل للتقدم نحو الشمال والسعي لعرقلة استعمال البحر الميت للتموين والمواصلات، وفي الوقت نفسه يقوم بستر الجناح الأيمن للجيش البريطاني.

ولما عاد لورنس إلى مقر فيصل لتبليغه هذا الموقف الجديد، وجد أن القيادة العربية منهمكة في وضع خطة للتقدم بجيشها إلى الشمال، وريثما تتهيأ لها الإمكانات اللازمة، قررت الاستيلاء على مدينة الطفيلة وهيأت لذلك ثلاث مفارز صغيرة.

المفـرزة الأولى من البدو بقيـادة الشريف مستـور ومعـه شيـخ مشايخ الحويطات حمد بن جازي، يـرافقهم الملازم محمـد علي العجلـوني، يتقدمـون من وادي عربـة نحو الطفيلـة، والمفـرزة الثانية من البـدو أيضاً بقيـادة الشريف عبد المعـين تتقدم من وادي مـوسى ـ الشويـك ـ الطفيلة. والمفـرزة الثالثـة (وهي من الجنـد النظـامي) بقيـادة الشريف نـاصر بن عـلي وقـائـدهـا العسكـري رئيس أركـان الجيش نـوري السعيـد تتكـون من مدفعين، وسرية بغالة، وفوج مشاة، وسرية رشاش وكنت آمرهـا ومفرزتي تخريب ونحـو ١٥٠٠ مقاتـل من عشيرتي بني صخـر والحويطات بقيادة عودة أبو تايه. وقد حدد لهذه المفارز الثلاث هدف واحد وهو مدينـة الطفيلة، يتعـاونون في سبيـل الوصـول إليها حسب توقيت دقيق.

في الـوقت الذي كـان يجري فيـه ترتيب هـذه المفـارز، كنت في العقبة قد أتممت أمر تنظيم سريتي وتدريبهـا بصورة مـرضية وأكملت نواقصها من تجهيزات وقطع تبديل وحيـوانات، بحيث أصبح جميع منتسبيها راكبين، وتقـرر أن أبقى مرتبطـاً بالمقـر العام كآمر وحدة مستقلة بصلاحية قائد فوج (وبقيت كذلك إلى نهاية الحرب). وفي أوائل شهر كانون الثاني ١٩١٨ تبلغت أمراً بالحركة إلى القويرة وفيها علمت بتشكيل القوة التي ذكرتها.

وفي اليوم التالي من وصول سريتي إلى القويرة تحركنـا متجهين نحو باير، فقطعنا السكة الحديدية من شمال معان. فوصلنا إلى موقع الجفر وهو بئر ماء اتخذه عودة أبو تايه مقراً له، وقد بنى فيه قلعة حصينة، وبقينا في الجفـر يومـين، ننتظر تجمـع رجال عشيرتي بني صخر والحويطات الـذين سيرافقـوننا. وفي اليـوم الثالث تحركنا من الجفر إلى موقع (وادي الفـرس) الواقـع إلى الشرق من محطة جرف الـدراويش. في صباح يـوم ١١ كانـون الثـاني ١٩١٨ تحركت المفـرزة إلى موقـع (غدران أبـو طليحة)

الواقع على مسافة قريبة من شرقي المحطة. وقبل المساء ذهب قائد المفرزة نوري السعيد ومعه قادة الوحدات للاستطلاع وتقرير الخطة وتوزيع الأهداف.

في نحو الساعة الثالثة من يوم ١٢ كانون الثاني تحركت القوات نحو الأهداف المعينة لها ومع بزوغ الفجر ابتدأت المعركة فتفجرت الألغام في شمال وجنوب السكة، وفتحت المدفعية والرشاشات نارها على مواقع الأتراك. ونجحت المباغتة وذهل الأتراك وارتبكوا، فتركوا مواقعهم مع مدفعهم الوحيد وانسحبوا باتجاه المحطة. فاستولينا على المدفع بسرعة واديرت فوهته على المنهزمين ليشترك مع مدفعينا برميهم. وقامت مشاتنا بتعقب المنهزمين. وأثناء ذلك قام عودة أبو تايه بخيالته بهجوم صاعق على المحطة ولما شاهد البدو هذا الوضع وأنه لم يبق أمامهم عدو متحصن، بدأوا بمهاجمة المحطة من جهتيها الشمالية والجنوبية. واستسلمت جميع القوات التركية.

وانتهت المعركة التي استمرت بجميع مراحلها زهاء ساعتين فكان مجموع خسائر الأتراك نحو ثمانين قتيلاً ومائتي أسير منهم ثمانية ضباط، بقيادة عقيد. ووجدنا في المحطة قاطرتين مع خمسين مقطورة محملة بالمؤن والذخائر والعتاد، في طريقها إلى المدينة.

بعد أن انتهت مفرزتنا التخريب من نسف الجسرين، قامتا بوضع المتفجرات في المباني ومخزن الماء والقاطرات وبعد أن أخلينا المحطة وابتعدنا عنها أشعلت الشريط وفجرتها. وأخذنا في الانسحاب شرقاً حيث قضينا ليلتنا في موقع (غدران أبو طليحة) وفي الصباح استأنفنا مسيرنا مع ما معنا من أسرى، وعسكرنا في معسكرنا السابق (وادي الفرس).

وهنا تقرر شطر المفرزة إلى قسمين. فالمدفعان وفوج المشاة

ومفرزة الصحة ومعهم الأسرى يعودون بقيادة نوري السعيد إلى القويرة. وسريتا البغالة والرشاش وهجانة عقيل، والمدفع الذي غنمناه من المحطة مع مفرزتي التخريب وعشائر الحويطات بقيادة عودة أبو تايه كل هؤلاء يعودون إلى عبور الخط بقيادة الشريف ناصر يعاونه القائد راسم سردست متوجهين نحو الطفيلة للاستيلاء عليها مروراً بجرف الدراويش.

لقد تحدث لورنس في الصفحة ٣٢٨ من كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) عن هذه الموقعة بصورة مقتضبة لأن لورنس لا ينقصه الذكاء الذي يجعله يحسن التقدير بين المواقف التي تسمح له أن يصول ويجول بالادعاء كما يشاء، وبين المواقف التي يحسن به الاقتصار على القدر الأقرب إلى المعقول.

قال:

««كان أللنبي يرغب منا أن نتجه شمالاً نحو البحر الميت، ونحاول الاتصال بجناح قواته الأيمن ونكون جبهة واحدة معه إذا كان ذلك ممكناً. ولحسن الحظ كنت قد واجهت إمكان القيام بمثل هذه المحاولة مع فيصل الذي كان يعد هجوماً على الطفيلة كمرحلة أولى ضرورية».

إذاً كان فيصل يستعد للتقدم إلى الشمال قبل عودة لورنس من عند أللنبي وقبل أن يبلغه رغبته.

وقال أيضاً:

«وكالعادة بعد النصر كانت الاحمال ثقيلة، فخيمنا وراء المحطة التي اضرمنا النيران في مبانيها. ونحو منتصف الليل سمعنا انذاراً ثم ظهرت أنوار قطار قادم إلخ...».

يقصد بأنه كان حاضراً المعركة وينسى قوله قبل ذلك:

«وبقينا في القويرة حتى جاءنا الخبر بأن العمليات ضد الطفيلة قد بدأت».

إن العمليات ضد الطفيلة بدأت عقب الانتهاء من عمليات جرف الدراويش مباشرة، وبفاصلة يوم واحد وهو اليوم الذي جرى فيه شطر المفرزة إلى قسمين: قسم عاد إلى القويرة وقسم توجه إلى الطفيلة كما سبق بيانه. إذاً فلورنس ناقض نفسه بنفسه فتارة يقول بقينا بالقويرة حتى جاءنا الخبر بأن العمليات ضد الطفيلة قد بدأت، وتارة يصف المعركة وكأنه كان حاضرها.

إنني كنت في هذه المفرزة قائداً لوحدة، أحضر جميع الاجتماعات التي كانت تقرر بها الخطط، وتصدر بها الأوامر وتوزع بها الواجبات، فلو أن لورنس كان معنا، لما كان يمكن أن يفوتني ذلك، إنه لم يشترك في هذه المعركة من أساسها.

١٤

الاستيلاء على الطفيلة

بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ استولينا على محطة جرف الدراويش، وفي تلك الليلة بتنا في موقع غدران أبو طليحة شرقي الخط، وفي صباح يوم ١٣ منه تحركنا نحو موقع وادي الفرس وهنا التحق بنا شيخ مشايخ الطفيلة دياب العوران. وانشطرت المفرزة إلى قسمين كما بينا ذلك فعاد القسم الأكبر منها إلى القويرة وفي مساء ١٤ منه تحرك الباقون للإستيلاء على مدينة الطفيلة.

عبرنا الخط نحو الغرب وبتنا ليلتنا في موقع التوينة الذي لا يبعد كثيراً عن الطفيلة، وفي صباح اليوم الثاني في ١٥ منه تحركنا نحوها. وكان يتقدم المفرزة الشريف ناصر يرافقه عودة ابو تايه وخيالته وشيخ الطفيلة دياب العوران الذي انحاز إلينا وعلى بعد كليومتر من المدينة وقفت المفرزة انتظاراً لما ستؤدي إليه المفاوضات التي كانت تجري مع قائد الحامية التركية المرابطة فيها وقد أخذت مواقعها في دار الحكومة والمرتفعات المحيطة بها.

كان أهل الطفيلة مصممين على القتال بجانب الأتراك، لا حباً بهم ولا ولاء لهم ولكنهم كانوا خائفين من دخول البدو إلى بلدتهم ونهبها. وتدخل شيخهم دياب العوران بالأمر وحال دون ذلك، وأفهمهم أنه أصبح بجانب الشريف.

وطال أمر المفاوضة مع قائد الحامية التركية، وهو عربي دمشقي اسمه (زكي الحلبي) برتبة نقيب. وأراد أهل البلدة الذين أعلنوا انحيازهم إلينا أثناء هذه المفاوضات، أن يستولوا على بغال الحامية فقتلوا منهم ثلاثة. وأخيراً وافق قائد الحامية الذي كان يشعر بشعورنا، ولكنه يخاف من أن يتعرض جنوده للنهب والقتل. وافق على الاستسلام للقوة النظامية. وعلى ذلك أرسل الشريف ناصر إليهم ضابطاً مع بعض الجنود فاستسلموا لهم. وهكذا دخلنا الطفيلة بدون قتال وذلك بعد ظهر يوم ١٥ كانون الثاني ١٩١٨. وكان عدد أفراد الحامية ٨٦ ضابطاً وجندياً.

في ١٦ كانون الثاني أي في اليوم التالي لدخولنا الطفيلة، وصل إليها الأمير زيد وبمعيته القائد العام جعفر العسكري وبرفقتهم سرية مشاة والمدفع الجبلي الذي كان في وادي موسى بقيادة الملازم حسين المدفعي.

عيّن النقيب اسماعيل نامق (رئيس أركان الجيش العراقي فيما بعد) قائممقاماً للبلدة. فأخذ بتطويع من كان فيها من رجال الأرمن الذين كانت الدولة العثمانية قد أبعدتهم مع أسرهم إليها فتشكلت منهم ومن غيرهم سرية مشاة بقيادة الملازم سلمان الجنابي. كما قام بتنظيم قوة من الدرك والشرطة ومركز للإعاشة.

وداهمتنا منذ وصولنا الطفيلة أمطار غزيرة مع برد شديد لم تر تلك البلاد مثلها منذ سنين كثيرة. وفي صباح أحد الأيام، وقد انقطعت الأمطار وانقشعت الغيوم، وأطلت علينا الشمس بنورها الدافىء، بعد تلك الأيام القاسية التي قضيناها في غرف مظلمة رطبة تحت وطأة براغيث الطفيلة الشهيرة. فأخرجنا حيواناتنا لتنظيفها ولنستفيد من أشعة الشمس كما اخرجنا أسلحتنا لتنظيفها في الساحة الكائنة بقرب المدرسة ذات

الغرفتين في جنوب البلدة. وبينما كان الجنود يقومون بأعمالهم فرحين مغتبطين بهذا الطقس الجميل وكنت أتجول بينهم لمساعدتهم ومعي آمر الرعيل الأول بسريتي الملازم بهاء الدين نوري (معاون رئيس أركان الجيش العراقي فيما بعد) إذ شاهدنا رجلاً بملابس عربية جالساً على عباءته المفروشة على الأرض وقد نزع الأقسام العليا من ثيابه وكوفيته فظهر جسمه الناصع البياض وهو يتظاهر بتنقية ثيابه مما تخللها من قمل. إن هذا المنظر ليس غريباً عنا فكنا نشاهده في كل يوم، إنما الغريب بالأمر كون هذا الرجل إنكليزياً، وذلك واضح من بياض بشرته وزرقة عينيه وملامح وجهه. وقد خطر لنا للوهلة الأولى بأنه يجب أن يكون الإنكليزي لورنس الذي طالما سمعنا عنه دون أن نراه وأنه يرتدي الملابس العربية ويركب الدلول ويحاول تقليد البدو.

يجدر بنا بهذه المناسبة أن نعيد ما ألمحنا إليه سابقاً، من اننا كنا نعمل تحت ضغط تأثير نفساني ومجموعة من الأفكار المتضاربة، لقد أصبحنا نكره الأتراك بسبب المساوىء والمظالم التي أنزلوها بنا ولا يزالون ينزلونها بأمتنا. صرنا نشعر بقوميتنا وبأنه أصبح لنا كيان وقضية قومية وبأننا لا نزال في أول الطريق تكتنفنا المصاعب من جميع أطرافنا، لم نقف بعد على أرجلنا كما يجب، نتلفت حولنا خوفاً من طامعين جدد ومن أن نكون كالمستجير من الرمضاء بالنار خائفين من تبدل الحكم التركي الظالم القاسي بحكم أكثر مرارة وظلماً ولكنه بأيد تلبس قفازات ناعمة. لقد أصبحت هذه الأفكار التي لا تفارق أذهاننا عقدة نفسية تثور وتتهيج كلما شاهدنا إنكليزياً أو فرنسياً، ويدفعنا شعورنا هذا بتأثير مركب النقص الذي تكوّن عندنا إلى الهزء بهم من حيث لا نقصد ذلك.

لقد أوحى إلينا منظر هذا الإنكليزي أنه كان يهزأ بنا وكأنه

كان يعتبرنا أطفالاً ليس لنا الإدراك الكافي لفهم حقيقة أمره. إن وضع هذا الإنكليزي ليس بغائب عن أحد ولو سألنا أي جندي أو بدوي بسيط عنه لأجابنا بما كنا نشعر به نحن. وليس من شك بأن لورنس كان يعلم أن تظاهره هذا لا يخدع أي واحد من العرب. ولكنه كان يقوم بذلك للدعاية لنفسه وللتمرين، ولخداع أبناء قومه من الإنكليز ليظهر أمامهم بمظهر البطل المغامر، وبأنه خبير بشؤون البدو حتى أصبح كواحد منهم.

هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها لورنس. فاقتربنا منه لنتحدث إليه، فكان يحاول اخفاء شعوره بعدم رضاه عن التحدث معنا وعدم ارتياحه للهجتنا المتشككة التي لاحظها. وكان يسعى بتصنعه أن يخفي طبيعة الكبرياء والتعالي التي يتطبع بها كل إنكليزي. فعلمنا أنه وصل الطفيلة بعد دخولنا إليها بأربعة أيام، وأنه يسكن في إحدى غرفتي المدرسة التي يسكن غرفتها الثانية الشابان العربيان رئيسا مفرزتي التخريب، وأن بصحبته خمساً من البدو وأن هناك عشرة أخرين أَذِنَ لهم في الذهاب إلى أهلهم بسبب الأمطار. وأن هؤلاء الخمسة عشر من مرتزقة البدو قد جندهم لخدمته وللتنقل بحراستهم كأدلاء للطرق.

في صباح ٢٤ كانون الثاني ذهبت برفقة بعض الضباط إلى مقر قائد المفرزة راسم سردست لوداعه والسلام على قائد المفرزة الجديد الرائد عبدالله الدليمي. وأثناء وجودنا وردت أخبار مفاجئة عن تقدم الأتراك بقوات كبيرة لاسترجاع الطفيلة. وكانت الأخبار تتلاحق والمبالغات بعدد القوات الزاحفة تتجاوز المعقول، وما كادت تمر ساعة من الوقت حتى انتشرت هذه الأخبار المضخمة في جميع أطراف البلدة والقرى المجاورة. وبدأنا نشاهد النساء والأطفال منهمكين بنقل أمتعتهم إلى

الغابات التي في غرب المدينة، والرجال حاملين أسلحتهم، منهم من اتخذ طريق الكرك لمواجهة الأتراك، ومنهم من ينتظر انجلاء الموقف. وكان مهاجرو الأرمن أكثرهم خوفاً وارتباكاً وقد عولوا على الانسحاب معنا إذا ما اضطررنا إلى الانسحاب خوفاً من عودة الحكم التركي، خصوصاً وقد تطوع قسم من شبابهم معنا.

وعند الظهيرة تلقينا أمراً بإخلاء البلدة، والتوجه إلى الهضبة الواقعة إلى شرقها والتي كنا اشغلناها يوم تقدمنا إلى الطفيلة، وهي تقع على الطريق المتجة إلى الكرك. وأمرنا بحفر مواقع دفاعية باتجاه العدو المتقدم على طريق (الكرك ـ الطفيلة). إن الدفاع في هذا المحل على ما يظهر صوريٌ وغير جدي لأن هذه الهضبة كانت منخفضة تسيطر عليها هضاب مرتفعة. وكان السبب في اشغالها هو الانتظار حتى انجلاء الموقف وإعطاء القرار على ضوئه. وبقينا متيقظين طيلة هذه الليلة، نسمع الأخبار المتناقضة من الآتين والذاهبين. وكانت آخر الأخبار أن العدو قد اجتاز وادي الحسا الكبير الذي يفصل منطقتي الكرك والدافيلة، ويمتد بين تلك الجبال الشاهقة من محطة سيل الحسا شرقا حتى البحر الميت غرباً. وان العدو يتقدم نحو الطفيلة وان البدو والقرويين يناوشونه من كل مكان.

في تلك الليلة غادر الأمير زيد معسكره في جنوب المدينة ومعه جعفر وراسم سردست ودياب العوران مع خيالة الأمير وهجانته وجاءوا إلى قرب مواقعنا، وقبيل الظهر في ٢٥ منه حضر جعفر العسكري لمواقعنا وأبلغنا أن العدو الذي كان يتقدم نحونا بدأ يضيع زخم تقدمه، وأنه تقرر أن نقابله قبل وصوله إلى المنحدرات المشرفة على البلدة وانه سيصطحب معه قسماً من القوات النظامية لتقوم بإسناد وتشجيع البدو والقرويين الذين يقاتلونه ببسالة. وأمر أن تتبعه سرية البغالة وأحد المدافع

وإحدى فصائل سرية الرشاش، وان تظل القوة المتبقية وهي مدفع واحد ورشاشان وسريتا المشاة في مواقعها، بأمرة النقيب اسماعيل نامق إلى إشعار آخر. ولقد أبقيت الرعيل الأول واصطحبت الرعيل الثاني، وشرعت بالمسير وخلفي المدفع الجبلي من نوع (المانتلي) الذي غنمناه من محطة الجرف. أما سرية البغالة فقد سبقتنا بأمرة آمرها الملازم أشرف. وكان قائد المفرزة الجديد عبدالله الدليمي قد تقدم نحو العدو منذ الفجر للإطلاع على الموقف، اجتزنا صعداً مشارف الطفيلة الشمالية إلى أرض منبسطة نسبياً، ووصلنا إلى خربة تسمى (خربة نوخه) تقع على جانب الطريق المؤدي إلى الكرك (غير معبد). وهنا شاهدنا الأمير زيد وجعفر العسكري ومعهما من ذكرناهم يضاف إليهم حمد بن جازي ولورنس. وكانت جماعاتهم متفرقة هنا وهناك خلف بعض العوارض. وشاهدنا من هناك العدو وقد اشغل بعض المواقع على مرتفعات تمتد من الشرق إلى الغرب، تفصله عن الموقع الذي نحن فيه (نوخه) بنحو ٣٠٠٠ متر. كان الموقف هادئاً تقريباً إلا من بعض أصوات البنادق الآتية من بعيد باتجاهات مختلفة، وبعد نصف ساعة وصل المدفع إلى المحل الذي كنا فيه، وجاء جعفر العسكري إلى المحل الذي نحن فيه وجمع الضباط وشرح لنا الموقف فأشار إلى الخط الذي يشغله العدو وقال: يظهر أنه توقف عنده، وأن البدو والقرويين يضايقونه من جميع الجهات. وأمر راسم سردست أن يستصحب سرية البغالة ويذهب برفقة حمد بن جازي وخيالته نحو جناح العدو الأيسر، وإذا أمكن اجتياز جناحه إلى الخلف لمضايقته وتشجيع من هم على ذلك الجناح من البدو فذهبوا. وأمر آمر المدفع أن يدخل في موضع على يمين الطريق ويتهيأ للرمي عند صدور الأمر إليه وأمرني أن أتمركز في مواقع على يسار الطريق.

كانت المواقع التي يشغلها العدو واضحة لنا، وكنا نحن أيضاً

ظاهرين، ولكنه لم يفتح علينا نار مدفعيته مما يدل على أنها لا تزال بعيدة وأنها مرتبكة بالسير في تلك الأراضي الصعبة خلال الطلقات التي لا يعرفون لها استقامة.

انتقل الأمير ومن معه وبينهم لورنس إلى موضع على يسار الطريق يقع خلفنا ولا يبعد عنا كثيراً، وأثناء ترصدي بالمنظار شاهدت تجمعاً من القرويين فوق الهضبة التي تشرف على جناح العدو الأيسر تبعد عنه نحو ٥٠٠ متر وكانت تصلنا ضوضاؤهم وحداؤهم[1] وكانوا يتكاثرون بصورة مستمرة. خطر لي وأنا أشاهد هذا الموقف أنه لو كان لهؤلاء من يسندهم ويشجعهم على التقدم نحو جناح العدو لفعلوا الكثير. واستمرت هذه الفكرة تتجسم في خاطري كلما سمعت ضوضاءهم وتكاثر جموعهم وخطر لي أن أرجو القائد العام جعفر أن يأذن لي بالذهاب إليهم لأشجعهم على التقدم بمساعدة الرشاشات، ولكن جعفر كان بجانب الأمير زيد الذي لا يعرفني ولم يسبق لي التكلم معه، فخفت أن يهزأوا بي لخطورة تطبيق هذه الفكرة وانني بالنسبة لهم لا أزال جديداً، ولم يظهر لهم مني ما يوحي إليهم بالثقة والاعتماد، خصوصاً وقد كنت ما أزال شاباً لم ينبت في وجهي إلا القليل من الشعر. وكلما مر الوقت كنت ازداد قناعة بنجاح فكرتي حتى أصبحت اعتقد بأنها لو طبقت لحققت لنا النصر. وبدأت أفكر بطريقة مناسبة لتطبيقها، وهذه فرصة مؤاتية لتحقيق رغبتي وتمكيني من القيام بعمل مفيد.

وأخيراً قررت أن أقوم بهذا العمل على مسؤوليتي. فجمعت آمر الرعيل وأمراء الرشاشات وبينت لهم خطة الحركة وأمرت آمر الرعيل أن يبقى مع الحيوانات وأن تكتفي الرشاشات بأخذ المناصب الصغيرة (المنصب هو الركيزة التي ينصب عليها

---

(١) الحدو هو ما يشبه الغناء أو النشيد عند البدو، والقروين انصاف البدو في سوريا يستعملونه بطريقة تختلف قليلاً عن البدو.

الرشاش) وبسرعة خاطفة اندفعنا منحدرين نحو الوادي وبعد فترة فتحت علينا جميع رشاشات العدو نيرانها، وكانت على ما يظهر كثيرة العدد، ولكن بعد المسافة ومفاجأة الحركة وسرعتها، فوتت عليهم إمكانية حسن تركيز نيرانها علينا، إن تركيز الرمي يتطلب تخمين مسافة صحيحة والتخمين يحتاج إلى وقت، وبسرعتنا الفائقة كنا نجتاز المسافة ونضيع عليهم الوقت الذي يحتاجون إليه.

ووصلنا جميعاً إلى الزاوية الميتة التي تمنع الرؤية بيننا وبينهم، سالمين. وارتمينا على الأرض يكاد واحدنا يختنق من الإعياء وضربات القلب. وأخبرني قائد المفرزة عبدالله الدليمي الذي كان بقرب الأمير زيد عندما قمنا بحركتنا أنَّ جميع من كان هناك تعجبوا من هذه الحركة المفاجئة واعتبروها حركة جنونية ومخالفة للأوامر، وسأل الأمير من يكون هذا الضابط؟ فأخبروه عني، وقرروا ضرورة معاقبتي إن عدت سالماً لأن إيصال الأمر بعودتي لم يكن ممكناً.

وبعد أن استرحنا قليلًا استأنفنا التقدم داخل الوادي بأمان، حتى وصلنا إلى أسفل الهضبة التي يشغلها العدو وكنا نشاهد التل الذي كان يشغله القرويون، وقد أصبح على بعد نحو ٦٠٠ متر إلى يسارنا تماماً وهنا بدأت أفكر في الطريق الذي يوصلنا إليهم، بعد أن أمرت الرشاشين بدخول الموضع وبتوجيه الرشاشات باستقامة العدو الذي لم يكن يشاهدنا ولا نحن نشاهده.

في هذه الأثناء شاهدت ثلاثة رجال يتقدمون نحونا من بطن الوادي. وعلمت أن اثنين منهم من أهالي قرية عيحه، والثالث جندي يماني ترك سريته المرابطة قرب الطفيلة وجاء للاشتراك في المعركة، وبأنهم كانوا يقصدون الالتحاق بأهل عيحه المتجمعين فوق التل وأخبرونا أنهم سمعوا أن جنوداً كثيرة

وصلت من وادي موسى لتقويتنا وبأنها على وشك الوصول إلى الطفيلة وسألني أحدهم عما نريد عمله. في هذه اللحظة حضرتني فكرة جديدة اعتقدت بأنها أصلح وأسرع من فكرة وصولي إلى التل فقلت لهم إننا سرية رشاش، ومعنا عشرة رشاشات كبيرة ونحن ننتظر هنا وصول سرية مشاة التي ستصلنا بعد قليل، وعند وصولهم سنقوم بمهاجمة العدو على هذه الهضبة التي أمامنا ثم قلت لهم الأوفق أن نتعاون مع هؤلاء الذين فوق التل لتوحيد هجومنا. أخبروهم أن لا يقوموا بالتقدم حتى نشرع نحن فيه حيث يكون العدو قد انشغل بنا، ويصبح تقدمهم أسهل. ثم قلت لهم: اذهبوا إليهم وأخبروهم بهذه الخطة فإذا وافقوا عليها اعلموني بأن تلوحوا بكوفية بيضاء وعندها نلوح لكم نحن بكوفية مثلها تعني اننا شاهدناكم وعلمنا موافقتكم، وسوف لا أشرع في التقدم إلا بعد وصول المشاة وستعلمون تقدمنا عند سماعكم أصوات رشاشاتنا وبنادق مشاتنا، وعندها تشرعون أنتم في التقدم.

لقد كان لكل رشاش ثمانية جنود ثلاثة منهم يستعملون الرشاش، وأربعة للتناوب على الرمي وتقديم العتاد وواحد هو آمرهم وجميعهم يحملون البنادق، لقد كان لدينا إذاً ست عشرة بندقية ورشاشان وكان مع كل رشاش طقاقتان من خشب، ولكل واحدة أسنان فإذا لوح بها خرج منها صوت أشبه بصوت الرشاش الحقيقي، وتستعمل هذه الطقاقات للغش وإيهام العدو بكثرة الرشاشات وقد وزعت الرشاشات والطقاقتان والبنادق على مسافة كبيرة لأوهم في هذه المرة جماعتنا لا عدونا بكثرة رشاشاتنا وعددنا لتشجيعهم.

بدأنا الرمي باستقامة العدو دون أن نراه أو يرانا وشاهدنا القرويين وقد بدأوا بتقدمهم ونحن نسمع حداءهم وشرعنا نحن أيضاً بتسلق الجبل ببطء ولكن برمي متصل وبدأنا نسمع رمي

مدفعنا ثم رمي مدفعية العدو على موقع نوخة. وقد غاب القريون عن انظارنا بينما كنا لا نزال نسمع أصواتهم التي كانت تشعرنا بتقدمهم المستمر وبمقدار المسافة التي وصلوا إليها والتي كانت تقصر كلما زاد تقدمنا.

وكنا على نحو خمسين متراً من خطوط العدو وكنا لا نزال في زاوية ميتة وغير مرئيين لهم يسمعون طلقاتنا دون أن يرونا وفي هذه الأثناء سمعنا ضوضاء اشتباك في أقصى اليمين من جناح العدو ـ فقدرت أن القرويين وصلوا إلى جناح العدو الأيمن وأن العدو ينسحب لأن البدو وغيرهم من القرويين لا يهاجمون عدواً مرابطاً في موضعه، فهجومهم عليه يدل على انسحابه من المواضع. وفي الوقت نفسه سمعت صوت عريف الرعيل من جناحنا الأيسر يؤشر لي أن العدو أخذ ينسحب واندفع العريف إلى الأمام. وخلال لحظات وصل إلى القمة وهو يكرر إشاراته بانسحاب العدو واندفعنا مسرعين ووصلنا القمة وشاهدنا جنود الأتراك وهم يلقون أسلحتهم أمام القرويين الذين كانوا يركضون خلفهم ويقتلون كل من لا يلقي سلاحه ويسلبون ما تصل إليه أيديهم مما تركوه. وشاهدت أمامي ضابطاً قصيراً ضخم الجثة خائفاً محتاراً يحاول الركض بصعوبة، وجريت خلفه وأمسكته من رقبته وصاح بالتركية (أمان أوغلم قيمة بنا) بمعنا دخيلك يا بني لا تقس عليّ فطمأنته ورجاني أن اسمح له بالجلوس وهو يلهث فسمحت وجلس على صخرة.

لم يكن أمامي ما أفعله، لأن الرمي أصبح غير ممكن، فالقرويون قد اختلطوا بالأتراك في كل جانب وخط الدفاع التركي انفرط عقده، والقرويون يتعقبون المنهزمين فلم يبق أمامي إلا البقاء في المحل الذي أنا فيه وأن أكتب تقريراً إلى قائد المفرزة وأعلمه بهزيمة العدو، وبعدم إصابتنا بأي خسارة وبأنني منتظر أوامره. كما كتبت أمراً لنائب الضابط بسرعة

إحضار الحيوانات إلى المكان الذي نحن فيه.

وبدأ القرويون يأتون بما استولوا عليه من رشاشات العدو، فيضعونها أمامي طالبين مني قيد اسمائهم بما سلموه ليقبضوا المكافأة. وكانوا يحتفظون لأنفسهم بالبنادق، ويهملون أمر الجنود فيرسلونهم إلينا بعد أن يستولوا على أسلحتهم. وجميعهم كانوا مستعجلين حريصين على عدم إضاعة الوقت ليتمكنوا من الاستيلاء على أكبر قدر من الغنائم، وفي كل دقيقة كان يزداد عدد الضباط والجنود والرشاشات، وخلال نصف ساعة غاب عنا جميع القرويين ولم نعد نرى أحداً لا منهم ولا من الأتراك. ولكن أصوات الطلقات المتقطعة كانت لا تزال تسمع من جميع الأطراف، وأصبح أمامنا كومة من الرشاشات وأدواتها ونحو ثمانين أسيراً بين ضابط وجندي بينهم بعض المصابين بجراح خفيفة. وقربت الشمس من المغيب ونحن وحدنا مع هؤلاء الأسرى ننتظر الأمر ووصول الحيوانات. وبينما نحن في هذه الحالة التي نكاد نطير فيها من الفرح والسرور، عقد جنودنا حلقة رقص راحوا يغنون ويرقصون وكان قائد اللواء التركي المقدم كنعان بك ذلك الضابط الضخم الذي ذكرته بجانبي يتملقني ببعض العبارات التافهة. ووصلت الحيوانات ومعها المراسل الذي ارسلته بتقرير إلى قائد المفرزة ومعه كتاب من القائد العام جعفر فيه شكر وثناء وأمر بعودتنا إلى الطفيلة.

فحملنا ما تجمع عندنا من رشاشات العدو على حيوانات الركوب وكذلك جرحى الأتراك غير القادرين على المشي. وسرنا وأمامنا الأسرى يسيرون برتل مزدوج، بعدما أفهمتهم ألا يحاولوا الهرب لأن وجودهم معنا آمن لهم. وكان كنعان بك يسير بجانبي عندما وصلنا إلى المنحدر الذي بدأنا منه قفزتنا فسألني ألستم سبعة عشر شخصاً؟ قلت نعم ما عداي فقال:

كنــا نعدكم وأنتم تجتــازون هذه المنطقــة المهلكة ونتعجب وكنــا نتساءل عما تريدون القيام به وأنتم بهذا العدد القليل فقلت له: كنا نريد أن نقوم بما رأيت وقصصت عليه ما فعلناه فــأجابني بهذه الجملة التي تــرجمتها - «واللــه يا ابني إذا كنتم جميعكم تعملون بهذه الروح فإنكم سوف تستقلون وســوف تضطروننــا لتــرك بلدكم» وســألني أيضاً: أليس معكم قــادة إنكليــز؟ فلمــا أجبته بالنفي وبأن جميع قادتنا وضباطنا عــرب ممن كانــوا في الجيش العثمــاني تعجب وقال: لقــد قيــل إن قــادتكم إنكليــز. فبينت لــه حقيقة وضعنــا والأسباب في ثــورتنا، واتفــاقنــا مــع الإنكليز وغايتنا التي نعمل من أجلهــا. فقال إن كــل هذا كــان مجهولاً عندنا وأنه لو كان معروفاً لكان الملتحقون بنا أكثر عدداً مما هم عليه الآن.

ووصلنا خربة نوخة فلم نجد فيهــا أحداً، فتــابعنا المســير حيث وصلنا إلى الطفيلة قبل منتصف الليل بقليل. وعلى مدخل البلدة وجــدت بانتظــاري جنديــاً يبلغني أن القائــد جعفر العسكــري ينتظرني في دار الشيخ دياب العوران. ولما دخلت الغرفة وجدت الأمــير زيد وجعفــر وعبداللــه الدليمي وراسم سردست وديــاب العوران وحمد بن جازي ومعهم لورنس. فاستقبلوني استقبــالاً حسناً وسمح لي الأمــير بالجلــوس، وسألني عن الــوضــع، وعن قيامنا بتلك الحركة دون أمر، فشرحت لهم الحــركة كمــا رويتها فأبلغوني ترقيتي إلى رتبة ملازم أول ومنحي إكرامية ألف جنيه ذهبي فشكرتهم على الترفيع ورفضت المبلغ وبعد إصرار قبلتــه بــاسم السرية وليس بــاسمي شخصياً وأمــرت بــإضــافتــه إلى صندوق السرية.

وفي اليوم التالي تلقيت أمــراً بإحضــار ما تجمــع من رشاشــات لإرسالها إلى القويرة برفقة قافلة الأسرى فجمعنــاها بــالساحــة وفرزت منها أحسن رشــاشين مــع كل مــا يلزمهمــا من أشرطة

وقطع تبديل وشكلت منهما رعيلاً ثالثاً، فأصبحت السرية تتشكل من ثلاثة رعال أي ستة رشاشات أربعة إنكليزية (فكرس) واثنان المانيان (مكسيم). لقد كان مجموع الرشاشات التي غنمناها ـ ٢٨ رشاشاً كبيراً مكسيم و١٤ رشيشاً.

وأثناء قيامنا بتنسيق هذه الرشاشات كان لورنس أمام الغرفة التي كان يشغلها في المدرسة فاقترب منا وصار يحدثني عن انطباعاته عندما شاهدنا نتقدم نحو الوادي وقال: إنه ما كان ينتظر أن يصل منا أحد سالماً، ثم طلب إليّ أن يأخذ لي صورة بين تلك الرشاشات. وبعد أن صورني وقف إلى جانبي وأعطى الآله لخادمه فأخذ لنا صورة. وبعد ذلك بمدة أراني لورنس مجلة إنكليزية فيها تلك الصورة التي كان فيها بجانبي واعتذر عن عدم إمكانه اعطاؤها لي بسبب عدم وجود غيرها ووعدني بأن يأتي لي بواحدة.. ولكنه لم يف بوعده.

لم اقرأ ما كان مكتوباً تحت تلك الصورة. ولكنني بعدما مرت السنون، وقرأت ما كتبه لورنس عن موقعة الطفيلة وأنه كان قائدها وبطلها وعن مكافأته بأكبر وسام عسكري إنكليزي وترقيته إلى رتبة كولونيل، أقول بعد أن قرأت ذلك خطرت لي تلك الصورة وما كان يمكن أن يكون لورنس كتبه عنها بتلك المجلة من أنه هو الذي غنم هذه الرشاشات وأن الشخص الذي بجانبه هو تابعه أو أحد جنوده.

ما قاله لورنس عن موقعة الطفيلة

والآن، بعدما بينا تفاصيل مجرى المعركة والعمل الحقيقي الذي قام به لورنس يجدر بنا أن نبين خلاصة ما جاء في تقريره الذي نشره في «النشرة العربية»[٢]:

(٢) من كتاب **لورنس والعرب** لسليمان موسى.

«إن القوة التركية تماست مع طلائعنا في سيل الحسا عصر يوم ٢٤ كانون الثاني، وتمكنت من صد الطلائع أثناء الليل، وكان ضباط العرب قد أعدو موقعاً دفاعياً جنوب البلدة وعند منتصف الليل تحرك الشريف زيد نحو ذلك الموقع فدب الذعر بين الأهلين... وعند الفجر ذهبت إلى الشريف زيد واقنعته بأن يرسل عبدالله افندي مع رشاشين إلى بعض الفلاحين الذين كانوا لا يزالون صامدين بالقمة الشمالية وقد شجعهم وصوله على القيام بهجوم معاكس أدى إلى رد خيالة الترك إلى الوراء وقد تردد زيد في إرسال النجدات فذهبت إلى موقع عبدالله. ولم ألبث أن التقيت به عائداً بعدما قتل خمسة من رجاله وتعطل أحد رشاشيه وفرغ عتاده.

أرسلنا رسائل مستعجلة إلى زيد كي يرسل مدفعاً جبلياً وما عنده من رشاشات والرجال الذين يستطيع جمعهم إلى موقع الاحتياط.

وبعد ذهاب عبدالله، مضيت إلى الجبهة فوجدت الموقف على شيء من الصعوبة. وكان الأتراك يحاولون تطويق موقعنا ويركزون نيران خمسة عشر رشاشاً عليه وتراجع القرويون عبر السهل وكنت بينهم. أما الخيالة فصمدوا خمس عشرة دقيقة أخرى ثم لحقوا بنا على ظهور خيولهم وتجمعنا على تلة الاحتياط المشرفة على السهل... وكان النهار عندئذ قد انتصف وقد فقدنا خمسة عشر رجلاً وبقي لنا حوالى الثمانين. وتجمعنا ولكن بعد بضع دقائق وصل ١٢٠ من العقيلات ومعهم اتباعي يحملون رشاش هوتشكيس ولطفي العسلي ومعه رشاشان. عندئذ صمدنا بسهولة حتى الثالثة بعد الظهر عندما وصل زيد ومستور وراسم وعبدالله ومعهم مدفع جبلي ورشاشان من طراز فكرس ورشاشان هوتشكيس من الطراز الكبير وخمسة رشاشات أخرى وعشرون بغالاً وثلاثون خيالاً من المطالعة ومئتان من القرويين. وكانت المسافة بيننا وبينهم ٣٣٠٠ ياردة بالضبط. فقد قستها بخطواتي عندما عدت (ذكر قبل ذلك أنه عاد متراجعاً تحت ضغط العدو ويقول الآن بأنه قاسها بخطواته مع أن قياس مسافة ٣٣٠٠ ياردة يحتاج إلى ما لا يقل عن ساعة ونصف الساعة). ثم جاءتنا نجدة من أهالي عيما من حوالى مئة رجل أرسلناهم مع ثلاثة رشاشات هوتشكيس إلى جناحنا الأيسر فزحفوا حتى صاروا على مئتي ياردة من رشاشات ـ مكسيم التركية.

وهناك فاجأوا رجال الرشاشات بطلقات بنادقهم ورشاشاتهم فقضوا عليهم». **[انتهى تقرير لورنس]**

لم يكن في المفـرزة كلها رشـاشات من نـوع هـوتشكيس (وهـو رشيش) سوى أربعة رشاشات من نوع فكرس، وفي الغالب أنه كان يجهل عدم وجود هذا النوع من الرشاشات، ونلاحظ أيضاً أنه كان يتعمد على قـدر الإمكان تجنب ذكـر حركـات القطعات النظامية، ليـوهم أنها كـانت معركـة بدو ليسهـل عليه ادعـاؤه قيادتهم. فلو أنه تكلم عن الجند النظـامي لكان مضطـراً لذكـر قياداتهم وهذا ما لا يتفق وأسلوب سرده للـوقائـع. نلاحظ أنـه عندما ذكر عبدالله لم يبيّن أنـه عبداللـه الدليمي قـائد مفـرزة الطفيلة، الذي خلف راسم سردست في القيادة، وقد تعمـد عدم ذكر لقبه ومهمتـه ليوهم قـراءه بأنـه كان أحـد الذين يعملـون بأمرته، وسماه عبدالله أفندي ولقب أفندي لم يكن مـوجوداً في الثورة لا هو ولا الألقاب الأخرى التي تـركت في الجيش التركي واستعيض عنها بألقاب عسكرية عربية.

إن جميـع ما ذكـره لورنس في هـذا التقريـر غير صحيـح، كله اختلاق كتبه على ضوء الأخبار التي تجمعت له في اليـوم التالي للمعركة وعلى ما شاهده بمنظاره أثناء وجـوده في نوخـه بجانب الأمير زيد بعد أن حورها وبدلهـا وجعلها تتـلاءم مع ادعـاءاته بأنه هو الذي أدار روح المعركة من بدايتها إلى نهايتها. ونلاحظ أنه لم يأت على ذكر جعفر العسكري في تقريره لأن ذكره يحول دون ادعائه بإدارة المعركـة، ولما ذكـر الأمير زيـد جعله وكـأنه مسير بتوجيهاته.

والـذي حصل فعـلاً بالنسبـة إلى لورنس هـو أنه لم يتقـدم في الصباح الباكر إلى ميدان المعـركة ولا قـاتل ولا قـاد أحداً، ولم يكن له أي دور يقوم به ولا أية صفة، وكل ما في الأمر أنه سار بمعية الأمير زيد منذ بداية الحركة حتى نهايتها والحقيقـة أنه كان يستحيل على لورنس القيام بأي عمل مما جـاء في تقريـره، كما كان يستحيل عليه إصدار أي امر أو رغبة لأي ضابط، لأن

أي واحد منهم كان غير مستعد أن يقبل ذلك من أي إنكليـزي. وإذا رجعنا إلى ما ذكره عن هذه الواقعة بعد ذلك بعدة سنوات في كتابه «أعمدة الحكمة» نجد أنه فصل وطال بمـا يخرج عمـا كتبه في ذلك التقرير، وهنا يأتي عـلى ذكر جعفـر وبعض الأمور البعيدة عن التصديق كقوله إنه سار مسـافة عشرة كيلـومترات حافياً في تلك الأراضي المحجرة وهو ممسك بركاب أحد الخيالـة ليستعين بذلك على الجري.

وختم لورنس وصفه لهذه المعركة إذ يقول:

«أرسلت تقريراً إلى القيادة العامة في فلسطين ولقد كتبته بوضاعة للتأثير على القادة، فجاء مليئاً بالتشابيه الظريفة والبساطات الهازئة والتقرير جعلهم يحسبونني هاوياً متواضعاً يلحق خطى القادة العظماء، لا بهلواناً يسترق النظر وراءهم. كان التقرير مثل الحركة: محاكاة سافرة لكن القيادة العامة امتدحته ببراءة. ولكي تتوج المزاح، قلدتني وساماً على ما جاء به. ولو استطاع كل واحد في الجيش أن يكتب التقارير بنفسه عن أعماله دون شهود، لامتلأت صدور الكثيرين بالأوسمة»[٣].

وهكذا منح لورنس على الأعمال التي ذكرهـا عن نفسه في هـذا التقرير وسام الخدمة الممتازة (D.S.O) وهو من أرفع الأوسمة العسكرية، مع ترفيع استثنائي لرتبة كولونيل.

(٣) من كتاب **لورنس والعرب** لسليمان موسى، ص ١٥٣.

١٥

المفرزة الشمالية[١]

إن العمل الذي خصص به الجنرال أللنبي الجيش العربي في هجومه الكبير هو أنْ تتحرك منه قوة سريعة الحركة فتهاجم درعا وضواحيها بصورة مفاجئة، وذلك قبل شروعه بهجومه بثلاثة أيام ـ فتخرب الخطوط الحديدية، وتعرقل حركة المواصلات في هذا المركز الذي تلتقي فيه خطوط دمشق حيفا ـ المدينة. وبذلك تكتمل خدعة الهجوم على جناح الأتراك الأيسر فيجلبون إليه قسماً من قواتهم الاحتياطية وينشغلون في هذه المنطقة ريثما يقوم (بعد ثلاثة أيام) الجيش البريطاني بهجومه الأصلي على جناحهم الأيمن.

وكانت البادية في شرقي السكة الحديدية، هي الطريق الأكثر صلاحاً لحركة هذه القوة العربية، لأنها أقرب وأسهل وأصلح للمباغتة.

وفي أوائل تموز ١٩١٨ بدأت التحضيرات لتنظيم هذه القوة.

---

(١) سميت هذه الحملة عند تشكيلها بالمفرزة الشمالية، وبعد وصولها إلى حلب وانتهاء الحرب تحولت إلى لواء خيالة، اعطاها الإنكليز الخيل من فرقة الخيالة التي وصلت معهم إلى حلب وعندها تحول اسمها إلى (لواء الفتح) وعندما تكلم نوري السعيد في محاضراته عن هذه المفرزة كان يطلق عليها اسم جحفل.

أي قبل موعد الهجوم بشهرين ونصف الشهر. وأول ما فعله أللنبي كان أن الحق بمقر الأمير فيصل الكولونيل (داوني) وهو أحد ضباط أركان قيادته المرموقين، ليكون ممثلاً لجيشه لدى فيصل. ونلاحظ أن نشاط لورنس الذي أعطاه لنفسه في الناحية العسكرية قد اختفى، وبقي عمله منحصراً بالنسبة إلى أللنبي بكونه مستشاراً سياسياً ملماً بالقضايا العربية.

وجرت المداولات بخصوص تشكيل هذه القوة بين من يعنيهم الأمر من عرب وإنكليز، بالنسبة إلى طبيعة الواجبات التي ستلقى على عاتقها، والأراضي التي ستتحرك عليها، بصورة سرية جداً. وزود أللنبي الجيش العربي بثلاثة آلاف هجين أفريقية.

تقرر أن ينتخب لهذه الحملة خيرة الضباط والجنود، فانتخب لقيادتها رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد، يعاونه علي جودت الأيوبي (رئيس وزراء العراق فيما بعد) ولقيادة لواء الهجانة تحسين علي (وزير الدفاع العراقي فيما بعد). وألحقت بها البطارية المدفعية الفرنسية، وسرية رشاش لواء الهاشمي (سريتي) على أن انتخب ضباطها وجنودها وأعيد تنظيمها على أساس الرشاشات الثمانية الجديدة. وأصبحت التشكيلات للمفرزة على الوجه التالي:

الشريف ناصر بن علي: قائداً للمقاتلين غير النظاميين من عقيل وبدو وممثلاً للأمير فيصل. تحسين علي: قائد لواء الهجانة (ثلاث سرايا هجانة). الكابتن بيزاني: قائد المدفعية (ستة مدافع جبلية سريعة). صبحي العمري: قائد سرية الرشاشات الثقيلة (ثمانية رشاشات). أربع مصفحات بريطانية وسيارات نقل، طائرتان، مفرزة صحية بأمرة الدكتور عبد العزيز الكنفاني - سريتا هندسة للتخريب الأولى مصرية بأمرة الكابتن بيك والثانية هندية بأمرة الميجر هورنبي.

رافق الأمير فيصل هذه الحملة بعد أن أناب عنه في أبي اللسن أخاه الأمير زيد، مستصحباً معه كلاً من الدكتور أحمد قدري ورستم حيدر وإبراهيم أبو الهدى ورافق الحملة الضابطان جميل المدفعي وعبد الحميد الشالجي. كما رافقها من أعضاء البعثة البريطانية كل من جويز، نيترتون، لورنس، يونغ وكركبرايت.

بوشر في البداية بترتيبات المفرزة بصورة سرية، وبالطرق الاعتيادية التي لا تجلب الانتباه فجرى أولاً تحويل اللواء الأول المشاة إلى هجان ووزعت عليه الهجن. ولم يعلن عن أمر تشكيل المفرزة إلا قبل حركتها بأربعة أيام. فخلال هذه الأيام قمنا بتنظيماتنا الجديدة وإكمال نواقصنا ولقد كان مجموع النظاميين المحاربين ألف هجان وكانت المدافع والرشاشات الثقيلة مع عتادها محملة على الهجن أما بغالها وخيل ركوب ضباطها، فكانت تقاد من غير حمل لتبقى محتفظة بقوتها ونشاطها عند الاقتراب من خطوط القتال.

تحركت هذه المفرزة من أبي اللسن في صباح ٣١ آب ١٩١٨ وفي ٦ أيلول وصلت الحملة إلى قصر الأزرق. وفي ١٢ منه وصل الأمير فيصل، كما وصل في اليوم نفسه شيخ مشايخ عشائر الرولة نوري الشعلان ومعه ٣ آلاف مقاتل، منهم ٣٠٠ خيال. كما وصلها عودة أبو تايه ومعه ٥٠٠ من عشيرة النوابهة.منهم مئة خيّال. كما وصل نحو ألف من الحوارنة ومن عشائر أخرى. أما الشريف ناصر ومعه عقيل فقد وصل قبل الجميع بصفته المسؤول عن جميع مقاتلي البدو، ولقد كان موقع الأزرق المثابة التي تقرر أن تجتمع فيها جميع القوة للإنطلاق منها في الوقت المقرر للهدف المعين.

في ١٣ أيلول توجهت أولى مفارز التخريب بقيادة بيك لافتتاح عمليات التخريب.

وفي صباح ١٤ منه تحركت الحملة من موقع الأزرق، بعد أن تركت فيه جميع الأحمال، ووصلت موقع المتاعية القريب من درعا، فبقيت فيه يومي ١٥ و١٦ حيث قامت مفارز التخريب بمهامها في الجسور والخطوط الحديدية. وفي ١٧ تحركت الحملة غرباً باستقامة درعا فاستولت على موقع تل عرار الذي يبعد عن درعا خمسة كيلومترات، فهاجمتنا الطائرات الألمانية. وهكذا تتابعت الحركات فاستولينا على محطة مزيريب. وفي ١٨ منه استولينا على جسر قرب محطة نصيب.

واستمرت الحملة في تجوالها في منطقة درعا. وفي ٢١ منه ونحن في موقع أم التراب جاءتنا طائرة ونزل منها لورنس وهو يهرول رافعاً يديه ليعلن أن هجوم أللنبي قد نجح وأن الجيش البريطاني قد اخترق جبهتي الجيشين السابع والثاني، وأن خيالته تطارد فلولهم.

وفي ٢٥ أيلول استولت الحملة على قرية شيخ سعد. واستولت قوات العشائر على خربة الغزالة وأذرع وبصرى الشام. وعندما استولينا على شيخ مسكين أصبحنا في منطقة درعا ومسيطرين عليها، وبدأت تصل إليها فلول الجيوش التركية المنسحبة من جبهاتها بالألوف وهم بحالة سيئة يستسلمون إلينا دون أية مقاومة، ونحن في شيخ سعد بلغنا أن الأتراك قد أخلوا درعا متجهين إلى دمشق. وفي صباح ٢٩ أيلول توجهنا إلى درعا ودخلناها فوجدنا فيها ألوف المتخلفين من الأتراك.

وقبل الظهر وصلت طلائع الخيالة الإنكليزية التي تطارد فلول الأتراك. وفي صباح ٢٩ نفسه وصل الأمير فيصل إلى درعا بينما كانت المفرزة تتحرك باتجاه دمشق وعلى يسارها الخيالة الإنكليزية. وأثناء مسيرتنا كانت فلول الأتراك الذين أصبحوا يعدون بالآلاف يواكبوننا وهم مبتعدون عن الإنكليز خائفين من

البدو والقرويين الذين كانوا يجردونهم من أسلحتهم وكل ما يتمكنون منه.

وكنا في سيرنا أسرع من الإنكليز نريد أن نطير إلى دمشق، خصوصاً بعد أن علمنا أن المدن التي سنسبقهم إليها ستكون تحت إدارة عربية، في المساء وصلنا المسمية. كنا ننتظر أن نشتبك مع الجيش التركي في جبال الكسوة المهيأة لتكون خط الدفاع عن دمشق، ولكن القوات التي كانت بقيادة الشريف ناصر هاجمتها فاستسلمت لها. وهكذا أصبح طريقنا إلى دمشق مفتوحاً.

وفي صباح ٣٠ أيلول تحركنا من المسمية إلى الكسوة وبقينا فيها تلك الليلة.

١٦

في دمشق

أول تشرين الأول: في الصباح الباكر من هذا اليوم تحركنا من الكسوة نحو دمشق، وكانت فلول الأتراك المتزايدة والتي أصبحت تعد بالألوف، لا تزال تواكبنا على طرفي الطريق. لقد اطمأن هؤلاء التعساء إلى جنودنا، وكان تكلمنا معهم باللغة التركية يزيد في اطمئنانهم فلقد كانوا خائفين من أمور كثيرة من الموت، من الأسر، من السلب، من الجوع ومن أمور أخرى مجهولة لا يعرفونها وقد وجدوا شيئاً من الاطمئنان بمرافقتهم لنا وكانوا لا يريدون الابتعاد عنا. فالتركي تغلب عليه البساطة والتدين وهو معروف بالشجاعة والطاعة العمياء، وعندما يصبح جندياً فإن هذه الطاعة تجعل منه آلة بيد رؤسائه. آلة من آلات القتل والتخريب وسفك الدماء وكنا طيلة الطريق نسمع منهم الشتائم التي كانوا يوجهونها إلى أنور وطلعت وجمال، لقد تحول ذلك التعجرف والكبرياء بعد انكسارهم إلى ذل وخنوع، وتحول العداء والنقمة التي كنا نشعر بها تجاههم، وهم في هذه الحالة من الانكسار، إلى شفقة ورحمة في قلوبنا وصرنا نرجع إلى ضمائرنا فنرى أنهم كانوا مثلنا مظلومين من قبل تلك الطغمة التي كانت تتحكم بالبلاد.

عندما وصلنا محطة القدم شاهدنا النيران ما زالت تشتعل في

المستودعات التي أحرقها الأتراك ودخلنا دمشق من حي الميدان، وكان الشارع على طرفيه ومنافذ البيوت والأسطحة يعج بالناس نساء ورجالاً صغاراً وكباراً النساء يزغردن والرجال ينشدون الأناشيد.

والبعض ينثر علينا الأزهار، ومنهم من يرشنا بماء الورد والزهر، وهي عادة دمشقية للترحيب. إني عاجز عن وصف الشعور الذي كان يتملكني يومئذ، فقد كانت دموعي تنهمر على خدي وقلبي يكاد يقفز من صدري الذي لم يعد يتسع لخفقاته المتسارعة. لا بد لكل شخص أن يمر بحياته بلحظات فرحة عارمة يسكب لها قطرات من دموعه، ويشعر بالسعادة التي ترافق هذه اللحظات، فرحة لقاء حبيب أو شفاء مريض عزيز، أو تحقيق أمل بعيد. أما هذه الفرحة فقد كانت أعظم منها جميعها. إننا نعود إلى الوطن بعد غياب طويل في ساحات قل منها الإياب؟ أعود لأرى بلادي وقد غادرها الأتراك بعد استعمارها مدة تزيد على أربعماية سنة، وها هم مواطنونا يصفقون لنا كمحررين ومنقذين. وكنت أسمع، من وقت لآخر، صوت شخص من بين الجموع يناديني، باسمي مرحباً أنه قريب أو صديق عرفني فناداني من قبل التقدير، أو التفاخر بأنه يعرف واحداً من هؤلاء المنقذين. كل هذه الأفكار كانت تتلاحق في رأسي، وأنا على صهوة جوادي أمام سريتي بين هذه الجموع التي تحجبها عني دموع تملأ أجفاني فلا تكاد تسكبها حتى تمتلىء بغيرها.

ولما وصلنا إلى ساحة المرجة شاهدت أخي عمر، فاندفع نحوي يقبلني وأقبله، وسار إلى جانب حصاني ممسكاً بعنانه. ولما وصلنا إلى أمام سراي الحكومة شاهدنا العلم العربي مرفوعاً على ساريتها وكانت مشنقة منصوبة أمامها للإرهاب. ووقفنا في الساحة التي بني فيها فيما بعد فندق سميراميس الحالي

وسينما دمشق وغيرهما. وقد كانت أرضاً جرداء، وليس فيها أي بناء، حتى التكية السليمانية سوى بناية دار المعلمين، وهي الآن وزارة التربية. وكان في مكان مبنى دائرة البريد الحالية غرفتان من طين، واسطبل لخيل الشرطة. ولم يكن غير ذلك من أبنية دائرة الشرطة الحالية. وكان الشارع الممتد من النهر إلى محطة الحجاز مفتوحاً حديثاً ولم يُعَبِّد بعد. في هذه الساحة وقفت القوة وجرى توزيعها من قبل علي جودت الأيوبي على أنحاء دمشق للمحافظة على الأمن. على الوجه الآتي:

السرية الأولى: إلى الميدان. وكانت مسؤولة عن أمن الميدان والشاغور.

السرية الثانية: أصبحت مسؤولة عن أمن احياء الباب الشرقي وباب توما، والقصاع.

السرية الثالثة: أصبحت مسؤولة عن أمن احياء الأكراد، الصالحية، المهاجرين اعتباراً من عرنوس.

سرية الرشاش: أصبحت مسؤولة عن أمن مركز المدينة من باب الجابية فسوق مدحت باشا فسوق الحميدية فالدرويشية فالسنجقدار فالمرجة فسوق ساروجة والعقيبة وطريق الصالحية حتى عرنوس.

سيرت في الحال دوريات راكبة إلى المناطق التي كنت مسؤولاً عنها، وجعلت مقري إلى جانب دائرة الشرطة في المكان الذي بني فيه المصرف الحالي. وحينما وصلت السرايا إلى مناطق مسؤولياتها كان الأمن مستتباً في جميع أنحاء البلد، ولم يعكر صفو الأمن سوى حادثة واحدة كانت آخر الحوادث الفردية التي كان لا بد من وقوعها في مثل هذه الأحوال، وهذه الحادثة هي أن أفراداً من بدو الشعلان والدروز أرادوا الاستفادة من هذا الموقف، الذي لم تكن قد تركزت فيه قوى الأمن بعد،

ليقوموا بنهب بعض المساكن في أطراف المدينة. فذهب بعضهم إلى نواحي المزة والبعض الآخر إلى جهات الربوة وزقاق الصخر. وبعد أن نهبوا بعض المساكن عادوا متوجهين إلى المدينة عن طريق الربوة. فنبهني إلى ذلك المقدم عبد الحميد الشالجي الذي عيّن قائداً لموقع دمشق، وصدر إليّ الأمر بضربهم لمنعهم من دخول المدينة، وإلقاء القبض على من يمكن القبض عليه. نصبنا الرشاشات في المكان الذي يقوم عليه فندق سميراميس الآن. وانتظرت وصولهم وبعد قليل رأيتهم مقبلين من جهة الربوة، وكانوا نحو المائة بين خيّال وهجان، وكان شارع الربوة في ذلك الوقت خالياً من الأبنية، وكانوا يحملون على رواحلهم ما كانوا نهبوه من أمتعة وملابس. وكانوا خلال تقدمهم يحدون، أي ينشدون الأناشيد البدوية، وكأنهم عائدون من انتصار. فتركتهم حتى وصلت مقدمتهم إلى قرب الجسر الذي كان يقابلنا، فأمرت بفتح النار، اعتباراً من مؤخرتهم حتى مقدمتهم في آن واحد وبدأوا يتساقطون من فوق رواحلهم، أما الذين لم يصابوا من المتقدمين القريبين منا، فاندفعوا منهزمين من فوق الجسر نحو محطة الحجاز فرمتهم الجنود ببنادقهم ومنهم من فر نحو بوابة الصالحية، ومنهم من عاد متجهاً إلى الربوة. وانتهت العملية خلال عشر دقائق فامتلأ الشارع من مقابل التكية السليمانية حتى محطة الحجاز بـ ٢٢ قتيلاً ونحو ٣٠ جريحاً. إنه أمر مؤسف أن العرب لم يعطوا نصف هذه الاصابات خلال الأيام العشرة الماضية التي جرت فيها الحركات ضد الأتراك في حوران. وبعد أن جمعنا من سلم منهم وجمعنا الأسلحة والحيوانات والمنهوبات، وضعناها في أسطبلات الشرطة، وتركنا القتلى في أماكنهم للعبرة وبناء على وساطة نوري الشعلان وسلطان الأطرش أمر قائد المفرزة باطلاق سراح الموقوفين وتسليم القتلى والجرحى لذويهم مع الرواحل والأسلحة وصدرت الأوامر إلى جميع الدروز والبدو

بمغادرة المدينة فغادروها سوى رؤسائهم ومن معهم.

ولم يقع في دمشق غير هذه الحادثة التي وقعت في الأصل في خارجها. كما تحدث خطأ بعض من كتب عن دخول الجيش العربي إلى دمشق ومنهم لورنس.

عندما وصل الشريف ناصر إلى المسمية أرسل رسالتين إلى كل من رضا باشا الركابي وشكري باشا الأيوبي، يعلمهما بقرب وصول الجيش العربي إلى دمشق، ويحثهما على إعلان الاستقلال - وتشكيل حكومة، وتوفير الأمن دون انتظار وصول الجيش[1]. ويذكر الأمير سعيد بمذكراته أن محمد جمال باشا وافقه على القيام بالمحافظة على الأمن وأنه جند من أجل ذلك المغاربة القاطنين في دمشق بقيادة أخيه عبد القادر[2]. والحقيقة أن الأمير عبد القادر سجل متطوعين من المغاربة لمساعدة الجيش التركي وسار بهم إلى أذرع لمعاونة الأتراك ضد العرب وليحول (على زعمه) دون اتصال الجيش العربي بجبل الدروز. ولكنه انهزم من أذرع عندما استولى عليها الشيخ طلال مع الحوارنة في ٢٦ أيلول وعاد إلى دمشق مهزوماً، فوصلها قبل دخول الجيش العربي بثلاثة أيام. ولما قرر جمال باشا الانسحاب من دمشق جاءه الأمير سعيد يعرض عليه أن يأخذ على عاتقه تأمين الأمن بواسطة هؤلاء المتطوعة فوافق جمال باشا على ذلك، بسبب ما كان أبداه مع أخيه ومتطوعته من إخلاص للأتراك.

قبل دخول الجيش العربي إلى دمشق بيوم واحد أي في ٣٠ أيلول قامت مظاهرة كبيرة من حي الميدان يقودها أحمد مريود والشيخ محمد الأشمر، وكان المتظاهرون يرفعون العلم العربي.

(١) مذكرات الدكتور أحمد قدري وكان برفقة الشريف ناصر.

(٢) مذكرات الأمير سعيد الجزائري.

وكان أحمد مريود قبل ذلك قد أرسل الشيخ محمد الأشمر وخاله محمد الخطيب لجلب علم عربي من جيش فيصل. والمتظاهرون هم الذين أفرجوا عن شكري باشا الأيوبي ورفاقه الذين كانوا مسجونين في خان الباشا. وبتوجيه من شكري باشا توجهوا إلى القلعة وفتحوا أبواب سجنها وأخرجوا منه أربعة آلاف سجين.

وكان أمير اللواء بهجت بك (مفتش المنزل) آخر من غادر دمشق من المسؤولين الأتراك ـ بعدما اجتمع ظهر ٣٠ أيلول بشكري الأيوبي وسلمه المدينة، يقول الأمير سعيد في مذكراته إنه أرسل عثمان قاسم ومعروف الأرناؤوط ليجلبا له العلم العربي من داره، فحملاه إليه في تظاهرة كبيرة ثم رفعه على دار الحكومة. والمعروف أن عثمان قاسم صديق أحمد مريود، فهل كان هذا العلم هو الذي جلبه مريود وكان مرفوعاً أمام التظاهرة فرفعه المتظاهرون على مبنى الحكومة أم هو علم الأمير عبد القادر الذي جلبه معه من الحجاز؟ مهما يكن من أمر، فإن الأمير سعيد أمر برفع العلم العربي على دار الحكومة، وأعلن قيام حكومة موقتة برئاسته، وبلغ ذلك ببرقيات إلى جميع الأطراف.

والمعروف عن شكري الأيوبي الشعور القومي وسلامة القلب، لذلك فإنه حين خرج من السجن في ذلك اليوم قد تناسى العلاقات الحسنة التي كانت بين الأخوين الجزائريين والأتراك ولم يشأ أن يمنعهما من الظهور بمظهر القادة ويعكر صفو الفرحة العارمة التي كانت تغمر البلد فتساهل وتعاون معهما.

يقول الأمير سعيد في مذكراته إن الشريف ناصر دخل دمشق ومعه ٣٠ خيّالاً وبسبب مرضه كلفه تسيير الأمور، فطلب إليه تفويضاً مكتوباً بذلك، أعطاه التفويض وذهب إلى دار الأمير سعيد للراحة. والحقيقة أن الشريف ناصر دخل دمشق ومعه جموع كبيرة كما ذكرنا، معه هجانة عقيل ونوري الشعلان

وعودة أبو تايه وجمـوعهم وجموع الـدروز في مقدمتهم سلطـان وحسـين الأطـرش وغـيرهم ممن التحق بهم وإذا كـان الـذين رافقوا هؤلاء الرؤساء فقط الصفوة من رجالهم فإنهم كـانوا لا يقلون عن الخمسماية ولما وصل نوري السعيد في مقدمـة القوة العسكـرية ودخـل دار الحكومـة وجد الأمـير سعيـد قـد أعلن الحكم برئاستـه ورفع العلم العـربي، وعلم بأن الشريف نـاصر وكله وذهب لداره للراحة ويصل في هذه الآونة لورنس والدكتور أحمد قدري الذي كان يرافق الحملة العسكرية خلال حركـاتها في حوران ـ ويطلبان من الشريف ناصر العودة إلى دار الحكومة وهناك يتفق جميعهم على لزوم مغادرة الأخوين الجزائريين لدار الحكومة بسبب اتصالهما بالأتراك وخيـانة عبـد القادر للثـورة فغادراها.

يقول لورنس في كتابه عنـد سرد حوادث اليـوم الأول من دخول دمشق (ص ٤٤١) ان عبـد القـادر الجـزائـري أعلن الثـورة بدمشق وأن بعض الدروز تبعوه حباً بالسلب والنهب، وأنه (أي لورنس) استدعى نوري السعيد على جناح السرعة وقال له (إن هذا الجزائري الأحمق إنما يحفر قبره بيده) ثم يقول (وفي هذه الأثنـاء كان نـوري قد وزع قـواتنا عـلى النقاط الحسـاسـة في المـدينة، وبـدأت عمليات تمشيط الشـوارع وحصر العصاة ولم تصل الشمس إلى كبد السمـاء إلا وكل شيء قـد انتهى. سعيد وقع في قبضة قـواتنا واقتيـد إلى السجن بدار البلـدية، وعبـد القادر تخلى عن انصاره ولجأ إلى الغوطة... إلخ).

ونجـد لـورنس في صفحـات كتـابـه الأخـير وهـو يتحـدث عن الساعات الأخيرة التي قضاها مع جيش الثـورة في اليوم الأول من احتلال دمشق. يذكر لنا أموراً لم تقع أصلاً. فهو يـريد أن يترك في ذهن القارىء خـلاصة مـا كتبه في كتـابه من أنـه كان مسيراً لأمور الثـورة وحركـاتها، وهـا هو الآن وفي آخـر أيامـه

معها، يدخل دمشق ويؤمن أمنها وينشئ حكومتها، ويتركها وقد أصبحت لها حكومة.

إن المشادّة التي تحدث لورنس عن وقوعها في داخل دار الحكومة، بينه وبين سعيد الجزائري، ومداخلة نوري الشعلان ووضعه قواته تحت تصرفه، وثورة الجزائريين وغير ذلك، كلها أمور مبالغ فيها، سردها على طريقته ليظهر أنه هو الذي رتب أمور البلد وأمنها.

والحقيقة أن عبد القادر لم يثر، ولم يكن بإمكانه أن يثور، ولم يقع في المدينة حوادث نهب سوى الحادثة التي ذكرت وقوعها خارج المدينة دون أن يكون لها أثر في داخلها. أقول هذا وكنت في اليومين الأولين من دخول دمشق المسؤول عن الأمن في مركز المدينة. ومنذ اليوم الأول كانت الشرطة قد عادت للقيام بواجباتها كالعادة، تعضدها دورياتنا. وفي صباح اليوم الثالث لم يبق ثمة حاجة إلى الجند، فانسحبنا إلى ثكنة الخيالة التي في غرب ثكنة الحميدية (الجامعة اليوم) ان الجيش البريطاني وصل المزة إحدى ضواحي دمشق، بعدنا بساعات، ولم يدخل منه أحد المدينة، وأن ما ادعاه لورنس بتجواله في المدينة ومعه شكري باشا الأيوبي وتصفيق الناس له غير صحيح، أنه ذهب فقط متسللاً إلى قبر صلاح الدين الأيوبي وأخذ منه الأكليل البرونزي، والعلم الأطلسي الذي كان امبراطور المانيا وضعهما عليه في سنة ١٨٩٨(٣).

لقد تكلم لورنس مطولاً عن تنظيم الحكومة. فالحكومة منظمة والموظفون موجودون وكل ما كان يحتاجه الوضع هو حاكم عسكري وهذا ما وكل أمره إلى رضا باشا الركابي مقدماً، منذ كانت الحملة في المسمية، وكان ذلك مقرراً سلفاً من قبل الأمير

(٣) ذكرها لويل توماس في كتابه **(لورنس في البلاد العربية)**.

فيصل وبلغه الشريف ناصر. وقام بالوكالة عنه شكري باشا الأيوبي، وهذا أيضاً أمر به الشريف ناصر قبل دخول دمشق ويقول إنه بصفته مندوباً عن فيصل أعلن عزل سعيد الجزائري وعيّن شكري الأيوبي حاكماً عسكرياً ونوري السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة وعزمي (؟) نائباً له، وجميلا مديراً للأمن. كل هذا غير صحيح ولا يمكن أن يحدث بمثل تلك الظروف فنائب فيصل ومندوبه هو الشريف ناصر ولا يمكن أن يكون لورنس، وشكري عيّن من قبل الشريف ناصر ونوري هو قائد الحملة العسكرية ولا لزوم لتعيينه مرة ثانية، فالذي عينه هو فيصل وجميل المدفعي لم يعين، أما الذي عيّن لقيادة الموقع فهو حميد الشالجي والذي عينه هو نوري وقد عيّن لمديرية الشرطة محمد علي التميمي بناء على ترشيح الدكتور أحمد قدري، والذي عينه هو شكري الأيوبي وكانت كذبته الأخيرة في يومه الأخير من أيامه التي قضاها مع الثورة، هي الكذبة التي كتبها في آخر صفحة من كتابه، وهي قوله: إن أللنبي دخل دمشق قبل فيصل والحقيقة أن فيصل دخلها قبل أللنبي بعدة ساعات، فأللنبي وصل راكباً سيارة وفيصل دخلها خيّالاً من طريق الميدان تحف به الألوف من الخيالة والهجانة بموكب لم يشاهد مثله من قبل.

أما مقتل الأمير عبد القادر الجزائري. وتوقيف أخيه الأمير سعيد فقد وقع في تاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٨، ودون أن يكون هناك حادث عصيان. والذين قتلوا عبد القادر كانوا عدداً قليلاً من رجال الشرطة، وقد حدثني أحد مفوضي الشرطة، وهو لا يزال على قيد الحياة، بأن مفرزة الشرطة التي قتلته كانت بأمرة مفوض خيالة الشرطة (عبد الحميد الأدلبي) وكان معه نحو خمسة عشر شرطياً أرسلهم مفوض المركز بأمر من مدير الشرطة للقبض على الأمير عبد القادر الجزائري الذي جاء مع

نحو خمسة عشر خيّالاً إلى مقر الأمير فيصل الكائن في البناية المواجهة لحمام العفيف بقصد إنزال العلم عن سارية المقر. ولما اصطدمت الشرطة به اطلق النار عليهم فقابلتهم الشرطة ووقع الأمير قتيلاً أمام باب الحمام وقبض على جميع من كانوا معه ولم يصب منهم سوى الأمير الذي قتله شرطي مغربي اسمه (سعيد المغربي).

والإنسان يتعجب أو لا يكاد يصدق هذه الحركة غير المعقولة التي قام بها الأمير عبد القادر، ولكن يزول عجبه إذا علم أن عبد القادر كان رجلاً معروفاً بتصرفاته غير المتزنة على الطريقة الدونكيشوتية. وكان أخوه الأكبر الأمير سعيد كذلك مصاباً بجنون العظمة، وكان يقوم بأعمال تصبح حديث الناس وزادت تصرفاته هذه عندما فكر الفرنسيون في وقت من الأوقات بترشيحه لإمارة سوريا ونلاحظ ذلك في مذكراته التي نشرها وكان ولاؤه علنياً للفرنسيين.

إن نوري السعيد في الأيام الثلاثة الأولى من دخول دمشق كان المسؤول عن أمن البلدة وأراد أثناء ذلك التخلص من الأمير عبد القادر وتصرفاته المخلة بالأمن كما ذكرنا، ولكن بعد أن تشكلت الإدارة المحلية تخلى عن ذلك. والذي قتل عبد القادر هي تصرفاته الجنونية لا نوري السعيد ولا أحد غيره.

ويعتقد آل الجزائري وآخرون غيرهم، أن هذه الجريمة نفذت بإيعاز من فيصل ورضا باشا الركابي، الذي كان حاكماً عاماً والحقيقة أنهما بريئان منها كل البراءة، لأن فيصل معروف بنبله ورقة مشاعره واتزانه، وكان في مستهل شعوره بتبعات الحكم الملقاة على عاتقه. أما الركابي فمعروف بعقله الراجح وتفكيره الهادىء والاتزان في القول والعمل، وبالجد والنظام والتمسك بالقانون، كما عرف عنه أنه أقوى رجل دولة انجبته

سوريا علاوة على أنه كان من أسرة معروفة في دمشق، لها مكانتها وتبعاتها الاجتماعية والأدبية بين الأسر المعروفة الأخرى، ومنها الأسرة الجزائرية. فلا يعقل ولا يمكن لرجل هذه أخلاقه وصفاته ومكانته وتبعاته، أن يأمر باغتيال أحد، أو يسمح به.

والسبب الذي دفعني إلى تبرئة فيصل والركابي من هذه الشائعة، هو كوني كنت أكتم في نفسي حادثة تثبت براءتهما وقد آن الأوان لأكشفها كشهادة لوجه الله. بعد أن توفي جميع من لهم علاقة بها وأصبحت في ذمة التاريخ. في اليوم الأول أو الثاني من دخولنا دمشق، وكنت كما ذكرت مسؤولاً عن أمن مركز المدينة. وكان مقري إلى جانب مديرية الشرطة الحالية قبالة فندق فكتوريا الذي اتخذته قيادة المفرزة مقراً لها. طلبني قائد المفرزة نوري السعيد، فلما دخلت عليه وكان لورنس جالساً بالقرب منه قال لي إن عبد القادر الجزائري يشتغل ضد الحكم العربي ويعمل لحساب فرنسا، وأنه يسعى للإخلال بالأمن، فأريدك أن تصطحب معك عدداً مناسباً من جنودك وتقتله فدهشت لأول وهلة من هذا الأمر، وبعد تفكير سريع أجبته: (أفهم من أمرك يا سيدي أنك تطلب إليّ احضاره، فإذا عصى الأمر أو قاوم عندئذ سنجلبه حياً أم ميتاً. فسكت وراح يتبادل النظرات مع لورنس وقال: «طيب، افعل» ثم قال: اذهب إلى مدير الشرطة وافهمه ذلك بصورة سرية وشخصية، وأطلب إليه أن يرفقك بشخص يدلك على بيت عبد القادر. وذهبت تواً إلى مدير الشرطة (محمد علي التميمي) وبلغته ذلك فعيّن لي الشخص المطلوب وأرسله خلفي. وما كدت أصل إلى مقري، حتى جاءني مراسل يبلغني طلب نوري السعيد حضوري ثانية. فلما دخلت عليه وجدت لورنس لا يزال عنده، فقال لي: «لقد صرفنا النظر عن الأمر الذي اعطيناه». وخرجت. وفي ٧ تشرين

الثاني ١٩١٨ سمعنا بمقتل عبد القادر الجزائري على يد الشرطة.

هذا ما مر بي في حادثة مقتل الأمير عبد القادر الجزائري. ولا يصعب على القارىء بعد ذلك أن يستنتج من الذي دبر أمر قتله (!).

إن أغرب حادث في قصة لورنس في الثورة العربية، هو مبارحته دمشق في اليوم الثالث من دخول الجيش إليها، بصورة آنية وغير منتظرة، وقد قطع بذلك علاقته بالثورة بهذه الصورة الغريبة المفاجئة من غير أن يبين أي تعليل معقول، سوى تلك العبارة الموجزة التي ذكرها في كتابه بنهاية حديثه عن اجتماع أللنبي وفيصل إذ قال: «وكانت مهمتي بهذا الاجتماع أن أقدم كلًا منهما إلى الآخر وأتولى عملية الترجمة بينهما. وبعد ذهاب فيصل التمست من أللنبي السماح لي بالعودة إلى بلادي. فأجابني مصرّاً بالرفض. ولكن نجحت في إقناعه لأن الأمور تسير أحسن بدوني، وسيشعر العرب حقيقة أنهم أصبحوا أحراراً مستقلين، فوافق على ذهابي. وعندئذ شعرت بالحزن يتملكني». إن أكثر الذين كتبوا عن لورنس لم ينتبهوا إلى هذه الحادثة أو يقدروا مغزاها الذي كشفته الأحداث التي وقعت بين العرب والحليفتين إنكلترا وفرنسا بعد الحرب مباشرة.

لقد بدأت محادثات تقسيم تركة الدولة العثمانية، ومنها البلاد العربية بين الحلفاء قبل خروج روسيا من الحرب، بدأت بالبرقية التي أرسلها وزير خارجية روسيا ساسنوف لسفرائه في باريس ولندن وروما، بتاريخ ٤ آذار ١٩١٤. وتنتهي بانتهاء معاهدات سايكس ـ بيكو بين فرنسا وإنكلترا في أوائل أيار ١٩١٦ ـ وتبدأ إنكلترا مفاوضاتها مع الشريف حسين في أوائل أيلول ١٩١٤ وتعلن الثورة رسمياً في ١٠ حزيران ١٩١٦. وخلاصة هذه المعاهدة التي طبقت فعلًا بعد الحرب، هي أن

تقتسم الحليفتان المناطق العربية التي كانت تطمع بها. واعتبرت الحليفتان هذه المعاهدة سرية وبأنها تتعارض في روحها ونصها مع ما أعلنه الحلفاء من أنهم يحاربون من أجل رفع الإعتداء وتأمين العدالة والحق، كما تتعارض مع البنود الأربعة عشر التي بيناها، إن إنكلترا عندما بدأت تفاوض الحسين في أيلول ١٩١٤ كانت منهمكة في الوقت نفسه بتقرير معاهداتها مع الفرنسيين للحصول على العراق وفلسطين، ولتعترف مقابل ذلك بحصول فرنسا على باقي بلاد الشام. علماً منها مقدماً، أن هذه المعاهدة تخالف كل ما سوف تفاوض عليه الشريف حسين الذي كان يفاوضها باسم جميع العرب. وحيث إن الأعراف الدولية لا تجيز لهم، ولا تمكنهم بسهولة الانحراف عن مثل هذه المعاهدات التي تتقرر بين الدول الكبيرة فإنه أصبح من الواضح بأن إنكلترا منذ بداية مفاوضاتها مع العرب كانت مقررة مقدماً تطبيق معاهداتها مع الفرنسيين وعدم تطبيق ما سوف تتفق عليه مع الحسين إلا بالقدر الذي لا يتعارض مع تلك المعاهدة وهو استقلال الحجاز على أن لا يتجاوز نفوذ ملكها السياسي والديني حدود مملكته.

ولم يكن أمام الإنكليز من طريق ليبقوا العرب إلى جانبهم إلا في الاستمرار بخديعتهم وهذه تتطلب رجالاً خبيرين بشؤون العرب وأحوالهم وأخلاقهم ونفسياتهم. ومثل هؤلاء الرجال يكونون عادة ممن هيئوا سلفاً منذ سنين؛ وهكذا جمع الإنكليز للقيام بهذه المهمة جماعة من هؤلاء، أمثال كلايتون وستورس وهوغارت وكامب ولورنس وغيرهم، كل لما هيئ له على قدر إمكاناته واستعداده. ذكرنا في السابق كيف استصحب ستورس معه لورنس في بداية الثورة عند اجتماعه بالأمير عبدالله، ثم بباقي الأمراء، استصحبه لحاجته إلى شخص من هؤلاء الإنكليز يتمكن من ركوب الجمل للوصول إلى وادي

الصفراء. وأحسن لورنس القيام بالواجب الذي عهد به إليه، وأطمأن رؤساؤه إلى الأمور التي كانت تشغل أفكارهم. وانتخب لهم بجرأة وثقة الأمير الأصلح الذي يريدون ترشيحه لقيادة الجيش الذي سيزحف نحو الشمال خارج الحجاز فأعجبتهم آراؤه وجرأته ونشاطاته وأسلوب عمله. ووجدوا فيه أحسن الصفات التي تؤهله ليكون بجانب ذلك الأمير ليبقيه عاملاً وراضياً في مختلف الحالات والاحتمالات. وقد مر بنا مثال على ذلك عندما انفضح أمر معاهدة سايكس - بيكو.

وينهار الجيش التركي وتبدأ دول الأعداء بالاستسلام، الواحدة بعد الأخرى، وتظهر بشائر النصر وانتهاء الحرب، وتزول الحاجة إلى التستر بالرياء والمخادعات والمداراة. ويأتي دور المصارحة وبهذا يزول دور لورنس. لقد كان للورنس عند أللنبي واجبان متلاصقان. الأول أن يسعى ليبقي قيادات الجيش العربي مخدوعة تمشي في ركاب المصلحة البريطانية وهي تظن بأنها تسير في مصلحة قضيتها وأن يرتق كل ما يظهر من فتوق أو شقوق. والثاني... كمستشار لكل ما يتعلق بالشؤون العربية العامة.

وبانتهاء الحاجة إليه. قضت الضرورة بتنحيته بصورة عاجلة لإبعاده عن القيادة العربية التي تعودت أن تراه إلى جانبها كصديق. وهكذا ابتعد لورنس عن فيصل بسرعة وبصورة مفاجئة، كما يبتعد المجرم عمن أجرم بحقه حياء وخجلاً.

إن لورنس لم يكن صادقاً بقوله إنه طلب من أللنبي إعفاءه فأعفاه وذهب لبلده. إن ابعاده عن الثورة حالما يصل جيشها إلى دمشق كان مقرراً سلفاً. فلا الأنظمة ولا التقاليد العسكرية، ولا المصلحة، تساعد على إعفاء كولونيل في الجيش والحرب لا تزال قائمة بهذه السهولة. والحقيقة التي ظهرت في الأشهر التي تلت هي أن لورنس لم يعف، ولكن نقل من عمله في الثورة،

إلى مستشار في الشؤون العربية في وزارة الخارجية البريطانية وهكذا تراه عندما أغمد فيصل حسامه وجاء إلى أوروبا للعمل السياسي قد عاد لورنس إلى وضع قناعه وارتداء ملابسه العربية ليكون إلى جانبه في هذه المرة ترجماناً ومرشداً!

إن العمل الذي كلف به لورنس خلال الحرب وبعدها هو واحد.. خديعة العرب أثناء الحرب وتسهيل وقع هذه الخديعة عليهم بعد الحرب. فقام بشطرها الأول في ميادين الثورة بصفة ضابط ارتباط، وقام بأداء مهمته في شطرها الثاني في أوروبا بصفة مترجم.

١٧

نهاية المطاف

كانت الخمسة والثلاثون يوماً الأخيرة التي قضاها لورنس في الجيش العربي أكثر أيامه نشاطاً وكانت ذروة الجهود التي صرفها في الثورة لخدمة بلده إنكلترا. وتبدأ هذه الأيام في ٣١ آب ١٩١٨ بانطلاق المفرزة الشمالية من أبي اللسن وتنتهي في ٤ أيلول عندما بارح دمشق عائداً إلى بلاده وقد قضى لورنس هذه المدة في حركة دائمة ونشاط ملحوظ.

لقد سرنا والقارىء مع لورنس منذ أن بدأ خطواته الأولى في ميادين الثورة وتكلمنا عن أعماله وأقواله في كل ما عمل وادعى وها نحن الآن نرى لورنس وهو يرفع لنا يده مودعاً بعدما قضى بين ظهرانينا نحو سنتين صال خلالهما في ميادين ثورتنا وجال، ضحك منا وضحك علينا، كذب علينا وكذب على رؤسائه على حسابنا، وتسلق سلم الشهرة على أكتافنا.

لقد تكلم لورنس عن أحداث شهر أيلول بنحو ستين صفحة من كتابه وسلط خلال وصفه لوقائع المفرزة الشمالية الأضواء على نفسه دون أن يترك لأحد فضلاً في أي عمل فمن يقرأ تلك الصفحات يظن أن لورنس كان العقل المدبر والمخطط والقائد لتلك الحملة. أما الباقون من الأمير فيصل إلى آخر جندي، (بما

في ذلك زملاؤه الإنكليز) فلم يكونوا سوى مرؤوسين له وآلات مسيرة بين يديه.

لذلك نرى لورنس قبل مبارحته للثورة يفرغ كل ما بقي في جعبته من غرور وادعاء فيقول مثلاً في آخر صفحة من كتابه في سياق كلامه عن احتلال الجيش العربي لبيروت: منذ أيام الوجه حذرت العرب من ارتكاب مثل هذا الخطأ ناصحاً إياهم أن يتركوا لبنان للفرنسيين تملقاً لهم والاستعاضة عنه بطرابلس لأن طرابلس كمرفأ أفضل من بيروت بكثير ولأن بريطانيا يمكنها أن تقر لهم ذلك في نطاق السلام لذلك غَضِبْت من تصرفهم الخاطىء هذا ولكنني في الوقت نفسه كنت مغتبطاً لكونهم أصبحوا كباراً لا يستمعون إلى نصائحي والعمل بآرائي وبهذا جعل العرب في أواخر أيامه معهم في نظر قرائه أطفالاً قاصرين وجعل من نفسه وصياً عليهم.

غادر لورنس دمشق بعد وصول الجيش العربي إليها بأربعة أيام وتنتهي الحرب بعد ذلك بأيام أخرى، ويأمر الملك حسين الأمير فيصل أن يتوجه إلى الغرب ليمثله في مؤتمر الصلح ويصل فيصل إلى باريس ويلتحق به لورنس كمترجم ويدخل ضمن حاشيته واضعاً قناعه مرة ثانية بشكل ملابس عربية فيتضايق منه الفرنسيون فيعود إلى بريطانيا ويلتحق بفيصل عندما يذهب إلى لندن كمترجم فيقدم له خلال وجوده في باريس ولندن خدمات جليلة لأن فيصل كان لا يزال قليل الخبرة في المسائل السياسية ولم يكن قد تعرف على الكثيرين من رجال السياسة في الغرب. ويتقرر اجراء الاستفتاء لتقرير المصير في أنحاء الشام ويعود فيصل إلى دمشق ويقاطع الفرنسيين والإنكليز لجنة الاستفتاء، ويصل أعضاء اللجنة الأميركيون برئاسة كراين إلى البلاد وتتطور الأحداث وتشتد الثورة في العراق وتقوم ثورات في الأراضي التي احتلها الفرنسيون في

سوريا وتتفق فرنسا وإنكلترا على ما كانتا مختلفتين عليه من الأسلاب في الأراضي العربية فيتمكن الإنكليز من إدخال الموصل ضمن الحدود العراقية وأن تكون فلسطين والعراق وشرقي الأردن تحت انتدابهم وأن تطلق يد فرنسا في ما تبقى من البلاد الشامية وتنتهي اللجنة الأميركية خلال الاثنين والأربعين يوماً التي قضتها في بلاد الشام (سوريا ـ فلسطين ـ لبنان ـ شرقي الأردن) وتظهر النتيجة بأن تطلب الأكثرية الساحقة الاستقلال التام وإذا كان لا بد من طلب المعاونة فمن أميركا وإذا رفضت فمن إنكلترا مع رفض الانتداب الفرنسي والهجرة اليهودية رفضاً باتاً.

وتعود اللجنة إلى الغرب ويفشل الرئيس الأميركي ولسون في كبح جماح الروح الاستعمارية في بريطانيا وفرنسا كما فشل في تنفيذ مبادئه الإنسانية التي أعلنها شرطاً لدخوله الحرب وفي مقدمتها حق تقرير المصير للشعوب ويعود إلى بلاده متخلياً عن العرب بعد أن كان إلى جانبهم وتنسحب الولايات المتحدة من عصبة الأمم وتعود إلى عزلتها السياسية وتصاب آمال العرب بصدمة شديدة.

وتتلاحق الأحداث وتشرع الحليفتان في تطبيق ما اتفقتا عليه من استعمار مبطن بالانتداب على الأراضي التي اقتسمتاها من البلاد العربية وتشتد الثورات وتهرق الدماء ويحتل الفرنسيون جميع سوريا ساحلها وداخلها ويغادرها فيصل إلى ايطاليا وكانت الموصل ونفطها الثمن الذي باعت به إنكلترا حلفاءها العرب لأن فرنسا اعطت الموصل إلى بريطانيا مقابل إطلاق يدها في جميع سوريا وأسكتت الحليفتان الولايات المتحدة باعطائها حصة المانيا من النفط العراقي. ومن ايطاليا كتب الأمير فيصل مذكرة ضافية عن القضية العربية ومراحلها وتطوراتها ووجهت الحكومة البريطانية دعوة إلى الأمير فيصل

تدعوه فيها إلى زيارة لندن فقصدها وقابل الملك جـورج ورئيس الحكـومة ووزيـر الخارجيـة وقام هنـاك بنشاط كبـير باتصـاله بالمسؤولين البريطانيين وأصحاب النفوذ منهم. وخلال هذه المدة اشتـدت ثورة العـراق وأصبح لبـريطانيـا في العراق مئتي ألف جنـدي بينما عـدد سكانـه لم يكن ليتجـاوز المليـونـين ونصف المليـون وكان لثـوريـة العـراق الأثـر الأكبـر في تـوجيـه نظـر البريطانيين إلى صعوبة حكم العراقيين لأن هذه الثـورة كلفتهم ما يزيد على أربعين مليون جنيه أي أربعة أضعـاف ما انفقـوه على الثورة العربية كلها. وتنقل الحكـومة البـريطانيـة مسؤولية قضـايـا الشرق الأوسط مـن وزارة الخـارجيـة إلى وزارة المستعمرات التي كان يتولاها وينستون تشرشل ويقـوم تشرشل بتشكيل دائرة جـديدة مهمتهـا النظر في شؤون الشرق الأوسط ويعيّن فيها عدداً من الخبراء في الشؤون العربية الذين خدمـوا في هـذه البلـدان ولم يكن لـورنس بينهم ولكن تشرشـل يعينـه مستشاراً له فيما يتعلق بالقضايا العربية. وبهذه الصورة عـاد لـورنس إلى الساحـة العـربيـة ولكن في هـذه المـرة دون قنـاع وبصورة سياسي وكـان الاتجاه فيمـا يتعلق بالعـراق أن يعطى استقلالاً ذاتياً وقد تم التفاهم على ذلك مع الأمير فيصل بعدمـا اجتمعت الآراء على أن أفضل حل هو أن يكون فيصل ملكاً على العراق.

ويحضر تشرشل بعد ذلـك إلى مصر ليضع السيـاسة الجـديدة موضع التنفيذ ويعقد في القاهرة مؤتمراً يحضره كبار المسؤولين البـريطانيـين في العراق وفلسطـين وكان لـورنس حاضـراً ذلك المؤتمر كمستشار لتشرشل. وفي هذه الأثناء كان الأمير عبداللـه في معان يدعو إلى الثورة ضد الفرنسيين وإخراجهم من سـوريا فطلب إليـه تشرشل الاجتمـاع به في القـدس وأرسـل لـورنس ليرافقه من السلط إلى القدس ليبلغه موضوع الاجتماع بترشيح

فيصل لعرش العراق وترشيحه لإمارة شرق الأردن واعطائه الأمل في عرش سوريا مقابل تعهده بعدم مضايقة الفرنسيين والقبول بالانتداب البريطاني على شرق الأردن وبالوضع الراهن في فلسطين فقبل الأمير عبدالله العرض وعاد تشرشل إلى لندن.

وتواصل لجنة الشرق الأوسط مهمتها في معالجة بقية مشاكل المنطقة ويشترك لورنس معها في إعداد مشروع المعاهدة التي كانت بريطانيا تود عرضها على الملك حسين بديلاً عن معاهدته مع مكماهون ويكلف لورنس القيام بهذه المهمة ويتوجه إلى جدة ليعرضها على الحسين فيرفضها رفضاً قاطعاً ولا يقبل إلا بتنفيذ عهودهم له بحذافيرها. وتلح أسرة الملك وحاشيته لقبول المعاهدة بسبب تهديد لورنس بالنتائج الوخيمة التي ستترتب على رفضها وهو التهديد نفسه الذي وجهه لورنس إلى الأمير عبدالله في القدس عندما قال له إنكم ستضيعون كل شيء وبإمكان ابن السعود أن يصل إلى مكة في ثلاثة أيام وكانت خلاصة المعاهدة التي يطلبون من الحسين القبول بها هي: ان ينفض يده من الشؤون العربية وأن يوجه اهتمامه إلى الحجاز بعدما تولى فيصل العراق وعبدالله الأردن وأن يقنع بالتحالف مع بريطانيا التي ستمنع عنه اعتداء جيرانه مع الاستمرار في دفع المساعدات الشهرية لخزينة الحجاز؛ ولكن الحسين يصر على تمسكه بحقوق العرب التي اتفق واياهم عليها ويغادر لورنس جدة إلى عمان فيبلغها في ١٢ تشرين الأول ١٩٢١ ويعرض معاهدة على الأمير عبدالله مع ما أدخل عليها من تعديلات وبعدما أدخل الأمير ما ارتآه من تعديلات أخرى، أرسلها إلى والده راجياً منه الموافقة عليها فاعادها إليه مختومة من غير أن يفضها وفشل المشروع وفشل لورنس في مهمته. ويحقد على الحسين ويوصي حكومته بقطع معونتها المالية عن الحجاز.

وتمتد إقامة لورنس في شرق الأردن حوالى شهرين ونصف الشهر، يقوم خلالها بوظيفة المعتمد البريطاني. ويعود بعد ذلك إلى بريطانيا، وتنتهي وظيفته في وزارة المستعمرات في تموز ١٩٢٢ ومن هذا التاريخ تنقطع علاقته بالعرب.

وأما ما صارت إليه حالة لورنس بعد ذلك. فإنه بعد شهرين من انفصاله من وزارة المستعمرات دخل في سلك الطيران جندياً عادياً باسم (روس) وبعد أربعة أشهر أخرج، ولكن بعد ستة أشهر عاد جندياً في سلاح المصفحات باسم (شو). ولكنه كان يتشبث عبثاً بالعودة إلى سلاح الطيران، حتى أنه هدد بالانتحار، عندما توسط له برنارد شو لدى رئيس الوزراء بلدوين فقبل ثانية في سلاح الطيران، ونقل في سنة ١٩٢٧ إلى الهند ثم إلى حدود الأفغان سنة ١٩٢٩ وعلى أثر اتهام الروس له بالتجسس أعيد إلى بريطانيا، وانتهت خدمته في سنة ١٩٣٠. وما عتم أن توفي في حادثة دراجة نارية في ١٣ أيار سنة ١٩٣٥.

الخاتمة

«يقاد المؤمن إلى الجنة بالسلاسل» هكذا دفع الأتراك العرب إلى الثورة بالمشانق والتجويع والتنكيل. ما أراد العرب الثورة على الأتراك ولا فكروا بالاستقلال ولا الانفصال عنهم لا لأنهم كانوا مرتاحين لحكمهم الجاهل الجائر، بل لأنهم كانوا يخافون من أولئك الذئاب المستعمرين الفاغري الأشداق. ومن أن يصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فينتقلوا من تحت الدلف إلى تحت المزراب، كما وقع لهم فعلاً.

كل ما كان يطلبه العرب من حكامهم الأتراك الإصلاح لجميع البلاد، حماية البلاد من الاحتلال الأجنبي لا الحكم الأجنبي، لقد طلبوا بحكم لا مركزي يوزع الحقوق والواجبات على جميع أبناء الوطن العثماني ليشركهم جميعهم في العمل لخير البلاد وتقدمها والذود عنها.

قامت الحرب وسكت العرب عن مطالبهم، ودعوا إلى تأجيل الخلاف وتوحيد الجهود. ولكن الأتراك اعتبروا الحرب فرصة يصفوّن خلالها حسابهم مع العرب تصفية نهائية، فعينوا جمال باشا السفاح، أحد أقانيم الاتحاديين الثلاثة، قائداً للجيش الرابع وحاكماً مطلق الصلاحية على إقليمي الشام والحجاز.

وسلك جمال باشا في سبيل ذلك خطة القتل الفردي والجماعي، على غرار ما فعلوا بالأرمن ولكن بطرق أخرى غير المذابح. وتبع في ذلك ثلاثة طرق، أولاً: سوق الألوف من الضباط والجنود العرب إلى جبهة القفقاس حيث الموت بالجوع والصقيع أكثر من الموت بالقتال. ثانياً: إعدام المتهمين بالفرار من الجندية دون محاكمة، وبسبب كثرتهم وعدم إمكان محاكمتهم واعدام الألوف مرة واحدة فكان الحكم ينفذ بالقرعة بنسبة عشرة بالمائة في كل مرة، وأعطيت صلاحية هذا التنفيذ إلى ضباط المراكز في المدن ورؤساء مخافر الأمن بالريف. ثالثاً: بالتجويع ولقد أماتوا ثلث أهالي لبنان جوعاً وكنا نشاهد الأموات بسبب الجوع على أرصفة شوارع دمشق وأزقتها، وعربات القمامة، تجمعهم كل صباح من الطرقات قبل أن تجمع القمامة فأموات الجوع كانوا أكثر من القمامة التي كان الجياع يتخاطفونها. إن فقدان الغذاء والدواء ووسائل العيش فتحت الطريق للأمراض على مختلف أنواعها كالكوليرا والطاعون والملاريا والتيفوس والتيفوئيد والسل والأمراض التناسلية وفقر الدم وغيرها فلا وقاية ولا دواء ولا معالجة. وتحالفت هذه الأمراض مع الجوع والهزال فأعلنتها على الناس حرباً شعواء لا هوادة فيها. فتحت لها المقابر أفواها لا تغلق وبطوناً لا تشبع. فعظم البلاء وقل الرجاء وضعفت النفوس والكرامات ورخصت الأعراض.

هذه كانت حالة بلاد الشام منذ بداية الحرب العالمية الأولى. ولكن لم تكن على مثل ذلك في الأناضول فلم يعمدوا إلى تجويعه ولم يعدموا «فراريته» بالقرعة وبالألوف وبالرغم من أن عددهم لم يكن أقل من عدد العرب حتى كانوا يفرون بأسلحتهم ويشكلون عصابات تعبث بالأمن. أما الأقطار العربية الأخرى فكل منها كان مشغولاً بنفسه ومصائبه.

الشريف حسين بن علي، كان الوحيد بين الزعماء العرب الذي قدر إمكاناته، وشعر بواجب نصرته لابناء قومه فصرف جميع جهوده لإقناع الأتراك بالرجوع عن تلك السياسة ولكنهم أبوا وتجبروا بل تمادوا في غيهم وقرروا التخلص منه وضاعف في شعور الحسين المجاعة التي بدأت تلف الحجاز. فالقمح الذي كان يرسل إليها من مصر سنوياً انقطع والحج الذي يعتبر مورد الرزق الوحيد للشعب الحجازي توقف والخط الحديدي الذي كان ينقل إلى المدينة المؤن من دمشق أصبح يعمل للمجهود الحربي علاوة عن أن دمشق كانت جائعة وخالية من المؤن. وهكذا أصبح الحجاز أمام مجاعة لا تذكر أمامها المجاعة القائمة في ديار الشام. في هذا الموقف الحائر الحرج الذي كان الحسين يعاني ويلاته يأتيه الإنكليز وقد لبسوا فروة الحمل الوديع وفي صوتهم رنة الصديق ليعرضوا عليه حل جميع مشاكل العرب وتسوية أوضاعهم إن هو خرج بهم على الأتراك ووقف بجانبهم كما وقف الأتراك بجانب الألمان وتعهدوا له بأن يعترفوا باستقلال أقطار المشرق العربي ويقدموا لهم ما يحتاجون من مال ومؤن وسلاح ويفتح البحر ويرفع الحصار عن الحجاز. وهكذا نرى أن جميع الظروف تضافرت على جر الحسين إلى الثورة والخروج على الأتراك ولم يبق لديه من خيار سوى الثورة السبيل الوحيد الذي أبقاه له الأتراك للخروج من هذا الموقف العصيب ومع ذلك لم ينفرد الحسين بتقرير الثورة لعلمه بأنها تتعلق بمقدرات المشرق العربي كله فاتصل بواسطة ابنه فيصل بمن أبقتهم مشانق جمال باشا من رجالات الأحزاب النشطين فوافقوه وحرضوه وألحوا عليه وساعدوه بآرائهم وأفكارهم وشبانهم وتقدم الحسين وأخذ على عاتقه تبعة انقاذ قومه معتمداً على قوة إيمانه بالله ومعاضدتهم وهو ينشد قوله:

««مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها».

وبدأ الإنكليز مراوغتهم للثورة منذ نشأتها. فقننوا معوناتهم من المـال والسلاح واللـوازم وصاروا يقصرونهـا على القـدر الـذي يسمح للثورة بالسير ضمن الحدود التي توجبها مصالحهم.

كان الإنكليز قبل اتفاقهم مع الحسين قد اتفقوا مع الفرنسيـين على اقتسام البلاد العربيـة وبعد ذلـك اتفقوا مـع اليهود عـلى اعطـائهم فلسطين. إذاً كـانوا يعملـون ضمن ثـلاث اتفـاقـات متعـارضة مـع بعضها في آن واحـد، ومع ذلـك فإنهم تمكنـوا بـدهـائهم وتخليهم عن مبـادىء الشرف من إبقـاء العـرب إلى جـانبهم حتى ما بعـد افتضاح سر تعـاهدهم مـع الفـرنسيـين واليهود.

لنقـرأ ما كتبـه لورنس في الصفحـة ٣٩٢ من كتـابـه «اعمـدة الحكمة» عن قضية معاهدة سايكس بيكو بعـد انكشاف أمـرها للعـرب (لحسن حظي أنني كنت قد كشفت لفيصـل قبـل هـذا التاريخ عن وجود مثل ذلك الاتفاق واقنعتـه بأن أفضـل وسيلة لكسر مفعوله هي تقديم عون فعّال للإنكليـز عندئـذ سيكون من الصعب عليهم التضحيـة بحليف السلاح بعـد النصر من أجل تنفيذ اتفاق ورقي إلخ...)

هذه هي وظيفة لورنس الأساسية: التمويه والتخدير والخديعـة وتوجيه الأمور حسبما تتطلبها المصلحة البريطانية واتفاقيـاتها السريـة مع حلفـائها والاستعـانة عـلى ذلـك ببسـاطـة العـرب واعتمادهم على العواطف والشرف.

عندما افتضح أمر معاهدة سايكس ـ بيكو كانت الثورة العربية في أوج قـوتها والحلفـاء في حالـة ضعف والأتراك قـد شعـروا بالأخطاء التي ارتكبوها بحق العرب فنحوا جمال باشا السفاح عن منصبـه وعيّنوا بـدلاً منه جمـال باشـا المرسيني المعـروف باعتداله وعدم ارتياحه للسياسة التي اتبعها جمال السفاح مع العرب وأوعزوا له بمفاوضة العرب.

لقد كان هذا الموقف ملائماً للعرب، فالإنكليز ضعفاء في الجبهة الغربية أقوياء في جبهة فلسطين. يتقدمون فيها تقدم الخائف المتردد والأتراك أقوياء بحلفائهم الألمان المنتصرين في الغرب ولكنهم ضعفاء في جميع الجبهات الأخرى يدافعون دفاع المتكل على انتصارات غيره.

كان العرب يشغلون نحو ٣٥ ألف جندي تركي ويحجزون ثلاث فرق في اليمن وعسير فلولا حربهم مع العرب لكان بإمكانهم وضع هذه القوات الكبيرة أمام الإنكليز فيتفوقون عليهم وينتقلون بذلك من الدفاع إلى الهجوم يتراءى للإنسان أنه كان بإمكان الملك حسين عندما ظهر له خداع الإنكليز أن يعيد النظر فيما أعطوه له من عهود ووعود فيجردها من أي غموض ويضعها بشكل معاهدة يشرك فيها الحلفاء (كما فعل اليهود عندما حصلوا على وعد بلفور). وإذا أبوا عليه ذلك يتفاهم مع الأتراك ويخرج بالثورة من جانب الإنكليز إلى جانبهم كحليف يشرك في محالفته لهم حليفتهم المانيا. نقول هذا الرأي بعد أكثر من نصف قرن من ذلك الموقف بعد أن انكشفت أمور كانت مجهولة وتوضحت أمور كانت غامضة. فالحسين الذي لا يدخل الشك في اخلاصه وقوة إيمانه بمصلحة قومه وهو يحمل على عاتقه تلك التبعة المادية والأدبية العظيمة، التي تنوء بحملها الجبال، كان أدرى منا بظروفها وأحوالها.

ونلاحظ أن فيصل قبل بمنطق لورنس الغريب في أن أحسن وسيلة لكسر مفعول ذلك الاتفاق (معاهدة سايكس - بيكو) هي في تقديم عون فعّال أي مزيد من السير معهم والمزيد من الانخداع بهم ومع ذلك فإنهم ضحوا به وبمصالح العرب وبما عاهدوا عليه الحسين بطريقة لا أثر فيها للشرف. لم يخطر لفيصل ما سوف يؤول إليه إفساحه في المجال أمام هذا الإنكليزي (لورنس) ليتجاوز عمله كضابط اتصال والتجول بين

البدو والاختلاط بهم من أضرار كان لها أسوأ الأثر في سمعة الثورة وتشويه غاياتها.

كان لورنس أكثر لياقة من باقي زملائه الإنكليز، للقيام بالمهمة التي كان يطلبها ضابط اتصال بين القيادتين الإنكليزية والعربية. لقد كان على معرفة بأخلاق العرب وعاداتهم. وقد مارس العيش معهم وجاراهم بالسفر وتحمل التعب وشظف العيش، لقد تمكن من تقوية مركزه عند فيصل وكسب ثقته. بحسن تصرفه بطريقة القيام بواجبه. كان يوحي لفيصل أن كل منفعة يحصل عليها جيشه كانت نتيجة لاقتراحاته وكان كلما عاد من قيادة أللنبي يأتي ومعه أنباء سارة تضاعف من ثقة فيصل به ونجح لورنس في اقناع أللنبي بأن الجيش العربي يقوم بجهود فعّالة وبتعطيل الألوف من القوات التركية وجعله يعتقد بأنه القوة المحركة في هذا الجيش وهكذا ثبت لورنس مركزه لدى فيصل من جهة وأللنبي من جهة أخرى.

ومع ذلك فإن كل ما ذكرناه عن لورنس لم يكن كافياً لذيوع اسمه واشتهاره على المستوى العالمي الذي وصل إليه لو لم يكن قد مثل دوره أحسن تمثيل وعلى غاية ما يكون الاتقان والبراعة. لقد قال الأديب الفيلسوف الإنكليزي برنارد شو وكان لورنس صديقاً له ولزوجته: إنه يفوق أذكى الشياطين في أدوار الكوميديا. وقال عنه أيضاً: كان مخلوقاً غريباً جداً مطبوعاً على التمثيل منذ مولده منصرفاً لجميع أنواع الحيل والألاعيب لا يعرف المرء بأي منظار ينظر إليه. وارتداؤه الملابس العربية بين العرب وخارج البلاد العربية في فلسطين والقاهرة وباريس وبريطانيا يدل على ما كان يتغلغل في نفسه من حب التمثيل واتقان ادواره. لقد مثل أمام رؤسائه وخصوصاً أللنبي أنه كان القوة الفعّالة المسيرة للجيش العربي وكذب عليه في أعمال لم يأتها قط كتسييره للحملة التي فتحت

العقبة ووصوله إلى أم قيس وبعلبك ودمشق وفي حادثة درعا وفي دخوله عمان في زي الغجريات وغيرها وتمثيله أمام البدو بأنه بدوي وتمثيله أمام فيصل وقادته بأنه محب للعرب وتقديمه لمصلحتهم على مصلحة الإنكليز وتمثيله أخيراً بعد الحرب أمام الصحافي الأميركي (لويل توماس) الذي افتتح الكتابة عنه والذي كان السبب في شهرته بأنه كان كل شيء في الثورة العربية وكان يسير والبدو يسيرون من خلفه.

لقد حذف لورنس فصلاً كاملاً من كتابه أعمدة الحكمة بناء على نصيحة شو ومما جاء في عبارات هذا الفصل قوله: لقد كانت الثورة حرباً عربية خاض العرب غمارها جنوداً وقادة لتحقيق هدف عربي في بلاد العرب وكان نجاح الثورة طبيعياً لا بد من وقوعه وهذا النجاح لم يعتمد إلا على القليل القليل من المساعدة الخارجية التي قدمها البريطانيون القلائل في الثورة» إلى أن قال: «ولكن دوري الحقيقي في الثورة كان دوراً صغيراً ولكن نتيجة لقلم سيال وذهن ناشط فإنني أخذت لنفسي دوراً رئيسياً مصطنعاً»[1].

إن الشهرة شيء والعظمة شيء آخر ما كل مشهور عظيماً ولا كل عظيم مشهوراً فالعظمة لا تقبل الزيف ولا تبنى إلا على الأعمال والأخلاق الفاضلة والمزايا الحسنة. يمكن لرياضي أو طيار أو ممثل أو مغنٍ أو معماري أو سياسي أو عالم أو كاتب أو مجرم أو مهرج أن يكون شهيراً لكن الإنسان لا يمكن أن يكون عظيماً إلا إذا تسلق درجات العظمة بأعمال حقيقية صحيحة تتصل بخير المجتمع وكمال الإنسان.

لقد أصبح لورنس شهيراً ملأت شهرته العالم كما ملأتها شهرة طرزان. ولكنه بنى أكثر هذه الشهرة على الكذب والخداع

(١) سليمان موسى **لورنس والعرب**، ص ٢٨٠.

والغش والتهويل والادعاء وعلى ما قام بـه غيره من أعمـال. إن كل بناء يرتفع عـلى غير أسـاس صحيح ينهـار وهذا مـا حصل للـورنس، إنه لمـع كما يلمـع البرق وحلق بصـورة غير طبيعيـة وانطفأ وانهار بسرعة وبصورة غير طبيعية بعد أن جاع وتسكع وتشرد.

لقد أصاب لورنس حظاً من الشهرة التي أوجدتها له الـدعايـة لمقتضيات الحرب فأيقظت بنفسه حب الظهور الذي كان كامنـاً فيها، فأردفها بكتاب بديع الإنشاء سلس العبارات لم يحـاسبه أحد على ما جاء فيه لقد خدع العرب بقومه وبنفسـه في آمالهم وآمانيهم. ولكن التاريخ لا يخدع مهما طال الزمان.

فيما يلي الكتاب الذي وجهه السيد ناجي شوكت
إلى المؤلف وهو رئيس وزراء عراقي سابق وأحد
الضباط الذين اشتركوا في الثورة العربية الأولى
وممن عرفوا لورنس معرفة شخصية وعلى علم
بالأشخاص والوقائع التي كتب عنها.

بغداد ـ الكراد الشرقية

١٩٧١/١/٤

عزيزي العقيد صبحي العمري..

تلوت باهتمام زائد كتابكم القيّم عن «لورنس» والدور الذي لعبه في الثورة التي أعلنها الحسين بن علي شريف مكة المكرمة، في التاسع من شعبان ١٣٣٤ والعاشر من حزيران ١٩١٦ فوجدت العرض سليماً والحوادث التي ذكرت فيه منسقة تنسيقاً جميلاً فأقدر عملك التاريخي المفيد، وأبارك لك النجاح الذي بلغته في كتابك.

وفي الحقيقة، أن دور لورنس في هذه الثورة كان موضوع خلاف ظاهر بين الكتّاب والباحثين فقد رفعه فريق إلى أعلى المراتب واعتبره العامل الأول لنجاح الثورة في مختلف ميادينها، وزهد فريق آخر في دور لورنس في هذه الثورة على أساس أنه لم يكن أكثر من جاسوس إنكليزي كان ينفذ تعليمات حكومته البريطانية دون أن يكون له حق التدخل أو الاعتراض. ولست ممن يميل إلى الاطناب في حق هذا البريطاني ولا إلى الزهد في عمله الظاهر. على أن مبالغات الرجل نفسه فيما كتبه عن دوره في الثورة لا يمكن أن تنطلي على القارىء الفطن.

لقد نزل لورنس في مظاهره الاعتبارية إلى مستوى البدو فلبس لباسهم وشاركهم طعامهم وشظف عيشهم ليعزل القوى العربية الواعية عن أن يكون لها دورها الحاسم في أداء رسالتها القومية إداء كاملاً فبذل من المادة والوعود ما غرر به ضعاف الإيمان، وخدع الآخرين فكانت النتيجة أن جزئت البلاد العربية إلى دويلات متنافرة ومستعمرة وحكومات متخاذلة وهو ما كانت تهدف إليه السياسة

البريطانية منذ البداية، وكانت أسباب وعوامل نجاح هذه السياسة:

١ ـ ضعف الوعي القومي في البلاد العربية آنئذ.

٢ ـ كان عدد المثقفين العرب قليلاً إن لم يكن محدوداً.

٣ ـ تخاذل وخنوع بعض زعماء العرب للسياسة البريطانية وجعلهم مقدّرات الأمة العربية ألعوبة بيد هذه السياسة المقيتة الخادعة.

ولكن مهما قيل ويقال في هذا الصدد فلا يمكن الاستهانة بالدور العظيم الذي لعبته الثورة العربية فقد كانت بمثابة الانطلاقة لفتح الطريق العام أمام الشعوب العربية لتسير بنضالها ضد الاستعمار والرجعية ومن خانوا وتخاذلوا من ابنائها فقد أصبحت لنا أربع عشرة دولة عربية مستقلة الآن وازداد الوعي القومي بين ابناء الجيل الصاعد الأمر الذي يجعل آمالنا في مستقبل أمتنا عظيمة على الرغم من بعض الانتكاسات وبعض النكوص في البلاد العربية.

وعلى كل فأنا من المتفائلين أن المستقبل لنا بعون الله تعالى رغم تكالب الاستعمار وتحالفه ورغم دسائس الصهيونية العالمية ومواقفها اللئيمة ضدنا.

وتفضلوا في الختام بقبول المحبة والاحترام من

المخلص
ناجي شوكت
توقيع

بغداد – الكرادة الشرقية
١٩٨١/١/٤

عزيزي العميد نجم العربي

تلقيت باهتمام وشكر كتابكم القيم عن "لورنس" والدور الذي لعبه في الثورة التي أعلنها الحسين بن علي شريف مكة المكرمة في التاسع من شعبان ١٣٣٤ والعاشر من حزيران ١٩١٦ فوجدت العرض سليماً والحوادث التي ذكرت فيه منسقة تنسيقاً جيداً فاقتضت معلومات التاريخ المفيد وأيدت تلك الأحكام التي بلغتها في كتابك.

في الحقيقة أن دور لورنس في صنع الثورة كانت موضع خلاف ظاهر بين الكتاب والباحثين. فقد دفعه فريق إلى أعلى المراتب واعتبره البطل الأول للقائم بالثورة في مختلف ميادينها، ووقفه فريق آخر في دور لورنس في صنع الثورة على أساس أنه لم يكن أكثر من جاسوس انكليزي كان ينفذ تعليمات حكومته البريطانية دون أن يحيد عنها قيد أنملة أو الانحراف. ولست ممن يميل إلى الإطناب في حق هذا البريطاني ولا إلى الزهد في عمله الفاضل. وإن مبالغات الرجل نفسه فيما كتبه عن دوره في الثورة لا يمكن أن تنطلي على المتتبعين المنصفين.

لقد نزل لورنس في مظاهره الاعتيادية إلى مستوى البدو فلبس لباسهم وشاركهم طعامهم وتقمص بينهم ليبذل القوى العربية الواعية عن أن تجد لها دورها القائم في إدارة سياستها القومية الداخلية كاملة فبذل من الأموال والوعود ما غرّ به ضعاف النفوس والطامعين. فكانت النتيجة أن جزأت البلاد العربية إلى دويلات منها مستعمرة وحكومات تابعة وهو ما كانت تهدف إليه السياسة البريطانية منذ البداية.

وكانت أسباب وعوامل نجاح تلك السياسة ،

١ - ضعف الوعي القومي في البلاد العربية آنئذ
٢ - كان عدد المثقفين العرب قليلاً يومئذ إذ لم يكن كما هو
٣ - تخاذل وخنوع بعض زعماء العرب لسياسة البريطانية وجعلهم مقدرات الأمة العربية ألعوبة بيد صنع السياسة الغربية الخادعة .

ولكن مما يبعث ويثلج في هذا الصدد فقد كانت الاستهانة بالدور العظيم الذي لعبته الثورة العربية فقد كانت بمثابة الانطلاقة التي مهدت الطريق أمام الشعوب العربية لتسعى بنضالها ضد الاستعمار والرجعية ومن عاونوه وتخاذلوا من أبنائها حتى صحت نتائج مشرفة ودول عربية مستقلة الآن وازداد الوعي القومي بين أبناء الجيل الصاعد الذي يدعو ويجعل آمالنا في مستقبل أمتنا عظيمة على الرغم من بعض الانتكاسات وبعض النكوص في البلاد العربية .

وعلى كل فأنا من المتفائلين بأن المستقبل لنا بعون الله تعالى رغم تكالب الاستعمار وتحالفه ومن دسائس الصهيونية العالمية ومواقفها اللئيمة ضدنا ونفسح في الختام بقبول المحبة والاحترام ...

المخلص

ناجي شوكت

فهرس الاعلام

ف

ق

ك

ل

م

ن

لورنس

كثيرة هي الأشياء التي قيلت عن لورنس، بعضها صحيح ومعظمها نسجتها مخيلة الناس أو هو عمل على نسجها حول نفسه. وقد ساهمت مصالح الدول ونوايا الصهيونية، على تضخيمها والمبالغة فيها، حتى لغدى الرجل أشبه بالاسطورة.

صبحي العمري، الضابط العربي في الثورة أيامذاك، والذي عرفه عن قرب، له رؤية تختلف عن الكثير مما قيل أو نُشر عن الرجل.

قد لا تكون دراسته لهذه الشخصية الغريبة، هي القول الفصل، ولكنها، كعمل، تستحق التوقف عندها طويلاً..



1855131064